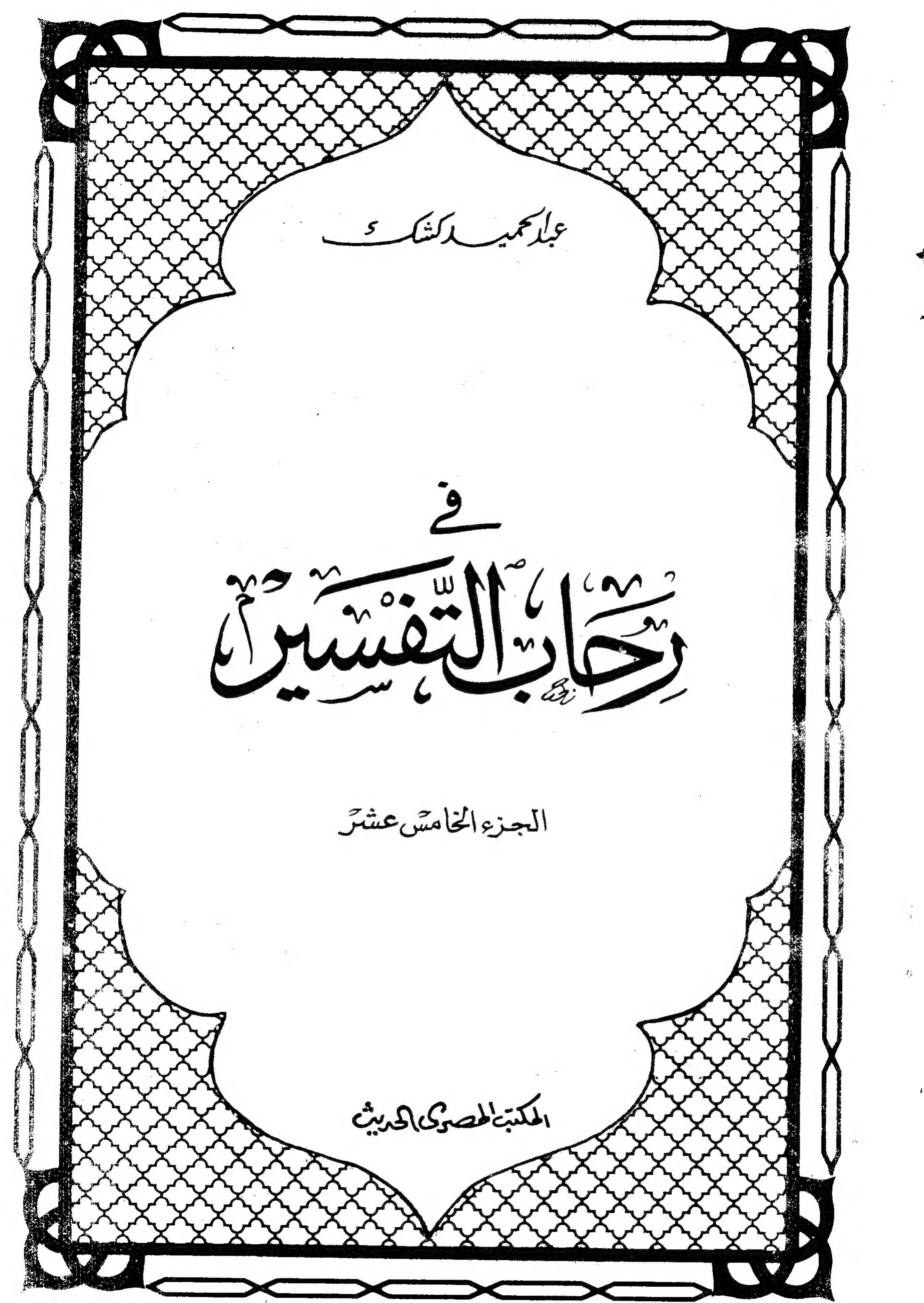
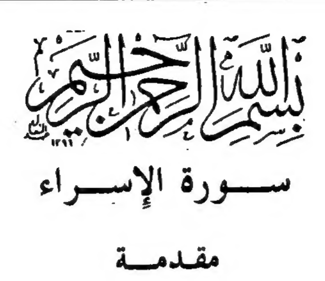

عبد الحميد كشك
في رحاب التفسير
الجزء الخامس عشر
المكتب المصري الحديث



سورة الإسراء

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، وآياتها مائة وخمس عشرة آية عند الكوفيين ، وكلماتها ألف وخمسمائة وثلاث وستون ، وحروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون .

مقصود السورة

تنزيه الحق تعالى ، ومعراج النبى ﷺ ، والإسراء إلى المسجد الأقصى ، وشكر نوح عليه السلام ، وفساد حال بنى إسرائيل .

ومكافأة الإحسان والإساءة ، وتقويم القرآن الخلائق ، وتخليق الليل والنهار .

وبيان الحكمة فى سير الشمس والقمر ودورهما ، وملازمة البخت المرء ، وقراءة الكتب فى القيامة .

وبيان الحكمة فى إرسال الرسل ، والشكوى من القرون الماضية .

وذكر طلب الدنيا والآخرة ، وتفضيل بعض الخلق على بعض ، وجعل بر الوالدين والتوحيد فى قرن واحد ، والإحسان إلى الأقارب .

والأمر بترك الإسراف ، وذم البخل ، والنهى عن قتل الأولاد ، وعن الزِّنا ، وقتل النفس ظلماً ، وأكل مال اليتيم ، وعن التكبر ، وكراهية جميع ذلك .

والسؤال عن المقول والمسموع ، والرد على المشركين ، وتسبيح الموجودات .

وتعيير الكفار بطعنهم فى القرآن ، ودعوة الحق الخلق وإجابتهم له تعالى .

وتفضيل بعض الأنبياء عن بعض ، وتقرب المقربين إلى حضرة الجلال ، وإهلاك القرى قبيل القيامة ، وفتنة الناس برؤيا النبى ﷺ ، وإباء إبليس من السجدة لآدم ، وتسليط الله إياه على الخلق.

وتعديد النعم على العباد ، وإكرام بنى آدم ، وبيان أن كل أحد يدعى فى القيامة بكتابه ودينه وإمامه ، وقصد المشركين إلى ضلال الرسول ﷺ وإذلاله .

والأمر بإقامة الصلوات الخمس فى أوقاتها . وأمر الرسول ﷺ بقيام الليل ، ووعد بالمقام المحمود ، وتخصيصه بمدخل صدق ومخرج صدق ، ونزول القرآن بالشفاء والرحمة .

والشكاية من إعراض العبيد ، وبيان أن كل أحد يصدر منه مايليق به .

والإشارة إلى جواب مسألة الروح ، وعجز الخلق عن الإتيان بمثل القرآن ، وإقتراحات المشركين على رسول الله ﷺ ، وتفصيل حالهم فى عقوبات الآخرة .

وبيان معجزات موسى ومناظرة فرعون إياه ، وبيان الحكمة فى تفرقة القرآن ، وآداب نزوله ، وآداب الدعاء ، وقراءة القرآن .

وتنزيه الحق تعالى عن الشريك والولد ، فى ﴿ الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ﴾ إلى قوله ﴿ وكبره تكبيرا ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ .

وخصت سورة الكهف ﴿ أجراً حسناً ﴾ لأن الأجر فى السورتين الجنة والكبير والحسن من أوصافها ، لكن خصت هذه السورة بالكبير بفواصل الآى قبلها وبعدها ، وهى : ﴿ حصيراً ﴾ و ﴿ أليماً ﴾ و ﴿ عجولاً ﴾ ، وكلها وقع قبل آخرها مدة .

وكذلك فى سورة الكهف جاء على مايقتضيه الآيات قبلها وبعدها ، وهى ﴿ عوجاً ﴾ وكذا ﴿ أبداً ﴾ وكلها ماقبل آخرها متحرك .

وأما رفع ﴿ يبشر ﴾ فى سبحانه ، ونصبها فى الكهف ، فليس من المتشابه .

قوله : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً ﴾ وقوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ .

وقوله : ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ .

فيها بعض التشابه ، ويشبه التكرار وليس بتكرار ، لأن الأولى فى الدنيا ، والثالثة فى العقبى ، والخطاب فيهما للنبى ﷺ ، والمراد به غيره كما فى قوله : ﴿ إما يبلغن عندك الأكبر ﴾ .

وقيل:القول مضمر أى قل لكل واحد منهم : لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً فى الدنيا ، وتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً فى الأخرى .

وأما الثانية فخطاب للنبى ﷺ وهو المراد به ، وذلك أن امرأة بعثت صبياً لها إليه مرة بعد أخرى ، سألته قميصاً ولم يكن عليه ولا له ﷺ قميص غيره ، فنزعه ودفعه إليه ، فدخل وقت الصلاة ، فلم يخرج حياء ، فدخل عليه أصحابه فرأوه على تلك الصفة فلاموه على ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فتقعد ملوماً ﴾ يلومك الناس ﴿ محسوراً ﴾ مكشوفاً ، هذا هو الأظهر من تفسيره والله أعلم .

قوله : ولقد صرفنا فى هذا القرآن ﴿ ليذكروا ﴾ وفى آخر السورة : ﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن ﴾ وقال فى الكهف : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس ﴾ .

إنما لم يذكر فى أوّل سبحان ﴿ للناس ﴾ لتقدم ذكرهم فى السورة ، وذكرهم فى ﴿ الكهف ﴾ إذ لم يجر ذكرهم ، وذكر الناس فى آخر سبحان ، وإن جرى ذكرهم لأن ذكر الانس والجن جرى معاً فذكر ﴿ للناس ﴾ كراهة الالتباس وقدمه على [فى هذا القرآن] كما قدمه فى قوله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ ثم قال : ﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن ﴾ .

وأما فى الكهف فقدم ﴿ فى هذا القرآن ﴾ لأن ذكره أجل الغرض ، وذلك أن اليهود سألته عن قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، فأوحى الله إليه فى القرآن ، وكأن تقديمه فى هذا الموضوع أجدر ، والعناية بذكره أحرى وأخلق .

قوله : ﴿ وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ .

ثم أعادها فى آخر السورة بعينها من غير زيادة ولا نقصان ، لأن هذا ليس بتكرار ، فإن الأول من كلامهم فى الدنيا حين جادلوا الرسول وأنكروا البعث ، والثانى من كلام الله حين جازاهم على كفرهم وقولهم ذلك وإنكارهم البعث ، فقال ﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ .

قوله : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا ﴾ .

وفى الكهف ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ .

اقتصر هنا على الاشارة لتقدم ذكر جهنم ، ولم يقتصر عليها (فى الكهف) وإن تقدم ذكر جهنم ، بل جمع بين الاشارة والعبارة لما اقترن بقوله : ﴿ جنات ﴾ فقال : ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ ثم قال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس ﴾ ، ليكون الوعد والوعيد كلاهما ظاهرين .

قوله ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ وفى سبأ ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ لأنه يعود إلى الرب وقد تقدم ذكره فى الآية الأولى وهو يقول ﴿ وربك أعلم ﴾ وفى سبأ لو ذكر بالكناية لكان يعود إلى الله كما صرح فعاد إليه وبينه وبين ذكره سبحانه صريحاً أربع عشرة آية فلما طال الفصل صرح قوله : ﴿ أرأيتك هذا الذى ﴾ وفى غيرها ﴿ أرأيت ﴾ لأن ترادف الخطاب يدل على أن المخاطب به أمر عظيم ، وهكذا هو فى السورة لأنه لعنه الله ضمن احتناك ذرية آدم عن آخرهم إلا قليلاً .

ومثل هذا ﴿ أرأيتكم ﴾ فى الأنعام فى موضعين .

وقوله ﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى** ﴾ : وفى الكهف زيادة : ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ لأن ما فى السورة معناه : ﴿ ما منعهم ﴾ عن الإيمان بمحمد إلا قولهم : أبعث الله بشراً رسولاً ، هلا

بعث ملكاً ، وجهلوا أن التجانس يورث التوانس ، والتغاير يورث التنافر ، وما فى الكهف معناه : مامنعهم عن الإيمان والاستغفار إلا اتباع سنة الأولين .

قال الزَّجاج : إلا طلب سنة الأولين وهو قولهم ﴿إن كان هذا هو الحق﴾ فزاد : ويستغفروا ربهم لاتصاله بقوله : ﴿ سنة الأولين ﴾ وهم قوم نوح وصالح وشعيب ، كلهم أمروا بالاستغفار فنوح بقوله : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾[١] .

وهود يقول : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾[٢] .

وصالح يقول : ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾[٣] .

وشعيب يقول : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾[٤] .

فلما خوفهم سنة الأولين أجرى المخاطبين مجراهم .

قوله ﴿ قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ﴾ وكذا جاء فى الرعد ، وفى العنكبوت ﴿ قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً ﴾ كما فى الفتح ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ ، ﴿ وكفى بالله نصيراً ﴾ ، ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ .

فجاء فى الرعد ، وفى سبحان على الأصل ، وفى العنكبوت آخر ﴿ شهيداً ﴾ لما وصفه بقوله تعالى ﴿ يعلم ما فى السموات والأرض ﴾ فطال .

قوله : ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر ﴾ ، وفى الأحقاف ﴿ بقادر ﴾ وفى يس ﴿ بقادر ﴾ لأن ما فى هذه السورة خبر أن ، وما فى يس خبر ليس ، فدخل الباء الخبر وكان القياس ألا يدخل فى حم ، لكنه شابه (ليس) بترادف النفى وهو قوله ﴿ أولم يروا ﴾ ، [ولم يعى] .

وفى هذه السورة نفى واحد ، وأكثر أحكام المتشابه ثبت من وجهين قياساً على باب مالا ينصرف وغيره .

قوله ﴿ إنى لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ قابل موسى كل كلمة من فرعون بكلمة من نفسه فقال ﴿ وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾

---

(١) الآية ١٠ من سورة نوح
(٢) الآية ٥٢ من سورة هود
(٣) الآية ٦١ من سورة هود
(٤) الآية ٩٠ من سورة هود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

أخرج أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم عن عائشة (أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر)[١] .

وأخرج البخارى وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال فى هذه السورة والكهف ومريم وطه والأنبياء :﴿هم من العِتاق الأول وهن من تِلادى﴾[٢] .

وجه مناسبتها لسورة النحل

١ – أنه سبحانه ذكر فى سورة النحل اختلاف اليهود فى السبت ، وهنا ذكر شريعة أهل السبت التى شرعها لهم فى التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : (إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل) .

٢ – أنه لما أمر نبيه ﷺ بالصبر ونهاه عن الحزن وضيق الصدر من مكرهم فى السورة السالفة ، ذكر هنا شرفه وعلو منزلته عند ربه .

٣ – أنه ذكر فى السورة السالفة نعما كثيرة حتى سميت لأجلها سورة النعم ، ذكر هنا أيضا نعما خاصة وعامة .

٤ – ذكر هنا أن النحل﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾، وهنا ذكر﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ .

٥ – أنه فى تلك أمر بإيتاء ذى القربى ، وكذلك هنا مع زيادة إيتاء المسكين وابن السبيل .

المفردات : ﴿ **سبحان الذى أسرى** ﴾ : أى تنزيها له من كل ما لا يليق بجلاله وكماله ، ﴿ **والإسراء كالسرى** ﴾ : السير بالليل خاصة ، ﴿ **والمسجد الحرام** ﴾ : مسجد مكة ، ﴿ **والمسجد الأقصى** ﴾ : بيت المقدس وهو أقصى وأبعد بالنظر إلى من بالحجاز .

(١) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٥٨ ، وفى ٥ : ١١٤ ، ١٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٧ ، ١ ، وسورة ٢١ ، ١ . وفى فضائل القرآن : ٦ .

أكثر العلماء أن الإسراء كان بالروح والبدن يقظة لا مناماً ، ولهم على ذلك أدلة :

١ - أن التسبيح والتعجب فى قوله : ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده** ﴾ : إنما يكون فى الأمور العظام ، ولو كان ذلك مناماً لم يكن فيه كبير شأن ، ولم يكن مستعظماً .

٢ - أنه لو كان مناماً ما كانت قريش تبادر إلى تكذيبه ولما قالت أم هانىء : لا تحدث الناس فيكذبوك . ولما فُضل أبو بكر بالتصديق ، وجاء فى الحديث عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ (لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها (لم أعرفها حق المعرفة) فكَرَبت كربا ما كُربت مثله قط فرفعه الله لى انظر إليه فما سألونى عن شىء إلا أنبأتهم به) الحديث .

٣ - إن قوله ﴿ **بعبده** ﴾ : يدل على مجموع الروح والجسد .

٤ - إن ابن عباس قال فى قوله ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ، ويؤيده أن العرب قد تستعمل الرؤيا فى المشاهدة الحسية . ألا ترى إلى قول الراعى يصف صائداً :

وكبّـر للرؤيـا وهشّ فـؤاده ... وبشّـر قلبـا كـان جمـاً بلابلـه

٥ - إن الحركة بهذه السرعة ممكنة فى نفسها ، فقد جاء فى القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة فى الأوقات القليلة ، فقد قال تعالى فى صفة سير سليمان عليه السلام ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾[1] وجاء فيه أن الذى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام فى مقدار لمح البصر ، كما قال تعالى : ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾[2] وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى جميعهم .

قال أبو جعفر الطبرى : الصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده ، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ ، أن الله حمله على البراق حتى آتاه به ، وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل ، فأراه ما أراه من الآيات . ولا معنى لقول من قال أسرى بروحه دون جسده ، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن فى ذلك ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوته ، ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ، إذ لم يكن منكراً عندهم ، ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرائى منهم فى المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ما هو مسيرة شهر أو أقل .

---

(١) الآية ١٢ من سورة سبأ .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النمل .

وبعد فإن الله إنما أخبر فى كتابه أنه أسرى بعده ولم يخبرنا بأنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزاً لاحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره ، إلى أن الأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله ﷺ أن الله أسرى به على دابة يقال لها البراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجساد ا هـ .

وكذلك كان المعراج إلى السموات العلى بجسده وروحه يقظة لا مناماً ، لدليلين :

١ - آية الاسراء ، إذ صرح فيها بأنه أسرى بعبده والعبد مجموع الروح والجسد ، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً بهما .

٢ - الحديث المروى فى الكتب الصحاح كالبخارى ومسلم وغيرهما وهو يدل على أن الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات العلى ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الاقلام .

وفى الإسراء والمعراج موعظة وذكرى .

يقول الشيخ المراغى رحمه الله تعالى :

إنا لنقف قليلا لدى هذين الحادثين الجليلين ، لنستخلص منهما أموراً هى الغاية فى العظة والاعتبار :

١ - إن هاتين الرحلتين : الرحلة الأرضية (الإسراء) والرحلة السماوية (المعراج) حدثتا فى ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة ، ليمحص الله المؤمنين ، ويبين منهم صادق الإيمان ومن فى قلبه منهم مرض ، فيكون الأول خليقاً بصحبة رسوله الأعظم إلى دار الهجرة ، والانضواء تحت لوائه ، وجديراً بما يحتمله من أعباء عظام ، وتكاليف شاقة ، من حروب دينية ، وقيام بدعوة عظيمة تستتبع همة قعساء ، وإنشاء دولة تبتلع المعمور فى ذلك الحين شرقاً وغرباً .

٢ - إن الله أطلع رسوله على ما فى هذا الكون أرضيه وسماويه من العظمة والجلال ليكون ذلك درساً علمياً لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر ، فإن التعليم بالمشاهدة أجدى أنواع التعليم ، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة أو يجلس إلى معلم . أو يسبح فى أرجاء المعمورة ، أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء . فقد كفل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى ، وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم التى لا تصل أذهاننا إلى إدراك فهمها ، إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأنّى لنا أن نصل إلى ذلك وقد حبس عنا الكثير من العلم ولم نؤت إلا قليله ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[1] .

٣ - إن ما يجد كل يوم من ضروب المخترعات والتوسل بها إلى طى المسافات بوسائل الطيارات ، وقطع المحيطات فى قليل الساعات من قارة إلى قارة ، ومن قطر إلى قطر ، ليجعلنا نعتقد أن ما جاء فى وصف هاتين الرحلتين من الأمور الميسورة التى ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة .

---

(١) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

٤ – إن روحانية الأنبياء تتغلب على كثافة أجسامهم ، فما يخيل إلينا من العوائق العملية من صعوبة الوصول إلى الملأ الأعلى لتخلخل الهواء ، وإستحالة الوصول إلى الطبقات العليا من السماء ، فهو إنما يكون بالنظر إلى الأجرام والأجسام المشاهدة فى عالم الحس ، وإن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاماً لم يصل العقل البشرى إلى تحديدها ، وإبداء الرأى فيها ، وإنها لفوق مستوى إدراكه ، فأجدر بنا ألا نطيل البحث فيها ، ولا التعمق فى استقصاء آثارها .

٥ – إن ما جاء فى الحديث من أن الرسول ﷺ صلى إماماً بالأنبياء ، ليرشد إلى أن محمداً ﷺ جاء بشريعة ختمت الشرائع السالفة كلها ، وأئمتها ومن أوتوها ألقوا الزعامة إليه ، وصاروا مؤتمين به .

٦ – إن فى هذا مغزى جديدا بطويل التأمل والتفكير ، وهو أن جميع الأنبياء كانوا فى وفاق ووئام فى الملكوت الأعلى بالقرب من ربهم الذى أرسلهم ، أفلا يجدر بمتبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم ، وأن يجعلوا أمرهم بينهم سلماً لا حرباً ، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرة والقانون الذى جاءت به هو الشريعة التى يقضى بها بين الناس كما هو المتبع فى القوانين الوضعية ، فإن الذى يجب العمل به هو القانون الأخير ، وهو يُلغى جميع ما سبقه .

شـــرح وتفصيـــل

لمعجزتى الإسراء والمعراج شرح وتفصيل فى السنة المطهرة .

قال العلامة ابن كثير فى قوله : ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** ﴾ :

قال رحمه الله : يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ **الذى أسرى بعبده** ﴾ : يعنى محمداً ﷺ ﴿ **ليلا** ﴾ : أى فى جنح الليل ﴿ **من المسجد الحرام** ﴾ : وهو مسجد مكة ﴿ **إلى المسجد الأقصا** ﴾ : وهو بيت المقدس الذى بإيلياء ، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمّهم فى محلتهم ودارهم ، فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ **الذى باركنا حوله** ﴾ : أى فى الزروع والثمار ﴿ **لنريه** ﴾ : أى محمداً ﴿ **من آياتنا** ﴾ : أى العظام ، كما قال تعالى : ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾[1] .

وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه ﷺ .

وقوله تعالى ﴿ **إنه هو السميع البصير** ﴾ : أى السميع لأقوال عباده ، مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم ، فيعطى كلا منهم ما يستحقه فى الدنيا والآخرة .

---

(١) الآية ١٨ من سورة النجم .

ذكر الأحاديث الواردة في الإسراء

قال الإمام أبو عبد الله البخارى : حدثنى عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان هو ابن بلال عن شريك بن عبد الله قال : سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة (إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو ؟ فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم . فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه نور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاد يده – يعنى عروق حلقه – ثم أطبقه .

ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب باباً من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا ؟ فقال جبريل قال : ومن معك ؟ قال معى : محمد . قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم قالوا : فمرحباً به وأهلاً يستبشر به أهل السماء ، لايعلم أهل السماء بما يريد الله به فى الأرض ، حتى يعلمهم .

فوجد فى السماء الدنيا آدم فقال له جبريل : هذا أبوك آدم . فسلم عليه ، وردّ عليه آدم ، فقال : مرحباً وأهلا بابنى نعم الابن أنت ، فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذان النيل والفرات ، عنصرهما ثم مضى به فى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب بيده فإذا هو مسك أزفر ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك

ثم عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة فى الأولى : من هذا ؟ قال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال محمد ﷺ قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم . قالوا : مرحباً به وأهلاً

ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك .

كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس فى الثانية ، وهارون فى الرابعة ، وآخر فى الخامسة لم أحفظ اسمه وإبراهيم فى السادسة ، وموسى فى السابعة . بتفضيل كلام الله تعالى .

فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع على أحداً .

ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة .

ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى ، فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة . قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم ، فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك ، فأشار إليه جبريل : أن نعم إن شئت . فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو فى مكانه : يارب خفف عنا فإن أمتى لا تستطيع هذا . فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال : يا محمد والله لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً ، فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبى ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل .

فرفعه عند الخامسة فقال : يارب إن أمتى ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عنا فقال الجبار تبارك تعالى : يا محمد . قال : لبيك وسعديك . قال : إنه لا يبدل القول لدى ، كما فرضت عليك فى أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهى خمسون فى أم الكتاب وهى خمس عليك .

فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها ، قال موسى : قد والله راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضا . قال رسول الله ﷺ : يا موسى قد والله استحييت من ربى عز وجل مما أختلف إليه . قال : فاهبط باسم الله . قال : واستيقظ وهو فى المسجد الحرام[1] .

وهكذا ساقه البخارى فى كتاب التوحيد ورواه فى صفة النبى ﷺ .

قالت عائشة وابن مسعود وأبو هريرة فى حملهم قوله تعالى :﴿ ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾[2] الخ الآيات حمل هذه الآيات على جبريل أصح .

قال أبو ذر : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال : (نور أنَّى أراه) وفى رواية : (رأيت نوراً)[3] أخرجه مسلم .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : (أُتيت بالبراق وهو دابة

(١) أخرجه البخارى فى الصلاة : ١ ، وفى الأنبياء : ٥ ، وفى التوحيد : ٣٧ . ومسلم فى الإيمان : ٢٥٩ ، ٢٦٣ . وابن ماجة فى الإقامة : ١٩٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٤٩ ، وفى ٥ : ١٤٤ .

(٢) الآيات ٨ – ١٠ من سورة النجم .

(٣) أخرجه مسلم فى الايمان ٢٩١ . والترمذى فى تفسير سورة ٥٣ : ٧ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٥٧ ، ١٧١ ، ١٧٥ .

أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التى يربط فيها الأنبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين .

ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل : أصبت الفطرة قال ثم عرج بى إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا يابنى الخاله يحيى وعيسى فرحبا بى ودعوا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطى الشطر الحسن فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال جبريل فقيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير ثم يقول الله تعالى ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾[1] .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت ، قال جبريل فقيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل قد أرسل إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد فقيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام وإذا هو مستند إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه .

ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها قال فأوحى الله إلى ما أوحى وقد فرض على فى كل يوم وليلة خمسين صلاة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى قال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة فى كل يوم وليلة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك . وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلى ربى فقلت أى رب خفف عن أمتى فحط عنى خمساً فنزلت حتى انتهيت إلى

---

(1) الآية ٥٧ من سورة مريم .

موسى فقال ما فعلت فقلت قد حط عنى خمساً ، فقال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قال فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى ويحط عنى خمساً خمساً حتى قال : يا محمد هن خمس صلوات فى كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت عشراً ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فإن عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته ، فقال ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك فقال رسول الله ﷺ لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت .

قال البيهقى وفى هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس ، وهذا الذى قاله هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرية .

مشاهد ليلة الإسراء والمعراج

روى الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (لما عرج بى إلى ربى عز وجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم)(١) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (مررت ليلة أسرى بى على موسى عليه السلام قائماً يصلى فى قبره)(٢) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها حركت ذنبها فقال لها جبريل : مه يابراق ، فوالله ماركبك مثله . وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جانب الطريق فقال : (ماهذه ياجبريل ؟) قال : سر يامحمد قال : فسار ماشاء الله أن يسير ، فإذا شيء يدعوه متنحيا عن الطريق فقال : هلم يامحمد ، فقال له جبريل : سر يامحمد . فسار ماشاء الله أن يسير . قال : فلقيه خلق من خلق الله فقالوا : السلام عليك ياأول السلام عليك ياآخر السلام عليك ياحاشر . فقال له جبريل : أردد السلام يامحمد . فرد السلام ، ثم لقيه الثانية فقال له مثال مقالته الأولى ، ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فعرض عليه الخمر والماء واللبن ، فتناول رسول الله ﷺ اللبن فقال له جبريل : أحببت الفطرة ، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك ، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك ، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فأمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة .

ثم قال له جبريل : أما العجوز التى رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقى من عمر تلك العجوز .

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب : ٣٥ . والإمام أحمد فى ٣ : ٢٢٤ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٢٠ .

وأما الذى أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس ، أراد أن تميل إليه .

وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام . وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة .

وفى حديث لابن أبى حاتم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : يا جبريل (مالى لم آت أهل سماء إلا رحبوا بى وضحكوا إلى غيرَ رجل واحد فسلمت عليه فرد على السلام ، ورحب بى ولم يضحك لى) قال : يا محمد ذاك مالك خازن جهنم ، لم يضحك منذ خلق ، ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك .

قال : ثم ركب منصرفاً فبينا هو فى بعض الطريق مر بعير لقريش تحمل طعاماً منها جمل عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما حاذى بالعير نفرت منه واستدارت ، وصرع ذلك البعير وانكسر ، ثم إنه مضى فأصبح فأخبر عما كان ، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا : يا أبا بكر هل لك فى صاحبك ؟ يخبر أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر ورجع فى ليلته . فقال أبو بكر رضى الله عنه : إن كان قاله فقد صدق ، وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا ، لنصدقه على خبر السماء . فقال المشركون لرسول الله ﷺ : ماعلامة ما تقول ؟ قال : (مررت بعير لقريش وهى فى مكان كذا وكذا فنفرت الإبل منا واستدارت وفيها بعير عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر) فلما قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله ﷺ ، ومن ذلك سمى أبو بكر الصديق .

وسألوه وقالوا : هل كان فيمن حضر معك موسى وعيسى ؟ قال : (نعم) قالوا : فصفهم لنا . قال : (نعم أما موسى فرجل آدم كأنه من رجال أزدعمان ، وأما عيسى فرجل ربعة سبط تعلوه حمرة كأنما يتحادر من شعره الجمان)[١] .

وروى البخارى بسنده عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث رسول الله ﷺ قال : (خرج عن سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغه فى صدرى ، ثم أُطبقه ، ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء الدنيا ، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء : افتح قال : من هذا ؟ قال : جبريل . قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم معى محمد ﷺ . فقال : أرسل إليه ؟ قال : نعم . فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال مرحباً : بالنبى الصالح والابن الصالح . قال : قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم ،وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التى عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى)[٢] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ . ١٩٧ ، ٢٥٤ ، ٢٧٨ .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة : ١ ، وفى الأنبياء : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٢٦٣ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٤٣ .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه دلائل النبوة عن أبى سعيد الخدرى. فقال : قال رسول الله ﷺ : فاستفتح جبريل باب السماء قيل : من هذا ، قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : نعم ، فإذا بآدم كهيئته يوم خلقه الله عز وجل على صورته ، فإذا هو تعرض عليه أرواح ذريته من المؤمنين فيقول : روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها فى عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين .

فمضيت هنيئة فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ، ليس يقربها أحد ، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن عندها أناس يأكلون منها . قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك يأتون الحرام ويتركون الحلال .

قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل ، قال : فتفتح أفواههم فيلقمون من ذلك الجمر ، ثم يخرج من أسافلهم ، فسمعتهم يضجون إلى الله عز وجل فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا .

قال : ثم مضيت هنيهة ، فإذا أنا بنساء تعلقن بثديهن فسمعتهن يضججن إلى الله عزَّ وجلَّ . قلت : يا جبريل من هؤلاء النساء ؟ قال: هؤلاء الزناة من أمتك .

قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خرَّ فيقول : اللهم لا تقم الساعة . قال : وهم على سابلة آل فرعون ، قال : فتجيء السابلة فتطؤهم . قال : فسمعتهم يضجون إلى الله . قال : قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس﴾ .

قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه ، فيقال له : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون .

ومن المشاهد التى رواها الصادق المعصوم : ما جاء فى قوله ﷺ :

(ثم إنى رفعت إلى الجنة فاستقبلتنى جارية ، فقلت : لمن أنت يا جارية ؟ قالت : لزيد بن حارثة ، وإذا بأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، وإذا رمانها كالدلاء عظما ، وإذا أنا بطيرها كأنها بختكم هذه . فقال عندها ﷺ : إن الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال : ثم عرضت على النار فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته ، ولو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها ، ثم أغلقت دونى[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ٨ ، وفى تفسير سورة ٣٢ : ١ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى الإيمان : ٣١٢ ، وفى الجنة : ٢ ، ٥ والترمذى فى تفسير سورة ٣٢ : ٢ ، وسورة ٥٦ : ١ . وابن ماجة فى الزهد : ٣٩ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٣٤ .

ومن المشاهد التى رآها الصادق المعصوم ما جاء فى رواية الإمام أحمد عن ابن عباس قال : (ليلة أسرى برسول الله ﷺ دخل الجنة فسمع فى جانبها وخشا ، فقال : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا بلال المؤذن . فقال : النبى ﷺ حين جاء إلى الناس : (قد أفلح بلال رأيت له كذا وكذا) قال : فلقيه موسى عليه السلام فرحب به ، وقال : مرحباً بالنبى الأمى . قال : وهو رجل آدم طويل سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما فقال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى .

قال : فمضى فلقيه شيخ جليل متهيب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه . قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

قال : ونظر فى النار فإذا قوم يأكلون الجيف . قال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ورأى رجلا أحمر أزرق جدا ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا عاقر الناقة[1] :

ومن المشاهد التى رآها رسول الله ﷺ مارواه الإمام البيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ (لما أسرى بى مرت بى رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة ؟ قال : ماشطة بنت فرعون وأولادها سقط المشط من يدها . فقالت : باسم الله ، فقالت بنت فرعون : أبى ؟ قالت : ربى وربك ورب أبيك ، قالت : أولك رب غير أبى ؟ قالت : نعم : ربى ورب أبيك الله . قال : فدعاها فقال : ألك رب غيرى ؟ قالت نعم ربى وربك الله عز وجل . قال : فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها أن تلقى فيها . قالت : إن لى إليك حاجة . قال : ماهى ؟ قال : تجمع عظامى وعظام ولدى فى موضع . قال : ذاك لك لما لك علينا من الحق . قال : فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم . فقال : ياأمة قعى ولا تقاعسى فإنك على الحق . قال : وتكلم أربعة فى المهد وهم صغار هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج وعيسى بن مريم عليه السلام .

قال الإمام أحمد بسنده عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : (لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا أمر الساعة. قال: فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام . فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى موسى . فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال : أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل ، وفيما عهد إلى ربى أن الدجال خارج قال : ومعى قضيبان فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص . قال : فيهلكه الله إذا رآنى حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم إن تحتى كافراً فتعال فاقتله . قال فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم . قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيطئون بلادهم فلا يأتون على شىء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه . قال : ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أى تنتن .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ١٧ ، وفى تفسير سورة ٩١ : ١ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٧ ، ٢٦٣ .

قال فينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر . ففيما عهد إلىَّ ربى أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلا أو نهارا[1] .

ومن المشاهد ما رواه الإمام أبو جعفر بن جرير عن أبى هريرة فى قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا** ﴾ : الآية . قال : جاء جبريل إلى النبى ﷺ ومعه ميكائيل فقال جبريل لميكائيل ائتنى بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه وأشرح له صدره ، قال فشق عنه بطنه فغسله ثلاث مرات واختلف إليه ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم فشرح صدره فنزع ما كان فيه من غل وملأه علما وحلما وإيمانا ويقينا وإسلاما وختم بين كتفيه بخاتم النبوة ثم أتاه بفرس فحمله عليه كل خطوة منه منتهى بصره أو أقصى بصره . قال : فسار وسار معه جبريل عليهما السلام .

قال : فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال النبى ﷺ : « يا جبريل ما هذا ؟ » قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شىء فقال : « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم . ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها قال : « فما هؤلاء يا جبريل » . قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله تعالى شيئا وما الله بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ولحم نىء فى قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من اللحم النىء الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال : « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » فقال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيبة فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا فتأتى رجلا خبيثا فتبيت معه حتى تصبح .

قال : ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شىء إلا خرقته قال : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونها . ثم تلا ﴿ ولا تقعدون بكل صراط توعدون وتصدون ﴾[2] الآية .

قال : ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال : هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها .

(١) أخرجه ابن ماجة فى الفتن : ٣٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٧٥ .
(٢) الآية ٨٦ من سورة الأعراف .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال « ما هذا يا جبريل ؟ » فقال : هؤلاء خطباء الفتنة .

ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع فقال : « ما هذا يا جبريل ؟ » فقال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

ثم أتى على واد فوجد ريحا طيبة باردة وريح مسك ، وسمع صوتا فقال : « يا جبريل ما هذه الريح الطيبة الباردة وما هذا المسك وما هذا الصوت ؟ » قال : هذا صوت الجنة تقول يارب ائتنى بما وعدتنى فقد كثرت غرفى واستبرق وحريرى وسندسى وعبقرى ولؤلؤى ومرجانى وفضتى وذهبى وأكوابى وصحافى وأباريقى وأكوسى وعسلى ومائى ولبنى وخمرى . فأتنى بما وعدتنى . فقال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحا ولم يشرك بى شيئا ، ولم يتخذ من دونى أندادا ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى أعطيته ، ومن أقرضنى جزيته ومن توكل على كفيته ، إنى أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد ، وقد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين . قالت : قد رضيت .

قال : ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا خبيثة فقال : « ما هذه الريح يا جبريل وما هذا الصوت ؟ » فقال : هذا صوت جهنم تقول يا رب : ائتنى بما وعدتنى فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى وحميمى وضريعى وغساقى وعذابى وقد بعد قعرى واشتد حرى ، فائتنى بما وعدتنى ، قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة . وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب . قالت قد رضيت .

قال : ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل فربط فرسه إلى الصخرة ثم دخل فصلى مع الملائكة فلما قضيت الصلاة قالوا يا جبريل من هذا معك ؟ قال : محمد ﷺ قالوا : أوقد أرسل إليه قال نعم قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المجيء جاء .

قال : ثم لقى أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم فقال إبراهيم عليه السلام : الحمد لله الذى اتخذنى خليلا وأعطانى ملكا عظيما وجعلنى أمة قانتا يؤتم بى وأنقذنى من النار وجعلها على بردا وسلاما .

ثم إن موسى عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى كلمنى تكليما وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بنى إسرائيل على يدى وجعل من أمتى قوما يهدون بالحق وبه يعدلون .

ثم إن داود عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى جعل لى ملكاً عظيماً وعلمنى الزبور وألان لى الحديد وسخر لى الجبال يسبحن والطير وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب .

ثم إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى سخر لى الرياح وسخر لى الشياطين يعملون لى ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . وعلمنى منطق الطير ،

وآتانى من كل شىء فضلا وسخر لى جنود الشياطين والإنس والطير وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين ، وآتانى ملكا عظيما لا ينبغى لأحد من بعدى وجعل ملكى ملكا طيبا ليس فيه حساب .

ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه عز وجل فقال الحمد لله الذى جعلنى كلمته وجعل مثلى كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعلنى أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وجعلنى أبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ورفعنى وطهرنى وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان علينا سبيل .

قال : ثم إن محمدا ﷺ أثنى على ربه عز وجل فقال : (كلكم أثنى على ربه وإنى مثن على ربى فقال : الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وأنزل علىّ الفرقان فيه بيان لكل شىء وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس وجعل أمتى أمة وسطا وجعل أمتى هم الأولون وهم الآخرون وشرح لى صدرى ووضع عنى وزرى ورفع لى ذكرى وجعلنى فاتحا وخاتما ، فقال إبراهيم عليه السلام : بهذا فضلكم محمد ﷺ

قال أبو جعفر الرازى خاتم بالنبوة فاتح بالشفاعة يوم القيامة ... الحديث .

وجاء فى هذا الحديث أيضاً : (ثم انتهى إلى السدرة فقيل له هذه السدرة ينتهى إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك . فإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها ، والورقة منها تغطى الأمة كلها ، قال : فغشيها نور الخلاق عز وجل ، وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة ، من حب الرب تبارك وتعالى ، قالوا : فكلمه الله عند ذلك فقال له : سل ، فقال : إنك اتخذت إبراهيم خليلا ، وأعطيته ملكا عظيما ، وكلمت موسى تكليما ، وأعطيت داود ملكا عظيما وألنت له الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكا وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح وأعطيت له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وجعلته يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما سبيل ، فقال له الرب عز وجل : وقد اتخذتك خليلا — وهو مكتوب فى التوراة حبيب الرحمن — وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً . وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك . ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت معى وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس ، وجعلت أمتك أمة وسطا ، وجعلت أمتك هم الأولين والآخرين وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم ، وجعلتك أول النبيين خلقا وآخرهم بعثا ، وأولهم يقضى له ، وأعطيتك سبعا من المثانى لم يعطها نبى قبلك ، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيا قبلك ، وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم : الإسلام ، والهجرة ، والجهاد ، والصلاة ، والصدقة ، وصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن

المنكر ، وجعلتك فاتحا خاتما فقال النبى ﷺ : (فضلنى ربى بست : أعطانى فواتح الكلام وخواتيمه وجوامع الحديث ،وأرسلنى إلى الناس كافة بشيراً . ونذيراً ، وقذف فى قلوب أعدائى الرعب من مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وجعلت لى الأرض كلها طهوراً ومسجداً)[1] .

وبعد : فقد ذكرنا شرحا وتفصيلا فى معجزتى الإسراء والمعراج كما جاء فى كتب التفسير والسنة ، وخلاصة القول أن الإسراء والمعراج معجزتان خارقتان للعادة ، أجراهما الله على يدى حبيبه ومصطفاه ﷺ ، وهما فى الحقيقة مدرسة نبوية انتظمت دروسا عديدة ومفيدة للحياة ، لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

وقال موسى بن عقبة عن الزهرى : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، وكذا قال عروة وقال السدى : بستة عشر شهرا .

والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السموات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين فى السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم ، حتى مر بموسى الكليم فى السادسة ، وإبراهيم الخليل فى السابعة ، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام — أى أقلام القدر ، بما هو كائن .

ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب ، وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة .

ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ، ورأى رفرفا أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم الخليل بانى الكعبة الأرضية مسندا ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية ، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

ورأى الجنة والنار ، وفرض الله عليه هناك الصلوات خمسين ، ثم خفضها إلى خمس رحمة منه ولطفا بعباده ، وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها .

ولقد عاد رسول الله ﷺ إلى مكة بغلس .

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والخمر ، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه فى بيت المقدس وجاء أنه فى السماء . ويحتمل أن يكون ههنا وههنا لأنه كالضيافة للقادم والله أعلم .

فائدة جليلة حسنة :

روى الحافظ إبراهيم الأصفهانى فى كتاب دلائل النبوة من طريق محمد بن عمر الواقدى حدثنى مالك بن أبى الرجال عن عمر بن عبد الله عن محمد بن كعب القرظى .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٩٦ .

قال : بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر فذكر وروده عليه وقدومه إليه ، وفى السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل ، ثم استدعى من بالشام من التجار فجيء بأبى سفيان بن صخر بن حرب وأصحابه ، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التى رواها البخارى ومسلم كما سيأتى بيانه ، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده .

قال فى هذا السياق عن أبى سفيان : والله ما منعنى من أن أقول عليه قولا أسقطه من عينه إلا أنى أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها على ولا يصدقنى فى شيء ، قال حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به قال : فقلت أيها الملك ألا أخبرك خبرا تعرف أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ، قال : قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح .

قال : وبَطْرِيق إيلياء عند رأس قيصر ، فقال بَطْرِيق إيلياء : قد علمت تلك الليلة . قال : فنظر إليه قيصر وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : إنى كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى كلهم معالجة ، فغلبنا فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلا ، فدعوت إليه النجاجرة فنظروا إليه فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح ، فننظر من أين أتى . قال : فرجعت وتركت البابين مفتوحين فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذى فى زاوية المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربط الدابة ، قال : فقلت لأصحابى ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبى . وقد صلى الليلة فى مسجدنا وذكر تمام الحديث .

- **فائدة أخرى :**

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية فى كتابه : (التنوير فى مولد السراج المنير) وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد ثم قال :

وقد تواترت الروايات فى حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب ، وعلى وابن مسعود ، وأبى ذر ، ومالك ابن صعصعة ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد ، وابن عباس ، وشداد بن أوس ، وأبى بن كعب ، وعبد الرحمن ابن قرط ، وأبى حبة ، وأبى ليلى ، الأنصاريين وعبد الله بن عمرو ، وجابر ، وحذيفة ، وبريدة ، وأبى أيوب ، وأبى أمامة ، وسمرة بن جندب ، وأبى الحمراء ، وصهيب الرومى ، وأم هانىء ، وعائشة ، وأسماء بنتى أبى بكر الصديق رضى الله عنهم أجمعين .

فيهم من ساقه بطوله ، ومنهم من اختصره على ما وقع فى المسانيد ، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة ، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون ، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ۞ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[1] .

---

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الصف .

موسى والتوراة وبنو إسرائيل

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

المفـــردات : ﴿ **الكتاب** ﴾ : هو التوراة ، ﴿ **وكيلاً** ﴾ : أى كفيلا تكلون إليه أموركم ، ﴿ **شكورا** ﴾ : أى كثير الشكر ، ﴿ **وقضينا** ﴾ : أى أعلمنا بالوحى ، ﴿ **لتعلن** ﴾ : أى لتتكبرن عن طاعة الله ، ﴿ **والوعد** ﴾ : أى الموعود به وهو العقاب ، ﴿ **والبؤس والبأس والبأساء** ﴾ : الشدة والمكروه كما قال الراغب إلا أن البؤس كثر استعماله فى الفقر والحرب ، والبأس والبأساء فى النكاية بالعدو ، ﴿ **جاسوا خلال الديار** ﴾ : توسطوها وترددوا بينها ، ﴿ **والكرّة** ﴾ : الدّولة والغلبة ، وأصل الكر العطف والرجوع ، ﴿ **النفيـر** ﴾ : والنافر من ينفـر الرجل من عشيرته وأهل بيته ، ﴿ **والتتبير** ﴾ : الهلاك وهى كلمة نبطية كما روى من سعيد بن جبير وكل شيء كسرته وفتتته فقد تبرته ، ﴿ **ما علوا** ﴾ : أى ما غلبوا واستولوا عليه من بلادكم ، ﴿ **والحصير** ﴾ : السجن كما قال ابن عباس .

المناسبـــة

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية الأولى أنه أكرم عبده ورسوله بالإسراء من مكة إلى بيت المقدس ، أردف ذلك ذكر ما أكرم به موسى قبله من إعطائه التوراة ، وجعلها هدى لبنى اسرائيل ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ثم قفى على ذلك ببيان أنهم ما عملوا بهديها ، بل أفسدوا فى الأرض ، فسلط الله عليهم البابليين أثخنوا فيهم وقصدوهم بالقتل والنهب والسلب .

ولما تابوا أزال عنهم هذه المحنة ، وأعاد لهم الدولة ، وأمدهم بالأموال والبنين ، وجعلهم أكثر عددا مما كانوا ، ثم عادوا إلى عصيانهم وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام ، فسلط الله عليهم من أزال دولتهم

مرة أخرى ، فأعمل فيهم السيف ، وسلب ونهب ، وجاس خلال ديارهم ، فدخل بيت المقدس كرة أخرى بالقهر والغلبة والإذلال ، وأهلك ما أهلك مما قد جمعوه وكنزوه ، ثم أوعدهم على عصيانهم بالعقاب فى الآخرة بنار جهنم ، وبئس السجن هى لمن عصى الله ، وخالف أوامر دينه .

قوله تعالى : ﴿ **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا * ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً** ﴾ :

هذان نبيان من أولى العزم ، بعد أن ذكر الله تعالى إسراء خاتمهم محمد ﷺ ، كثلاثة من أولى العزم الذين ورد ذكرهم فى قوله تعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾[١]

وفى قوله جل شأنه : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾[٢] .

والكتاب المنزل على موسى هو التوراة التى ورد فيها ذكر محمد ﷺ ، فقد قال الله تعالى له : ((يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وحرزاً للأميين * انت عبدى ورسولى * سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ * ولا سخاب فى الأسواق * ولا يدفع بالسيئة السيئة * ولكن يعفو ويغفر * ولن يقبضه الله إليه حتى يقيم به الملة العوجاء * بأن يقولوا لا إله إلا الله * فيفتح بها أعينا عميا * وآذانا صماً * وقلوبا غلفاً))[٣] .

وقد قال الله تعالى عن التوراة : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾[٤] الآية .

ولقد جاء القرآن بعد ذلك مصدقا لما تقدمه من الكتب السابقة ومهيمنا عليها ، وقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

صلت عليك ملائك الرحمن ... وسرى الضياء بسائر الأكوان

لما طلعت على الوجود مزودا ... بحمى الإله وراية القرآن

إن الله تعالى جعل التوراة هدى ونورا لبنى اسرائيل ، ونهاهم عن اتخاذ أولياء من دونه ، وقال لهم :

---

(١) الآية ٧ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى .

(٣) أخرجه البخارى فى البيوع : ٥٠ ، وفى تفسير سورة : ٤٨ : ٣ . والدارمى فى المقدمة : ٢ ، وفى فضائل القرآن : ١ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٤ .

(٤) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

يا ذرية من حملنا مع نوح كونوا مثل جدكم الأكبر ، فقد كان عبداً شكوراً ، ﴿ يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعدكم وإياى فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾[1] .

لكن بنى اسرائيل قوم مرنوا على العناد ، فهم شعب صلب الرقبة ، فقد تركوا تعاليم الله فلم يمتثلوا أمره ، ولم يجتنبوا نهيه ، وكان الكثير منهم هكذا قال تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾[2] .

قوله تعالى : **﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيراً ﴾** :

أى وأوحينا إلى بنى اسرائيل فيما أنزلناه فى التوراة على موسى ، فأعلمهم به : لتعصن الله ولتخالفن أمره مرتين : أولاهما تغيير التوراة ، وقتل أشعيا عليه السلام ، وحبس إرميا حين أنذرهم سخط الله ، والثانية قتل زكريا ويحيى ، وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام ، ولتستكبرن عن طاعة الله ، ولتبغن على الناس ، ولتظلمنهم ظلما شديدا ، تفرطون فيه وتبلغون أقصى الغاية .

﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ﴾ :

أى فإذا حان حلول العقاب الموعود ، أرسلنا عليكم لمؤاخذتكم بجنايتكم عبادا لنا أولى بطش شديد فى الحروب ، هم سنحاريب ملك بابل وجنوده ، أوغلوا فى البلاد ، وترددوا بين الدور والمساكن ، للقتل والسلب والنهب ، وقتلوا علماءكم وكبراءكم ، وأحرقوا التوراة ، وخربوا بيت المقدس ، وسبوا منكم عددا كثيرا ، وكان ذلك وعدا نافذا لا مرد له .

﴿ ثم رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ :

أى ثم رجعت لكم الدولة والغلبة على الذين فعلوا بكم ما فعلوا ، حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلو ، فغزوتم البابليين واستنقذتم الأسرى والأموال ، ورجع الملك إليكم ، وكثرت أموالكم بعد أن نهبت وأولادكم بعد أن سبيت ، وصرتم أكثر عددا ، وأعظم قوة مما كنتم من قبل ، وذلك بفضل طاعته تعالى والإخبات إليه ومن ثم قال :

﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ :

أى وإن أحسنتم فأطعتم الله ولزمتم أمره وتركتم نهيه أحسنتم لأنفسكم ، لأنكم تنفعونها بذلك فى دنياها وآخرتها ، أما فى الدنيا فإن الله يدفع عنكم أذى من أرادكم بسوء ، ويرد كيده فى نحره ، وينمى

(١) الآيات ٤٠ — ٤٣ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٦٩ من سورة الأعراف .

لكم أموالكم ، ويزيدكم قوة إلى قوتكم ، وأما فى الآخرة فإن الله يثيبكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويرضى عنكم ، ورضوان من الله أكبر .

وإن عصيتم ربكم وفعلتم ما نهاكم عنه فإلى أنفسكم تسيئون ، لأنكم تسخطونه ، فيسلط عليكم فى الدنيا أعداءكم ، ويمكّن منكم من يبغى بكم السوء ، ويلحق بكم فى الآخرة العذاب المهين .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ﴾ :

أى فإذا جاء وقت حلول العقاب على المرة الآخرة من مرّتى إفسادكم فى الأرض ، بعثنا أعداءكم ، ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم ، فإن الأعراض النفسية تظهر فى الوجوه ، فالفرح يظهر فيها النضارة والإشراق ، والحزن والخوف يظهر فيها الغبرة والقترة ، إذ الوجه شرفة النفس ، وليدخلوا المسجد قاهرين فاتحين مذلين لكم كما دخلوه أول مرة ، وليهلكوا ما أدخرتموه وخزنتموه تتبيرا شديدا ، فلا يبقون منه شيئا .

قال البيضاوى : سلط الله عليهم الفرس مرة أخرى ، فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف ويسمى بيرودس أو فردوس .

والذى أثبته اليهود فى تواريخهم أن الذى أغار عليهم أولاً وخرّب بيت المقدس هو بُختنُصَّر وكان ذلك فى زمن إرميا عليه السلام ، وقد أنذرهم مجيئه صريحا بعد أن نهاهم عن الفساد وعبادة الأصنام ، فحبسوه فى بئر وجرحوه ، وأن الذى أغار عليهم ثانيا هو أسبيانوس قيصر الروم ، وكان بين الإغارتين نحوا من خمسمائة سنة .

وعلى الجملة فمعرفة من بعث إليهم بأعيانهم وتواريخ البعوث مما لا يتعلق به غرض كبير ، لأن المراد أنه كلما كثرت معاصيهم سلط الله عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى .

وظاهر الآية يدل على اتحاد المبعوثين أولا وثانيا .

﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ :

بعد البعث الثانى ، إن تبتم وازدجرتم عن المعاصى ، وقد حقق الله لهم وعده ، فكثر عددهم وأعزهم بعد الذلة ، وجعل منهم الملوك والأنبياء .

﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ :

أى وإن عدتم لمعصيتى وخلاف أمرى وقتل رسلى – عدنا عليكم بالقتل والسباء وإحلال الذل والصغار بكم ، وقد عادوا فعاد الله عليهم بعقابه ، فقد كذّبوا النبى ﷺ وهموا بقتله ، فسلطه الله عليهم ، فقتل قُريظة ، وأجلى بنى النضير ، وضرب الجزية على الباقين ، منهم يعطونها عن يد وهم صاغرون ، ولا ملك لهم ولا سلطان .

﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ :

قال الحسن : الحصير هو الذى يبسط ويفرش ، والعرب تسمى البساط الصغير حصيرا ، أى أنه تعالى جعل جهنم للكافرين به بساطا ومهادا كما قال ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾[1] وقال ابن عباس وغيره : جعلناها سجنا محيطا بهم حابساً لهم ، لا رجاء لهم فى الخلاص منه .

وخلاصة ذلك – إن لهم فى الدنيا ما تقدم وصفه من العذاب ، وفى الآخرة ما يكون محيطا بهم من عذاب جهنم ، فلا يتخلصون منه أبداً .

الطـــريق هاهـــنا

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

المناســـبة

بعد أن ذكر سبحانه ما أكرم به من اصطفاه من النبيين والمرسلين ، فأكرم محمداً ﷺ بالإسراء ، وأكرم موسى بالتوراة ، وجعلها هدى لبنى إسرائيل ، ثم بين أنهم لم يعملوا بها فحلَّ بهم عذاب الدنيا والآخرة ، قفى على ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، وبيان أنه يهدى للصراط المستقيم ، ويبشر الصالحين بالأجر والثواب العظيم وينذر الكافرين بالعذاب الأليم .

ثم أردف ذلك بذكر طبيعة الإنسان وأنه خلق عجولا ، قد يدعو على نفسه بالشر أى بالموت والهلاك ، والدمار واللعنة ، كما يدعو لنفسه بالخير .

القرآن هو كتاب الله الكريم الذى ورد وصفه فى قوله جل شأنه ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[2].

ويهدى هذا الكتاب للطريق المثلى ، فهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا تبلى جدته ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، من علم علمه سبق ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

(١) الآية ٤١ من سورة الأعراف .

(٢) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفىء القنديل

فيه الوعد والوعيد ، والخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، ومكارم الأخلاق ومنهاج السلوك ، وأصول العقائد وشعائر العبادات وقواعد النظام ومبادىء الأحكام .

يبشر المؤمنين بالأجر العظيم ، فهو روح يحيى الله به الموات ، ونور يبدد به غياهب الظلمات ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[1]

جمع بين نور الوعد ونيران الوعيد ، وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأوعد الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن لهم عذابا أليماً ، أى موجعا ومؤلما ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما فى بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً** ﴾ :

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر ، أى بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه كما قال تعالى ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم ﴾[3] الآية

وقد قال ﷺ : (لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها ﴾

وقد ذكر سلمان الفارسى وابن عباس ههنا قصة آدم عليه السلام حين همّ بالنهوض قائما قبل أن تصل الروح إلى رجليه ، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه فلما وصلت إلى دماغه عطس ، فقال : الحمد لله . فقال الله : يرحمك ربك يا آدم . فلما وصلت إلى عينيه فتحهما ، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه ، فهمَّ بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه ، فلم يستطع وقال : يا رب عجل قبل الليل .

---

(١) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

(٢) الآيات ١٩ - ٢٢ من سورة الحج .

(٣) الآية ١١ من سورة يونس .

من آيات الله الكونية

﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا (١٢) ﴾

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه الهداية والإرشاد بالقرآن الكريم – قفى على ذلك بالاستدلال بالآيات والدلائل التى فى الآفاق ، وهى برهان نير لا ريب فيه ، وطريق بين لا يضل من ينتحيه .

ما أكثر الآيات الدالة على وحدانية الله ، وما أعظم البراهين الساطعة القاطعة التى تضيح بكل عاقل وتنطق بلسان الحال والمقال ، قائلة مصرحة بأجلى بيان : تأمل فى الوجود بعين فكر ، واعلم بأن العالم من ارضه إلى سمائه ، ومن عرشه إلى فرشه ، يناديك أنا مخلوق الواحد الديان ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾[1] .

ومن الآيات التى نلمسها ونعايشها ونحيا فيها الليل والنهار ، فهما آيتان على قدرة الله وعظمته : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾[2]

فالليل آية جعلها الله ممحوة الضوء ليسكن العباد ويستريحون ،والنهار آية جعلها الله مبصرة ليتقلب الناس فيها سعيا وراء الكسب : ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾[3]

ولا شك أن هذا كله من رحمة الله بعباده :

فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا   فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا

جل جلال الله إذ يقول : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾[4]

فتأمل كيف استعمل السمع فى آية الليل والبصر فى آية النهار ، لا يقوى على ذلك الا خالق القدرة

---

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

(٢) الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٦٧ من سورة يونس .

(٤) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة القصص .

والقدر : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[١].

فالنهار وما فيه من حركة سعيا وراء الأرزاق كل ذلك من فضله تعالى على عباده .

ولقد اختلف الليل والنهار ظلمة وضياءً لمعرفة عدد السنين والحساب التى بها تتحقق الاسباب فى كسب المعيشة .

قال تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون * إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وكل شىء فصلناه تفصيلا** ﴾ :

أى من شئون الدنيا والآخرة والمعاش والمعاد ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء .

من مشاهد القيامة ومواعظ القرآن

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

المفـــردات : ﴿ **طائره** ﴾ : أى عمله سمى به لأنه طار إليه من عش الغيب وإما لأنه سبب الخير والشر كما قالوا : طائر الله لاطائرك ، أى قدر الله الغالب الذى يأتى بالخير والشر لا طائرك الذى تتشاءم به وتتيمن به إذ جرت عادتهم بأن يتفاءلوا بالطير ويسمونه زجرا فإن مر بهم من اليسار إلى اليمين

(١) الآية ٧٣ من سورة القصص .

(٢) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة يونس .

تيمنوا به وسموه سانحا ، وإن مر من اليمين إلى اليسار تشاءموا منه وسموه بارحا ، ﴿ **كتابا** ﴾ : هو صحيفة عمله ، ﴿ **منشورا** ﴾ : أى غير مطوى ، ﴿ **حسيبا** ﴾ : أى حاسبا أى عادا له يعد عليه اعماله ، ﴿ **والوزر** ﴾ : الاثم والذنب يقال منه وزر يزر فهو وازر وهى وازرة أى نفس وازرة ، ﴿ **والمترفون** ﴾ : هم المنعمون من الملوك والعظماء ، ﴿ **أمرنا مترفيها** ﴾ : أى أمرناهم بالطاعة ، ﴿ **ففسقوا** ﴾ : أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا ، ﴿ **فحق عليها القول** ﴾ : أى وجب لها العذاب ، ﴿ **والتدمير** ﴾ **الإهلاك** مع طمس الأثر ﴿ **والقرن** ﴾ : القوم يجمعهم زمان واحد ، وقد حدد بأربعين سنة ، وبثمانين ، وبمائة ، ﴿ **والعاجلة** ﴾ : المراد الدنيا ، ﴿ **يصلاها** ﴾ : أى يقاسى حرها ﴿ **مدحورا** ﴾ : أى مطروقا مبعدا من رحمة الله ، ﴿ **محظورا** ﴾ : أى ممنوعا عمن يريده .

المناسبـــة

بعد أن بين سبحانه فيما سلف حال كتابه الذى يحوى النافع والضار من الأعمال مما يكون به سعادة الإنسان وشقاؤه فى دينه ودنياه ، قفى على ذلك بذكر حال كتاب المرء وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعماله إلا أحصاها ، وأن حسنها وقبحها تابع لأخذه بما فى الكتاب الأول أو تركه لذلك ، فمن أخذ به اهتدى ومنفعة ذلك عائدة إليه ، ومن أعرض عنه ضل وغوى ووبال ذلك راجع عليه .

ثم أكد عنايته بعباده وأنه لا يعاقب أحداً منهم إلا إذا أرسل الرسل يبلغون رسالات ربهم ، رحمة بهم ورأفة ، واعقب ذلك بأن عذابه انما يكون بكسب المرء واختياره ، وإن هذا واقع بتقدير الله وعلمه ، وإذا وقعت المعصية حلت العقوبة بعذاب الاستئصال ، كما فعل بكثير من الأمم التى من بعد نوح : كعاد وثمود ، والله عليم بأفعالهم ، وبما يستحقون .

ثم قسم العباد قسمين قسم يحب الحياة الدنيا ويعمل لها ، وعاقبته دار البوار وبئس القرار ، وقسم يعمل للآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن ، وأولئك سعيهم مشكور ، مقبول عند ربهم ، ولهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وهؤلاء وهؤلاء يمدهم ربهم بعطائه ، إذ ليس عطاؤه بممنوع عن أحد ، ولكن قد فضل بعضهم على بعض فى أرزاق الدنيا ، ومراتب التفاوت فى الآخرة أكثر من درجات التفاوت فى الدنيا وأبعد مدى .

قوله تعالى : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ :

هذا إخبار منه تعالى بأن كل إنسان سيلزم بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، قال تعالى :

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[١] .

وقال جل شأنه : ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[٢] .

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بنى آدم : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ :

وطائره هو ما طار عنه من عمله ، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما من خير وشر ، ويلزم به ، ويجازى عليه ، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾[٤]

وقال : ﴿ وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾[٥] .

وقال : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[٦] .

وقال : ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾[٧] .

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره ، ويكتب عليه ليلا ونهاراً ، صباحاً ومساءً .

قوله تعالى : ﴿ **ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا** ﴾ :

أى نجمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القيامة ، إما بيمينه إن كان سعيدا ، أو بشماله إن كان شقيا ، منشوراً مفتوحاً يقرؤه هو وغيره ، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره ﴾[٨]

ولهذا قال تعالى : ﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾ :

أى إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت . لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى .

وقوله : ﴿ **ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ : إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له فى الجسد ، ومن ألزم بشيء فيه فلا محيد له عنه .

قال قتادة عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال : (لا عدوى ولا طيرة وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) . رواه ابن جرير .

روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه يحدث عن النبى ﷺ قال : (ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة : يا ربنا عبدك فلان قد حبسته فيقول الرب

---

(١) الآية ٢٥ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ١١١ من سورة النحل .
(٣) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .
(٤) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة ق .
(٥) الآيات ١٠ – ١٢ من سورة الانفطار
(٦) الآية ١٦ من سورة الطور .
(٧) الآية ١٢٣ من سورة النساء .
(٨) الآيات ١٣ – ١٥ من سورة القيامة .

جل جلاله : اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت)[١]. اسناده جيد .

وقال معمر عن قتادة : ﴿ **ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ . قال : عمله ، ﴿ **ونخرج له يوم القيامة** ﴾ قال : نخرج ذلك العمل : ﴿ **كتابا يلقاه منشورا** ﴾

قال معمر : وتلا الحسن البصرى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾[٢] يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك ، فجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا اقرأ كتابك ، فقد عدل ، والله من جعلك حسيب نفسك .

هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ :

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ، ﴿ **ومن ضل** ﴾ : أى عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجنى على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه .

ثم قال : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ : أى لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجنى جان إلا على نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ﴾[٣]

ولا منافاة بين هذا وبين قوله : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾[٤] وقوله : ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾[٥] ، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم فى أنفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ، ولا يحمل عنهم شيء ، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده.

وكذا قوله تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ : إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه ، كقوله تعالى ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾[٦] .

وكذا قوله : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾[٧] .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى الطب : ٥ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٤٦ ، وفى ٦ : ١٣٨ .
(٢) الآية ١٧ من سورة ق .
(٣) الآية ١٨ من سورة فاطر .
(٤) الآية ١٣ من سورة العنكبوت .
(٥) الآية ٢٥ من سورة النحل .
(٦) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الملك .
(٧) الآية ٧١ من سورة الزمر .

وقال تعالى : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[١] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

ثم بين كيف يقع العذاب بعد بعثه الرسل فقال : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** ﴾ :

أى إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك أى قرية بعذاب الاستئصال لما ظهر منها من المعاصى ، ودنست به أنفسها من الآثام لم نعاجلها بالعقوبة ، بل نأمر مترفيها بالطاعة ، فإذا فسقوا عن أمرنا وتمردوا حق عليهم العذاب جزاء وفاقا ، لاجتراحهم السيئات ، وارتكابهم كبائر الإثم والفواحش ، فدمرنا تلك القرية تدميراً ، ولم نبق منها ديارا ولا نافخ نار .

وخص المترفين بالذكر ، لما جرت به العادة أن من سواهم يكون تبعاً لهم وأن العامة والدهماء يقلدونهم فيما يفعلون ، ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول إلى سبله .

وقد يكون المراد من الأمر أن الله يفيض عليهم نعمه التى تبطرهم ، وتجعلهم يقعون فى المعاصى ، فكأنه تعالى يأمرهم بها إذ مهد لهم الأسباب الموصلة إليها .

وحكى بعض أئمة اللغة أن المراد (بأمرنا) أكثرنا ، واستدل بما أخرجه أحمد والطبرانى من قوله ﷺ : (خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة)[٢] . أى مهرة كثر نسلها ، وطريق مصطفة من النخل مأبورة (كثر فيها اللقاح) لتثمر الثمر الجنى .

ثم ذكر أن كثيراً من الأمم قد حق عليها العذاب بذنوبها فقال : ﴿ **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح** ﴾ :

أى وقد أهلكنا أمما كثيرة قبلكم من بعد نوح حتى زمانكم حين جحدوا آيات الله وكذبوا رسله ، وكانوا على مثل ما أنتم عليه من الشرور والآثام ، ولستم بأكرم على الله منهم ، فاحذروا أن يحل بكم من العقاب مثل ما حل بهم ، وينزل بكم سخطه مثل ما نزل بهم .

وفى هذا من الوعيد لمكذبى رسول الله ﷺ من مشركى قريش وتهديدهم بشديد العقاب إن لم ينتهوا عما هم عليه من تكذيب رسوله – ما لا يخفى .

﴿ **وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا** ﴾ :

أى وحسبك أيها الرسول بالله خبيرا بذنوب خلقه ، فلا يخفى عليه شىء من أفعال مشركى قومك ، ولا أفعال غيرهم ، بل هو عليم بجميع أعمالهم ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون .

---

(١) الآية ٣٧ من سورة فاطر .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٦٨ .

ثم قسم سبحانه عباده قسمين محب للعاجلة ومحب لأعمال الآخرة :

(١) ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا** ﴾

أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى ، وإياها يبتغى ، لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا من ربه على ما يعمل ، يعجل الله له فى الدنيا ما يشاء من بسط الرزق وسعة العيش ، ثم يصليه حين مقدمه عليه فى الآخرة جهنم مذموماً على قلة شكره ، وسوء صنيعه فيما سلف ، مبعداً من رحمته مطروداً من إنعامه .

وقد اشتمل هذا العقاب على أمور ثلاثة :

(١) الدوام والخلود وإلى ذلك الإشارة بقوله : ﴿ **ثم جعلنا له جهنم يصلاها** ﴾ : أى يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه .

(٢) الإهانة والاحتقار وإلى ذلك أشار بقوله ﴿ **مذموماً** ﴾ .

(٣) البعد والطرد من رحمة الله دائما فلا يتخلل ذلك راحة ولا يعقبه خلاص وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ **مدحوراً** ﴾ : وفى قوله : ﴿ **لمن نريد** ﴾ : إشارة إلى أن الفوز بالدنيا لا يحصل لكل من يريدها ، فكثير من الكفار الضّلال يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ثم هم يبقون محرومين من الدين والدنيا .

وفى هذا تهديد وزجر عظيم لهؤلاء الكفار ، فإنهم قد يتركون الدين لطلب الدنيا وربما فاتتهم أيضا .

(٢) ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً** ﴾ :

أى من أراد الآخرة ولها عمل وإياها طلب ، فأطاع الله وطلب ما يرضيه وهو مصدق بثوابه وعظيم جزائه على سعيه لها ، شكر الله له جزيل سعيه ، وآتاه حسن المثوبة كفاء ما قدم من صالح العمل ، وتجاوز عن سيئاته ، وأدخله فراديس جناته .

وقد اشترط لهذا الجزاء أموراً ثلاثة :

(١) أن يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها ، فإن لم تحصل هذه النية لم ينتفع بذلك العمل كما قال : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾[١] وجاء فى الحديث : (إنما الأعمال بالنيات)[٢] ، إلى أن استنارة القلب بمعرفة الله ومحبته لا تحصل إلا إذا نوى العامل بعمله طاعة ربه ، والإخبات والخشوع له .

(٢) أن يعمل العمل الذى يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان من القرب والطاعات ، لا من الأعمال الباطلة كعبادة الأوثان والكواكب والملائكة .

(١) الآية ٣٩ من سورة النجم .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الوحى : ١ ، وفى العتق : ٦ ، وفى مناقب الأنصار : ٤٥ ، وفى الطلاق : فى الترجمة ، وفى الايمان : ٢٣ ، وفى الإكراه : (فى ترجمة الكتاب) ، وفى الحيل : ١ . ومسلم فى الإمارة : ١٥٥ ، وأبو داود فى الطلاق : ١١ . والنسائى فى الطهارة : ٥٩ ، وفى الطلاق : ٢٤ ، وفى الايمان : ١٩ . وابن ماجة فى الزهد : ٢٦ .

(٣) أن يكون ذلك وهو مؤمن فإن أعمال البر لا توجب الثواب إلا إذا وجد الإيمان .

ثم بين سبحانه أن عطاءه ورزقه الدنيوى لا يحظر على كل من الفريقين فقال : ﴿ **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً** ﴾ :

أى إن كلا من الفريقين مريد العاجلة ومريد الآجلة الساعى لها سعيها وهو مؤمن يمده ربه بعطائه ، ويوسع عليه الرزق ، ويكثر الأولاد وغيرهما من زينة الدنيا ، فإن عطاءه ليس بالممنوع من أحد من خلقه مؤمنا كان أو كافراً ، فكلهم مخلوق فى دار العمل ، فوجب إزالة العذر ورفع العلة ، وإيصال متاع الدنيا إليهم على القدر الذى يقتضيه صلاحهم ، ثم تختلف أحوال الفريقين ، ففريق العاجلة إلى جهنم وبئس المهاد ، وفريق الآجلة إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم عقبى الدار .

ثم وضح ما مر من الإمداد ، وعدم محظورية العطاء على أحد ، فقال : ﴿ **انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض** ﴾ :

أى انظر إلى عطائنا للفريقين فى الدنيا ، كيف فضلنا بعضهم على بعض ، فأوصلنا رزقنا إلى مؤمن ، وقبضناه عن آخر ، وأوصلناه إلى كافر ومنعناه من كافر آخر . [١]

ولهذا حِكم وأسباب بيّنها سبحانه بقوله : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ﴾[٢] وقوله : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾[٣] .

﴿ **وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾ :

أى ولتفاوتهم فى الدار الآخرة . وتفاضلهم فيها أكبر من تفاضلهم فى الدار الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدركات السفلى فى جهنم مصفداً بالسلاسل والأغلال ، ومنهم من يكون فى الدرجات العليا فى نعيم وحبور ، وكل فريق يتفاوتون فيما بينهم .

ففى الصحيحين (إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر فى السماء)[٤] .

وفيهما : (إن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[٥] .

---

(١) هذا الجزء من المعنى غير صحيح فالله تعالى لم يقبض رزقه ولم يمنعه عن أحد كافر أو مؤمنا قال تعالى : (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) كما سبق فى السورة الأولى أن يقال : (فبسطت رزق على بعضهم وقدرته على آخرين قال تعالى : فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن) سورة الفجر .

(٢) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٦١ .

(٥) أخرجه الدرامى فى الرقاق : ٩٨ ، ١٠٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ .

وروى ابن عبد البر عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضى الله عنه وفيهم سُهيل بن عمرو القرشى (وكان أحد الأشراف فى الجاهلية) وأبو سفيان بن حرب ، ومشايخ من قريش ، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر – وكان يحبهم – فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا . فقال سُهيل : وكان أعقلهم : (أيها القوم إنى والله قد أرى الذى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم إنهم دُعُوا ودُعينا (يعنى إلى الإسلام) فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر فكيف التفاوت ، فى الآخرة ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لمَا أعد الله لهم فى الجنة أكبر) .

وعن بعضهم أنه قال : أيها المباهى بالرفع منك فى مجالس الدنيا أما ترغب فى المباهاة بالرفع فى مجالس الآخرة وهى أكبر وأفضل ؟

إرشـــادات وتوجيـــهات

لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ

خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

المفردات : ﴿ **فتقعد** ﴾ : أى فتصير ، ﴿ **مذموماً** ﴾ : أى ممن يستحق الذم من الملائكة والمؤمنين ، ﴿ **مخذولا** ﴾ : أى من الله لأنك أشركت معه مالا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ﴿ **وقضى** ﴾ : أى حكم وأمر ، ﴿ **وأف** ﴾ : اسم صوت ينبىء عن التضجر والتألم ويقولون لا تقل لفلان أف أى لا تتعرض له بنوع من الأذى والمكروه ، ﴿ **والنهر** ﴾ : الزجر بغلظة ، ﴿ **كريماً** ﴾ : أى جميلا لا شراسة فيه ، قال الراغب : كل شيء يشرف فى جنسه يقال إنه كريم ، ﴿ **واخفض لهما جناح** ﴾ : يراد به التواضع والتذلل ، ﴿ **من الرحمة** ﴾ : أى من فرط رحمتك عليهما ، ﴿ **والأواب** ﴾ : الذى دينه الرجوع إلى الله والالتجاء إليه حين الشدة ، ﴿ **والتبذير** ﴾ : إنفاق المال فى غير موضعه ، ﴿ **وإخوان الشياطين** ﴾ : أى قرناؤهم ، ﴿ **والابتغاء** ﴾ : الطلب . والرحمة . الرزق ، ﴿ **والميسور** ﴾ : السهل اللين ، ﴿ **والمغلولة** ﴾ : المقيدة بالغل وهو القيد يوضع فى اليدين والعنق ، ﴿ **وتبسطها** ﴾ : أى تتوسع فى الإنفاق ، ﴿ **والمحسور** ﴾ : المنقطع عن السير إعياء وكلالا ، ﴿ **ويقدر** ﴾ : أى يقتر ، ﴿ **والإملاق** ﴾ : الفقر ، ﴿ **والخطأ** ﴾ : كالإثم لفظا ومعنى ، ﴿ **والفاحشة** ﴾ : الفعلة الظاهرة القبح ، ﴿ **والسلطان** ﴾ : التسلط والإستيلاء ، ﴿ **فلا يسرف** ﴾ : أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه ، ﴿ **التى هى أحسن** ﴾ : أى الطريق التى هى أحسن ، ﴿ **والعهد** ﴾ : ما تعاهدون عليه غيركم من العباد لتوثيقه وتوكيده ، ﴿ **والقسطاس** ﴾ : (بكسر القاف وضمها) الميزان ، ﴿ **والمستقيم** ﴾ : العدل ، ﴿ **والتأويل** ﴾ : ما يؤول إليه الشيء وهو عاقبته ولا تقف من قفوت أثر فلان : أى اتبعته ، ﴿ **والمرح** ﴾ : الفخر والكبر ، ﴿ **لن تخرق الأرض** ﴾ : أى لن تجعل فيها طرقاً بدوسك وشدة وطأتك ، ﴿ **والحكمة** ﴾ : معرفة الحق سبحانه ومعرفة الخير للعمل به ، ﴿ **والمدحور** ﴾ : المبعد من رحمة الله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر جلت قدرته أن الناس فريقان ، فريق يريد بعمله الدنيا فقط وعاقبتهم العذاب والوبال ، وفريق يريد بعمله طاعة الله وهم أهل مرضاته والمستحقون لثوابه ، وقد اشترط لنيلهم ذلك أن يعملوا للآخرة ، وأن يكونوا مؤمنين لا جرم ، فصل الله فى هذه الآية حقيقة الإيمان ، والأعمال التى إذا عملها المؤمن كان ساعياً للآخرة ، وصار من الذين سعد طائرهم ، وحسن حظهم .

ثم أعقب ذلك بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ،

وبعدئذ اتبع ذلك بالأمر ببر الوالدين لأنهما السبب الظاهر فى وجوده ، وبالأمر بإيتاء ذوى القربى حقوقهم ، ثم بالأمر بإصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل ، لأن فى إصلاحهما إصلاح المجتمع ، والمسلمون كلهم إخوة ، وهم يد على من سواهم .

ثم قفى على ذلك بالنهى عن التبذير لما فى القصد من إصلاح حال المرء ، وعدم ارتباكه فى معيشته وصلاحه إصلاح للأمة جمعاء ، فما الأمم إلا مجموعة الأفراد ، ففى صلاحهم صلاحها .

ثم علمنا سبيل إنفاق المال على الوجه الذى يرضاه الدين ، ويرشد إلى حسنه العقل .

وبعدئذ نهانا عن قتل الأولاد خشية الفقر ، وبين أن الكفيل بأرزاقهم وأرزاقكم هو ربكم ، فلا وجه للخوف من ذلك .

ثم تلا هذا بالنهى عن الزنا لما فيه من اختلاط الأنساب ، وفقدان النسل أو قتله ، ووقوع الشغب والقتال بين الناس دفاعا عن العرض .

ثم بالنهى عن القتل لهذا السبب عينه ، ثم بالنهى عن إتلاف مال اليتم ، ثم بالأمر بالوفاء بالعهد ، وهو العقد الذى يعمل لتوكيد الأمر وتثبيته ، ثم بايفاء الكيل والميزان لما فى حسن التعامل بين الناس من توافر المودة والمحبة بينهم ، وهذا ما يرمى إليه الدين لإصلاح شئون الفرد والمجتمع .

ثم بالنهى عن تتبع مالا علم لك به من قول أو فعل ، فلا تتبع ما كان يعمله الآباء اقتداء بهم كعبادة الأصنام ، ولا تشهد على شىء لم تره ، ولا تكذب . فتقول فى شىء لم تسمعه إنك قد سمعته ولا فى شىء لم تره إنك قد رأيته .

ثم بالنهى عن مشية الخُيلاء والمرح ، لما فيهما من الصلف الذى لا يرضاه الله . ولا الناس .

ثم ختم ذلك ببيان أن تلك الأوامر والنواهى هى من وحى الله وتبليغه ، لا من عند نفسه ، أمر بها ونهى عنها ، لأنها أسس سعادة الدارين ، وعليها تبتى العلاقات بين الأفراد والأمم ، على نظم صحيحة لا تكون عرضة للاضطراب ، وفقدان الثقة فى معاملاتهم .

قوله تعالى : ﴿ **لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا** ﴾ :

هذا نهى صريح عن الشرك بالله تعالى ، وما أقبحه من ذنب جسيم ، قال جل شأنه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾[١] .

وقال : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾[٢] .

(١) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ١١٦ من سورة النساء .

وقال : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[(١)]

إن من أشرك بالله صار مستحقاً للذم والخذلان ، فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك ؟ لأجابك بلسان الحال والمقال ، أنا مخلوق للواحد الديان .

سبحانـك اللهـم أنـت الواحـد كـل الوجـود علـى وجـودك شاهـد
يـاحـى يـاقيـوم أنـت المرتجـى وإلـى عـلاك عنـا الجبيـن الساجـد
يـامـن لـه عنـت الوجـوه بأسرهـا رهبـاً وكـل الكائنـات توحـد
مـافـى الـوجود سـواك رب يعبـد كـلَّا ولا مولـى هنـاك فيقصـد
أنـت الإلـه الواحـد الحق الـذى كـل القلـوب لـه تقـر وتشهـد

فإذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا * الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا ﴾[(٢)] .

روى الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : (من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن انزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلا وإما غنى عاجلاً)[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾ :

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر ، قال مجاهد : ﴿ **وقضى** ﴾ : يعنى وصى ، وكذا . قرأ أبى بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم (ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين ، فقال : ﴿ **وبالوالدين إحسانا** ﴾ :

أى وأمر بالوالدين إحسانا ، كقوله فى الآية الأخرى : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾[(٤)] .

وقوله : ﴿ **إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف** ﴾ : أى لا تُسمعهما قولا سيئا . حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السىء .

﴿ **ولا تنهرهما** ﴾ : أى ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبى رباح فى قوله : ﴿ **ولا تنهرهما** ﴾ : أى لا تنفض يدك عليهما .

---

(١) الآية ٣١ من سورة الحج . (٢) الآيتان ٥٨ — ٥٩ من سورة الفرقان

(٣) أخرجه أبو دادود فى الزكاة : ٢٨ . والترمذى فى الزهد : ١٨ . والإمام أحمد فى ١ : ٤٠٧ ، ٤٤٢ .

(٤) الآية ١٤ من سورة لقمان .

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح أمره بالقول الحسن والفعل الحسن ، فقال : ﴿ **وقل لهما قولاً كريماً** ﴾ : أى لينا طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم .

﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ : أى تواضع لهما بفعلك ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾ : أى فى كبرهما ، وعند وفاتهما .

قال ابن عباس ، ثم أنزل الله : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾[(١)]. الآية وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة .

منها الحديث المروى من طرق عن أنس رضى الله عنه : أن النبى ﷺ صعد المنبر ثم قال : (أمين . أمين . أمين) قيل : يا رسول الله علام أمنت ؟ قال : (أتانى جبريل فقال : يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك ، قل : آمين . فقلت آمين . ثم قال : رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين . ثم قال : رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل : آمين . فقلت آمين)[(٢)] .

وروى الإمام أحمد بسنده عن مالك بن الحارث عن رجل منهم أنه سمع النبى ﷺ يقول : (من ضم يتيما من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة ألبتة ، ومن أعتق أمرءا مسلماً كان فكاكه من النار يجزى بكل عضو منه عضواً منه)[(٣)] .

وعن رسول الله ﷺ : (من أعتق رقبة مسلمة فهى فداؤه من النار ، فإن كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله عز وجل ، ومن ضم يتيما من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة)[(٤)] .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبى مالك القشيرى قال : قال النبى ﷺ : (من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه)[(٥)] .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (رغم أنف . ثم رغم أنف ثم رغم أنف . رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عنده الكبر ولم يدخل الجنة)[(٦)] .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فانسلخ فلم يغفر له ، ورغم

---

(١) الآية ١١٣ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٩ ، ١٠ . والترمذى فى الدعوات : ١٠٠ .

(٣) أخرجه ابو داود فى الأدب : ١٢٢ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٤٤ ، وفى ٥ : ٢٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى العتق : ١ ، وفى الكفارات : ٦ . ومسلم فى العتق : ٢٢ – ٢٥ . وأبو داود فى العتاق : ١٤ . والترمذى فى النذر : ١٤ ، ٢٠ . والنسائى فى الجهاد : ٢٦ . وابن ماجة فى العتق : ٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٩ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٣٤٤ ، وفى ٥ : ٢٩ .

(٦) أخرجه مسلم فى البر : ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٤٦ .

أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة)(١) .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أبى أسيل وهو مالك بن ربيعة الساعدى قال : بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله هل بقى على من بر أبوى شيء بعد موتهما أبرهما به قال : (نعم خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التى لا رحم لكم إلا من قبلهما فهو الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما)(٢) .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن معاوية بن جاهمة السلمى أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال : (فهل لك من أم ؟) قال : نعم . قال : (فالزمها فإن الجنة عند رجليها)(٣) ثم الثانية ثم الثالثة فى مقاعد شتى كمثل هذا القول .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن المقدام بن معد يكرب عن النبى ﷺ قال : (إن الله يوصيكم بآبائكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب)(٤) .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أشعث بن سليم عن أبيه عن رجل من بنى يربوع قال أتيت النبى ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول (يد المعطى العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك)(٥) .

روى الحافظ أبو بكر بسنده عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبى ﷺ هل أديت حقها قال (لا ولا بزفرة واحدة) .

قوله تعالى : ﴿ **ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا** ﴾ :

إذ هو سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو المطلع على خفايا نفوسكم ، وما فيها من خير وشر ، وبر وعقوق ، وصلة وقطيعة ، وهذا وعد لمن أضمر البر بالوالدين وقال لهما قولا كريما ، وخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، كما أنه وعيد لمن أضمر السوء لهما وعقّهما ونهرهما وتكبر عليهما وعصى أوامرهما .

قوله تعالى : ﴿ **إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا** ﴾ :

للمفسرين أقوال فى الأوابين :

قال قتادة : للمطيعين أهل الصلاة .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٠٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٤ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى الأدب : ٢ . والإمام أحمد فى ٣ : ٣٩٨ .

(٣) أخرجه النسائى فى الجهاد : ٦ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٩٢ .

(٤) أخرجه ابن ماجة فى الأدب : ١ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٣١ ، ١٣٢ .

(٥) أخرجه مسلم فى البر : ٢ . والنسائى فى الزكاة : ٥١ . وابن ماجة فى الأدب : ١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٢٦ ، وفى ٤ : ٦٥ ، وفى ٥ : ٣٧٧ .

وعن ابن عباس : المسبحين ، وفى رواية عنه :المطيعين المحسنين .

وقال بعضهم : هم الذين يصلون بين العشاءين .

وقال بعضهم : هم الذين يصلون الضحى .

وعن سعيد بن المسيب قال : الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ويصيبون الذنب ثم يتوبون .

وقال مجاهد عن عبيد بن عمير فى الآية هو الذى إذا ذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله منها، ووافقه مجاهد فى ذلك .

وقال عبيد بن عمير : كنا نعد الأواب الحفيظ أن يقول اللهم اغفر لى ما أصبت فى مجلسى هذا .

وقال ابن جرير : والأولى فى ذلك قول من قال هو التائب من الذنب الرجّاع من المعصية إلى الطاعة ، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه .

وهذا الذى قاله هو الصواب ، لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع ، يقال آب فلان إذا رجع ، قال تعالى ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾[1] وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال : ﴿ آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا * وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا** ﴾ :

بعد أن بين سبحانه وتعالى حقوق الوالدين ، أمر بصلة الرحم فقال : ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ : وقد جاء ترتيبها فى الحديث : (أمك وأباك ثم أدناك أدناك) وفى رواية : (ثم الأقرب فالأقرب) . وفى الحديث : (من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أجله فليصل رحمه)[3] .

إن الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله

جاء فى الحديث الصحيح :

(إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال نعم ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت بلى ، قال : فذاك لك)[4] . اقرءوا إن

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الغاشية .

(٢) أخرجه البخارى فى العمرة : ١٢ ، وفى الدعوات : ٥٣ . ومسلم فى الحج : ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ . وأبو داود فى الجهاد : ٢ ، ٨٢ ، ١٥٨ . والترمذى فى الحج : ١٠٢ . والدرامى فى الاستئذان : ٥٠ . والإمام مالك فى الحج : ٢٤٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٥٦ . وفى ٢ : ٥ ، ١٠ ، ١٥ ، ١٥٠ ، وفى ٣ : ١٨٧ ، ١٨٩ ، وفى ٤ : ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ .

(٣) أخرجه البخارى فى البيوع : ١٣ ، وفى الأدب : ١٢ . ومسلم فى البر : ٢٠ ، ٢١ . وأبو داود فى الزكاة : ٤٥ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٥٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ .

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٤٧ ، وفى الأدب : ١٣ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى البر : ١٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٠ ، ٣٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٥٥ .

شئتم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ۞ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ۞ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[١] .

كذلك أمر الله تعالى بإيتاء المسكين حقه ، والمسكين هو الذى أسكنته الحاجة فأضحى لا يملك شيئا ، فإذا كان من ذوى القربى كانت الصدقة عليه بأجرين .

قال ﷺ : (الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان : صلة وصدقة)[٢] .

فطوبى لمن عاشر أهل العلم والحكمة وخالط أهل الذل والمسكنة . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . طوبى لمن أمسك الفضل من قوله وأنفق الفضل من ماله . طوبى لمن وسعته السنة ولم تستهوه البدعة . ورحم الله امرءاً قال خيرا فغنم أو سكت فسلم .

ومن وصايا الرسول ﷺ لأبى ذر : « أحب المساكين وجالسهم »

وجلَّ جلال الحق إذ يقول فى وصف الأبرار : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ۞ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا ﴾[٣] .

كما أوصى تعالى بابن السبيل وهو الغريب الذى انقطعت به السبل حتى كأن السبيل أمه وأبوه ، فالإحسان إليه واجب .

ثم نهى سبحانه عن التبذير فقال : ﴿ **ولا تبذر تبذيرا** ﴾ :

قال ابن مسعود : التبذير الانفاق فى غير حق ، وكذا قال ابن عباس .

وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ولو أنفق مدا فى غير حق كان مبذرا .

وقال قتادة : التبذير : النفقة فى معصية الله تعالى وفى غير الحق والفساد .

أى معنى الآية : لا تفرق أيها الإنسان ما أعطاك الله من مال فى معصيته تفريقا بإعطائه من لا يستحقه ، ونحو الآية قوله : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾[٤] .

قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف المسجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه إلى أبى قُبَيْس (جبل بمكة) وقال لو أن رجلا أنفق مثل هذا فى طاعة الله لم يكن من المسرفين ، ولو أنفق درهما واحدا فى معصية الله كان من المسرفين .

وأنفق بعضهم نفقة فى خير وأكثر فقيل له : لا خير فى السرف ، فقال : لا سرف فى الخير .

وعن عبد الله بن عمر قال : « مر رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ ، فقال : ما هذا السرف يا سعد ؟ قال : أو فى الوضوء سرف ؟ (قال : نعم وإن كنت على نهر جار)[٣] .

(١) الآيات ٢٢ — ٢٤ من سورة محمد .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٢٢١ . وابن ماجة فى الطهارة : ٤٨ .

(٣) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الإنسان .

(٤) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

وروى أحمد عن أنس بن مالك أنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنى ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة ، فأخبرنى كيف أنفق ، وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : (تخرج الزكاة من مالك إن كان ، فإنها طُهْرة تطهرِّك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين) ... فقال : يا رسول الله أقلل لى ، قال (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا) فقال : حسبى يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئتُ منها إلى الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : (نعم إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها ولك أجرها وإثمها على من بدَّلها)[1] .

وعن على كرم الله وجهه قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك فى غير سرف ولا تبذير ، وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

ثم نبه سبحانه إلى قبح التبذير بإضافته إلى الشياطين فقال :

﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ :

تقول العرب لكل من لازم سُنَّة قوم واتبع أثرهم هو أخوهم ، أى إن المفرّقين أموالهم فى معاصى الله المنفقيها فى غير طاعته قرناء الشياطين فى الدنيا والآخرة كما قال : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾[2] وقال : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾[3] أى قرناءهم من الشياطين .

﴿ وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ :

أى وكان الشيطان لنعمة ربه التى أنعم بها عليه جحوداً لا يشكره عليها ، بل يكفرها بترك طاعته ، وركوبه معصيته ، وهكذا إخوانه ، المبذرون أموالهم فى معاصى الله ، لا يشكرون الله على نعمه عليهم ، بل يخالفون أمره ولا يستنون سنته ، ويتركون الشكران عليها ويتلقونها بالكفران .

قال الكرخى : وكذلك من رزقه الله جاها أو مالا ، فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفورا لنعمة الله ، لأنه موافق للشيطان فى الصفة والفعل . ا هـ .

وفى ذكر وصف الشيطان بالكفران دون ذكر سائر أوصافه ، بيان لأن المبذر لما صرف نعم الله عليه فى غير موضعها فقد كفر بها ولم يشكرها ، كما أن الشيطان كفر بهذه النعم . وقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أموالهم من السلب والنهب والغارة ثم ينفقونها فى التفاخر وحب الشهرة . وكان المشركون من قريش ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله وإعانة أعدائه ، فجاءت الآية تبين قبح أعمالهم .

﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ﴾ :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ ، ١٣٦ .
(٢) الآية ٣٦ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ٢٢ من سورة الصافات .

أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمساكين وابن السبيل وأنت تستحى أن تردّ عليهم ، انتظار فرج من الله ترجو أن يأتيك ، ورزق يفيض عليك ، فقل لهم قولا لينا جميلا ، وعِدْهم وعدا تطيب به قلوبهم .

قال الحسن : أُمر أن يقول لهم : نعم وكرامة ، وليس عندنا اليوم شىء ، فإن يأتنا نعرف حقكم . وفى هذا تأديب من الله لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبم يردون ؟

قوله تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا** ﴾ :

هذه هى الطريقة المثلى فى الإنفاق . فالإسلام دين الاعتدال فى كل شىء ، لا تهويل ولا تهوين ولا إفراط ولا تفريط ، لا شح ولا تبذير ، لا إسراف ولا تقتير ، لا بخل ولا ترف .

ففى قوله جلَّ شأنه ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك** ﴾ : كناية لطيفة عن البخل .

وفى قوله : ﴿ **ولا تبسطها كل البسط** ﴾ : كناية عن الإسراف .

ثم رتَّب على كل منهم ما يناسبه من عواقب . فرتَّب على البخل فتقعد ملوما ، ورتَّب على الإسراف محسورا ، فالملوم هو الذى يستحق اللوم والذم .

والمحسور هو العاجز الذى ضيَّع ماله فنزل به الكلل والعى من باب قوله تعالى : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾[1] .

والاعتدال فى قوله تعالى يصف عباد الرحمن : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾[2] .

جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما . فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره . وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع)[3] .

وفى الصحيحين من طريق هشام بن عروة عن زوجته فاطمة بنت المنذر عن جدتها أسماء بنت أبى بكر قالت : قال رسول الله ﷺ : (أنفقى هكذا وهكذا وهكذا ولا توعى فيوعى الله عليك ، ولا توكى فيوكى الله عليك) . وفى لفظ : (ولا تحصى فيحصى الله عليك)[4] .

---

(١) الآية ٤ من سورة الملك . (٢) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

(٣) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٢٨ ، وفى الجهاد : ٨٩ . ومسلم فى الزكاة : ٧٤ ، ٧٥ . وللنسائى فى الزكاة : ٦١ . وللإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٥ ، ٣٨٩ ، ٥٢٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٢٢ ، وفى الهبة : ١٥ . ومسلم فى الزكاة : ٨٨ ، ٨٩ . والإمام أحمد فى ٦ : ١٣٩ ، ١٦٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله قال لى : أنْفِق أُنفِق عليك)[١] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفا ، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا)[٢] .

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة مرفوعا : (ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبدا أنفق إلا عزا ومن تواضع لله رفعه الله)[٣] .

وفى حديث أبى كثير عن عبد الله بن عمر مرفوعا : (إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا)[٤] .

وروى البيهقى من طريق سعدان بن نصر عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحيى سبعين شيطاناً) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ (ما عال من اقتصد)[٥] .

وقوله : ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ : إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف فى خلقه بما يشاء فيغنى من يشاء ويفقر من يشاء لما له فى ذلك من الحكمة ولهذا قال : ﴿ **إنه كان بعباده خبيرا بصيرا** ﴾ : أى خبيرا بصيرا بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر .

كما جاء فى الحديث : (إن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه) .

وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجا والفقر عقوبة عياذا بالله من هذا وهذا .

قوله تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيَّاكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا** ﴾ :

أى ولا تئدوا بناتكم خوف الفقر ، فنحن نرزقهم لا أنتم ، فلا تخافوا الفقر لعلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم . وقد كان العرب فى جاهليتهم يقتلون البنات ، لعجزهن عن الكسب ، وقدرة البنين

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ ، ٢ ، وفى النفقات : ١ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى الزكاة : ٣٦ ، ٣٧ . وابن ماجة فى الكفارات : ١٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٢ ، ٣١٤ ، ٣٦٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٢٧ . ومسلم فى الزكاة : ٥٧ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٦ ، ٣٤٧ ، وفى ٥ : ١٩٧ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١٧ .

(٤) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، وفى ٣ : ٣٢٣ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٤٤٧ .

عليه ، بالغارات والسلب والنهب ، ولأن فقرهن ينفرّ الأكفاء عن الرغبة فيهن ، فيحتاجون إلى تزويجهن لغير الأكفاء ، وفى ذلك عار أيما عار عليهم .

والخلاصة — أن الأرزاق بيد الله ، فكما يفتح خزائنه للبنين يفتحها للبنات ، فليس لكم سبب يدعو إلى قتلهن ، ومن ثم قال : ﴿ **إن قتلهم كان خطئا كبيرا** ﴾ : أى أن قتلهم كان إثما فظيعا لما فيه من انقطاع النسل وزوال هذا النوع من الوجود .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن سعود قال : « قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو الذى خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى بحليلة جارك »[1] .

والخلاصة — إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو سوء الظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم ، والأول انتهاك لحرمة الله ، والثانى ضد الشفقة على خلق الله ، وكلاهما مذموم غاية الذم .

ولما فى قتل الأولاد حظ من البخل ، وفى الزنا داع من دواعى الإسراف أتبعه فقال سبحانه : ﴿ **ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً** ﴾ :

أى أنه كان فعلة ظاهره القبح مشتملة على مفاسد كثيرة أهمها :

(١) اختلاط الأنساب واشتباهها ، وإذا اشتبه المرء فى الولد الذى أتت به الزانية منه هو أو من غيره ، لا يقوم بتربيته ولا يستمر فى تعهده ، وذلك مما يوجب إضاعة النسل وخراب العالم .

(٢) فتح باب الهرج والمرج والإضطراب بين الناس دفاعا عن العرض ، فكم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنا ، حتى إنه ليقال عند السماع بحادث قتل (فتش عن المرأة)

(٣) إن المرأة إذا عُرفت بالزنا واشتهرت به استقذرها كل ذى طبع سليم ، فلا تحدث ألفة بينها وبين زوجها ، ولا يتم السكن الذى جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[2] .

(٤) إنه ليس المقصد من المرأة مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل فى ترتيب المنزل وإعداد مهامه من مطعوم ومشروب وملبوس ، وأن تكون حافظة له ، قائمة بشؤون الأولاد والخدم ، وهذه المهام لا تتم على وجه الكمال إلا إذا كانت مختصة برجل واحد منقطعة له دون غيره من الناس وإجمال ذلك — أن الزنا فاحشة وأى فاحشة ، لما فيه من اختلاط الأنساب والتقاتل والتناحر دفاعا

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ٣ ، وسورة ٢٥ : ٢ ، وفى الأدب : ٢٠ ، وفى الديات : ١ ، وفى الحدود : ٢٠ ، وفى التوحيد : ٤٠ . ومسلم فى الإيمان : ١٤١ ، ١٤٢ . وأبو داود فى الطلاق : ٥٠ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٥ : ١ ، ٢ . والنسائى فى التحريم : ٤ . والإمام أحمد فى : ٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ ، وفى ٦ : ٨ .

(٢) الآية ٢١ من سورة الروم .

عن العرض ، وإنه سبيل سيء من قبل أنه يسوى بين الإنسان والحيوان ، فى عدم اختصاص الذكران بالإناث .

وبعد أن نهى سبحانه عن قتل الأولاد للسبب المتقدم نهى عن القتل مطلقا فقال سبحانه :

﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا ﴾ :

﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ : أى ولا تقتلوا النفس التى حرم الإسلام قتلها إلا قتلا متلبسا بالحق ، وهو أحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل مؤمن معصوم عمداً ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الشيخان عن ابن سعود : « لا يحل دم امرىء يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[1] .

والسبب فى هذا التحريم وجوه :

(١) إنه إفساد حرمته لقوله ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض ﴾ .

(٢) إنه ضرر ، والأصل فى المضارَّة الحرمة لقوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[2] وقوله ﷺ (لا ضرر ولا ضرار)[3] .

(٣) إنه إذا أبيح القتل زال هذا النوع من الوجود ففتك القوى بالضعيف ، وحدث الاضطراب فى المجتمع ، فلا يستقيم للناس حال ولا ينتظم لهم معاش .

﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ﴾ :

أى ومن قتل مظلوما بغير حق يوجب قتله فقد جعلنا لمن يلى أمره من وارث أو سلطان عند عدم الوارث تسلطا واستيلاء على القاتل ، بمؤاخذته بأحد أمرين : إما القصاص منه ، وإما الدية لقوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القصاص فى القتلى ﴾[4] الآية .

ولقوله ﷺ يوم الفتح : (من قتل قتيلاً فأهله بين خيرتين ، إن أحبوا قتلوا ، وإن أحبوا أخذوا الدية)[5] .

﴿ فلا يسرف فى القتل ﴾ :

أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلا بإزاء واحد ، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية إذ كانوا يقتلون القاتل ويقتلون معه غيره إذا كان رجلا شريفا وأحيانا لا يرضون بقتل القاتل بل يقتلون بدله

---

(١) أخرجه البخارى فى الديات : ٦ . ومسلم فى القسامة : ٢٥ ، ٢٦ . وأبو داود فى الحدود : ١ . والترمذى فى الحدود : ١٥ . وابن ماجة فى الحدود : ١ . والدرامى فى الحدود : ٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٢ ، ٤٢٨ ، ٤٤٤ ، ٤٦٥ .

(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣١٣ .

(٤) الآية ١٧٨ من سورة البقرة .

(٥) أخرجه أبو داود فى الديات : ٤ . والإمام أحمد فى ٦ : ٣٨٥ .

رجلا شريفا ، وفى الآية إيحاء إلى أن الأولى للولى ألا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتفى بالدية أو يعفو .

﴿ **إنه كان منصورا** ﴾ :

أى أن الله نصر الولى بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام أن يعينوه على استيفاء حقه ، فلا يبغى ما وراءه ولا يطمع فى الزيادة على ذلك . وقد يكون المعنى بتكفير خطاياه ، وإيجاب النار لقاتله ، هذه الآية أول ما نزل من القرآن فى شأن القتل ، لأنها مكية .

وبعد أن نهى عن إتلاف الأنفس نهى سبحانه عن إتلاف الأموال ، لأن المال أخو الروح ، وأحق الناس بالنهى عن إتلاف ماله هو اليتيم لضعفه وكمال عجزه ، ولذلك قال :

﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده** ﴾ :

أى لا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالطريق التى هى أحسن الطرق ، وهى طريق حفظه وتثميره بما يزيد به ، حتى تستحكم قوة عقله وشبابه ، وإذ ذاك يمكنه القيام على ماله بما فيه المصلحة .

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فكانوا لا يخالطون اليتامى فى طعام ولا غيره ، فأنزل الله تعالى ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾[1] . فكانت لهم فيها رخصة .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوها إسرافا وبداراً أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾[2] .

وبعد أن نهى عن الزنا والقتل واكل مال اليتيم ، أتبعها بثلاثة أوامر فقال سبحانه : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا * وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ :

(١) ﴿ **وأوفوا بالعهد** ﴾ : أى وأوفوا بما عاهدتم الله عليه من التزام ما كلفكم به ، وما عاهدتم الناس عليه من العقود التى تتعاملون بها فى البيوع والإجارة ونحوها ، قال الزجاج : كل ما أمر به الله ونهى عنه فهو من العهد ، ويدخل فى ذلك ما بين العبد وربه وما بين العباد بعضهم وبعض .

والوفاء به القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانونى المُرضى .

﴿ **إن العهد كان مسئولا** ﴾ : أى إن الله سائل ناقض العهد عن نقضه إياه ، فيقال للناكث له على سبيل التبكيت والتوبيخ لم نكثت عهدك ؟ وهلا وفَيْت به ، كما يقال لوائد الموءودة : بأى ذنب قتلت ؟ وقوله تعالى لعيسى عليه السلام ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين ؟ ﴾[3] والمخاطبة لعيسى والإنكار على غيره .

---

(١) الآية ٢٢٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٦ من سورة النساء .
(٣) الآية ١١٩ من سورة المائدة .

(٢) ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ : أى وأتموا الكيل للناس ولا تخسروهم إذا كلتم لهم حقوقهم قبلكم ، فإن كلتم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نقصتم عن حقكم ولم تفوا بالكيل .

(٣) ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ : أى وزنوا بالميزان العدل دون شيء من الجور أو الحيف ، لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء ، ومن ثم بالغ الشارع فى المنع من التطفيف والنقصان ، سعيا فى إبقاء الأموال لأربابها ثم بين عاقبة هذه الأمور وحسن مثالها فقال :

﴿ ذلك خير ﴾ : أى إيفاؤكم بالعهد ، وإيفاؤكم من تكيلون له ، ووزنكم بالعدل لمن توفون له ، خير لكم فى الدنيا من نكثكم وبخسكم فى الكيل والوزن ، لأن ذلك مما يرغب الناس فى معاملتكم ، وحب الثناء عليكم .

﴿ وأحسن تأويلا ﴾ : أى وأجمل عاقبة ، لما يترتب على ذلك من الثواب فى الآخرة والخلاص من العقاب الأليم .

وكثير من الفقراء الذين اشتهروا بالأمانة والبعد عن الخيانة أقبلت عليهم الدنيا ، وحصل لهم الثروة والغنى ، وكان ذلك سبب سعادتهم فيها .

وبعد أن ذكر سبحانه أوامر ثلاثة نهى عن مثلها فقال : ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا * ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا** ﴾ :

(١) ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ : أى ولا تتبع أيها المرء ما لا علم لك به من قول أو فعل ، وذلك دستور شامل لكثير من شؤون الحياة ، ومن ثم قال المفسرون فيه أقوالا كثيرة .

(أ) قال ابن عباس : لا تشهد إلا بما رأت عيناك ، وسمعته أذناك ووعاه قلبك . (ب) قال قتادة : لا تقل سمعتُ ولم تسمع ولا رأيت ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم . (جـ) وقيل المراد النهى عن القول بلا علم بل بالظن والتوهم كما قال سبحانه : ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ﴾[١]

وفى الحديث (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)[٢] .

وفى سنن أبى داود (بئس مطية الرجل زعموا) .

إلا ما قام الدليل على جواز العمل به إن لم يوجد دليل من كتاب أو سنة .

كما رخص النبى ﷺ فى ذلك لمعاذ حين بعثه قاضيا فى اليمن إذ قال له (بم تقضى ؟ قال بكتاب الله ، قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله ﷺ ، قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيى)[٣].

(١) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٢) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٨ . ومسلم فى البر : ٢٨ . والترمذى فى البر : ٥٦ . والإمام مالك فى حسن الخلق : ١٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٥ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الأقضية : ١١ . والترمذى فى الأحكام : ٣ . والنسائى فى القضاة : ١١ . وابن ماجة فى المناسك : ٣٨ . والدارمى فى المقدمة : ٣٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٧ ، وفى ٥ : ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ .

(د) وقيل المراد نهى المشركين عن اعتقاداتهم تقليدا لأسلافهم واتباعاً للهوى كما قال : ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾[1] .

ثم ذكر سبحانه : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ :

أى أن الله سائل هذه الأعضاء عما فعل صاحبها كما قال سبحانه : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾[2] .

وفى الخبر عن شطل بن حُميد قال : « أتيت النبى ﷺ فقلت يا نبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به ، فأخذ بيدى ثم قال : قل أعوذ بك من شر سمعى ، وشر بصرى ، وشر قلبى ، وشر منيى »[3] (يريد الزنا)

(٢) ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ : أى ولا تمش متبخترا متمايلاً كمشى الجبارين ، فتحتك الأرض التى لا تقدر على خرقها بدوسك وشدة وطئك لها ، وفوقك الجبال التى لا تقدر على الوصول إليها ، فأنت محوط بنوعين من الجماد أنت أضعف منهما والضعيف المحصور لا يليق به التكبر ، ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا ... فكم تحتها قوم هم منك أرفع
وإن كنت فى عز وحرز ومنعة ... فكم مات من قوم هم منك أمنع

وما أجمل ما قاله الحسن البصرى رضى الله عنه : عجب لك يا ابن آدم تتكبر على الله وأنت فى أولك نطفة مزرة وفى أخرك جيفة قذرة ، وأنت بين هذا وذاك تحمل فى بطنك العذرة ، تنتنك عرقه ، وتؤذيك بقة وتقتلك شرقه

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر
على صفحات الماء وهو رفيع
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه
إلى طبقات الجو وهو وضيع

كيف تتكبر على الله وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين ، مرة من صلب أبيك ومرة من رحم أمك

يا مدعى الكبر إعجاباً بصورته ... انظر خلاك فإن النتن تثريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم ... لم يدع الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً ... أقصر فإنك مأكول ومشروب

(١) الآية ٢٣ من سورة النجم .
(٢) الآية ٢٤ من سورة النور .
(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٧٤ . والنسائى فى الاستعاذة : ٤ ، ١٠ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٢٩ .

وخلاصة ذلك – تواضع ولا تتكبر ، فإنك مخلوق ضعيف محصور بين حجارة وتراب ، فلا تفعل فعل القوى المقتدر .

ولا يخفى ما فى الآية من التقريع والتهكم والزجر لمن اعتاد ذلك ثم علل هذا النهى بقوله :

﴿ **إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا** ﴾ : أى لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك ، ولن تبلغ الجبال التى هى بعض أجزاء الأرض فى الطول حتى يمكنك أن تتكبر عليها ، فالتكبر إنما يكون بالقوة وعظم الجثة وكلاهما غير موجود لديك . فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أحقر من كل من الجمادين ؟ وكيف يليق بك الكبر ؟

﴿ **كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها** ﴾ : أى كل الذى ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهى وهى الخمس والعشرون السالفة كان سيئة وهو ما نهى عنه منه ، من الجعل مع الله إلها آخر وعبادة غيره ، والتأفف والتبذير ، وغل اليد ، وقتل الأولاد خشية الإملاق – مكروه عند ربك أى مبغوض عنده وإن كان مرادا له تعالى بالإرادة التكوينية كما قال ﷺ : (ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن)[1] .

وهذه الإرادة لا تستدعى الرضا منه سبحانه .

وفى وصف هذه الأشياء بالكراهية مع أن أكثرها من الكبائر – إيماء إلى أن الكراهة عنده تعالى تكفى فى وجوب الكف عن ذلك .

ثم بين وجوب امتثال تلك الأوامر ، وترك تلك النواهى فقال : ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾[2] أى هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الحميدة ، ونهيناك عنه من الرذائل مما أوحينا إليك من فقه الدين ومعرفة أسراره ، ومن الحكم فى تشريعه .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ثم تلا ﴿ **لا تجعل مع الله إلها آخر** ﴾ : الآية .

﴿ **ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً** ﴾ :

كرر هذا مع ما سلف ، للتنبيه إلى أن التوحيد رأس الدين ورأس الحكمة ، وهو مبدأ الأمر ومنتهاه ، وقد رتب عليه أولا آثار الشرك فى الدنيا فقال : ﴿ **فتقعد مذموماً مخذولا** ﴾ :

ورتب عليه هنا نتيجة فى العقبى فقال : ﴿ **فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا** ﴾ : أى ملوما من جهة نفسك ومن جهة غيرك ، ومبعدا من رحمة الله تعالى .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب : ١٠١ .

(٢) الآية ٣٩ من سورة الإسراء .

التوحيد الخالص

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

المفردات : ﴿ **الإصفاء بالشىء** ﴾: جعله خالصا له ﴿ **وصرَّفنا** ﴾ : أى بينا ، ﴿ **ليذكروا** ﴾ : أى يتدبروا ويتعظوا ، ﴿ **والنفور** ﴾ : البعد من الشىء ، ﴿ **وابتغاء الشىء** ﴾ : طلبه ، ﴿ **والسبيل** ﴾ : الطريق ، ﴿ **والفقه** ﴾ : الفهم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نبه سبحانه إلى جهل من أثبتوا له شريكا واتخذوا له ندا ونظيرا ، قفى على ذلك بالتنديد والتقريع لمن أثبتوا له ولدا ، وأنه قد بلغ من قِحَتِهم أن جعلوا البنين لأنفسهم مع علمهم بعجزهم ونقصهم ، وأعطوا الله البنات ، مع علمهم بأنه الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لا غاية له .

ثم أتبعه ببيان أنه قد ضرب فى القرآن الأمثال ليتدبروا ويتأملوا فيها ، ولكن ذلك ما زادهم إلا نفورا عن الحق وقلة طمأنينة إليه .

ثم أردفه ببيان أنه لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، لطلبت لأنفسها قربة إلى الله وسبيلاً إليه ، ولكنها لم تفعل ذلك ، وكيف تقربكم إليه وكل ما فى السموات والأرض يسبح بحمده ، بدلالة أحواله على توحيده ، وتقديسه وكمال قدرته ،ولكنكم لجهلكم وغفلتكم لا تدركون دلالة تلك الدلائل .

قوله تعالى : ﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيماً** ﴾ :

من مساوىء أهل الجاهلية – وما أكثرها – أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، ومن مساوئهم أنهم عبدوهم من دون الله ، ومن مساوئهم أنهم جعلوهم بنات الله ، قال سبحانه مدحضا شبهاتهم : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون ﴾[1] .

---

(١) الآية ١٩ من سورة الزخرف .

﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾[١] .

وقال جل جلاله : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾[٢] .

ثم يفند زعمهم هذ ويسفهه فيقول : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾[٣] .

وقال جل شأنه : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين * أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين * وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسودا وهو كظيم * أو من ينشؤا فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ﴾[٤] .

وقال تقدست صفاته : ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * ما لكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين * فأتوا بكتابكم إن كنتم صدقين ﴾[٥] .

وقال تنزهت عن الشريك ذاته : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾[٦] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾[٧] .

وقال سبحانه ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾[٨] .

وقال سبحانه وتعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ﴾[٩] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾[١٠] .

وقال تبارك اسمه : ﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا** ﴾ :

هل خصص الله تعالى البنين لكم واتخذ من الملائكة إناثا ، وانتم لا تحبون الإناث ، فكيف ترضون

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٥٧ من سورة النحل .
(٣) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة النحل .
(٤) الآيات ١٥ ١٨ من سورة الزخرف .
(٥) الآيات ١٤٩ – ١٥٦ من سورة الصافات .
(٦) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الكهف .
(٧) الآية ٤ من سورة الزمر .
(٨) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأنبياء .
(٩) الآيات ٢٦ – ٢٩ من سورة الأنبياء .
(١٠) الآيات ٨٨ – ٩٥ من سورة مريم

لله ما تكرهونه لأنفسكم ؟ أهذا منطق العقل السديد والرأى الرشيد ، إنكم لتقولون قولاً عظيماً .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا** ﴾ :

يقول تعالى : أى نوعنا فيه بين وعد ووعيد وخوف ورجاء وعقيدة وشريعة وخلق ومثل ، ليذكروا ويعتبروا ، وما يزيد الظالمين إلا نفورا ، وما يزيد الكافرين إلا كفرا وخسارا .

﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا * سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا** ﴾ :

وهكذا يخاطب القرآن الكريم العقل الرشيد بالمنطق السديد ، فيقول لهؤلاء المشركين : لو كان مع الله آلهة أخرى تُعبد كما تقولون وتدعون ، فإن هؤلاء الآلهة المزعومين سيطلبون التقرب إليه تعالى ليعبدوه ، فإذا ثبت ذلك فلماذا لا تعبدونه وحده ، ولماذا الشركاء والشفعاء .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يسأل عما يفعل وهم يسألون * أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾(٣) .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾(٤) .

وقال ﷺ (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله)(٥) .

وما أجل قوله جل شأنه : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾(٦) .

فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته بالبر معروف وبالإحسان موصوف واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة . أول بلا بداية وآخر بلا نهاية سبحانه وتعالى عما يصفون .

﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً** ﴾ :

(١) الآية ٥ من سورة فصلت .
(٢) الآية ١١٣ من سورة طه .
(٣) الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٥) أخرجه الإمام مالك فى القرآن : ٣٢ ، وفى الحج : ٢٤٦ .
(٦) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة المؤمنون .

قال أبو القاسم الطبرانى عن عبد الرحمن بن قرط : أن رسول الله ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى كان بين المقام وزمزم ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطار به حتى بلغ السموات السبع فلما رجع قال : (سمعت تسبيحاً فى السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى ، من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا ، سبحان الأعلى سبحانه وتعالى).

نعم لو سألت الكون عن عرشه إلى فرشه ومن سحابه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال أنى مخلوق للواحد القهار ، سبحه الطير فى وكره ، ومجده الوحش فى قفره ، ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾[1] .

أنظر إلى السماء وارتفاعها والشمس وشعاعها والبحار وأمواجها والأرض واتساعها والجبال ورسوخها وإلى كل ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن الكل يشهد بجلاله ، ويقر بكماله ، ويعلن ذكره ولا يغفل عن شكره .

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قطب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

قوله تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده** ﴾ : أى وما من شئ من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله .

﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ : أى لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات .

وهذا أشهر القولين كما ثبت فى الصحيح أخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل »[2] .

وفى حديث أبى ذر (أن النبى ﷺ أخذ فى يده حصيات فسمع لهن تسبيحا كطنين النحل) . وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم وهو حديث مشهور فى المسانيد .

وقال الإمام أحمد عن ابن أنس عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم (اركبوها سالمة ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا لله منه)[3] .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الروم .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٥ . والبخارى فى المناقب : ٢٥ . والإمام أحمد فى ١ : ٤٦٠ .

(٣) أخرجه الدارمى فى الاستئذان : ٣٩ . وأبو داود فى الجهاد : ٤٤ . والإمام أحمد فى ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، وفى ٤ ، ١٨١ .

وفى سنن النسائى عن عبد الله بن عمرو قال : « نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال : نقيقها تسبيح »[١] .

وقال قتادة عن عبد الله بن أبى عن عبد الله بن عمرو أن كلمة الرجل إذا قال لا إله إلا الله فهى كلمة الإخلاص التى لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها .

وإذا قال الحمد لله فهى كلمة الشكر التى لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها .

وإذا قال الله أكبر فهى صلاة الخلائق التى لم يدع الله أحداً من خلقه إلا قرره بالصلاة والتسبيح .

وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قال أسلم عبدى واستسلم .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ (إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال إنى قاص عليكما الوصية آمركما باثنتين وآنهاكما عن اثنتين ، أنهاكما عن الشرك بالله والكبر ، وأمركما بلا إله إلا الله فإن السموات والأرض وما فيهما لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى كانت أرجح ، ولو أن السموات والأرض كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتهما أو لفصمتهما ، وآمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شىء وبها يرزق كل شىء)[٢] .

﴿ **إنه كان حليما غفورا** ﴾ : أى أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره فإن استمر على كفره وعناده أخذ عزيز مقتدر كما جاء فى الصحيحين : (إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)[٣] ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٤] .

وقال : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ﴾[٥] الآيتين .

ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع إلى الله وتاب إليه تاب الله عليه كما قال سبحانه : ﴿ من يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾[٦] وقال ههنا : ﴿ **إنه كان حليما غفورا** ﴾ ، كما قال فى آخر فاطر ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً ﴾[٧] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٥٣ . وابن ماجة فى الصيد : ١٠ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ ، ١٧٠ ، ٢٢٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٥ . ومسلم فى البر : ٦٢ . والترمذى فى التفسير سورة ١١ : ٢ .

(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود

(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٦) الآية ١٢٣ من سورة النساء .

(٧) الآية ٤١ من سورة فاطر .

حال المشركين عند سماع القرآن

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

المفـــردات : ﴿ **الحجاب والحجب** ﴾ : المنع من الوصول إلى الشيء والمراد الحاجب ، ﴿ **والمستور** ﴾ : أى الساتر كما جاء عكسه من قوله نحو : ﴿ ماء دافق ﴾[1] أى مدفوق ، ﴿ **أن يفقهون** ﴾ : أى لئلا يفقهوه ويفهموه ، ﴿ **والأكنة** ﴾ : الأغطية واحدها كنان ، ﴿ **والوقر** ﴾ : الصمم والثقل فى الآذان ، المانع من السماع ، ﴿ **والنفور** ﴾ : الانزعاج ، ﴿ **مسحورا** ﴾ : أى مخبول العقل ، فهو كقولهم (إن هو إلا رجل به جنة)[2] ، ﴿ **فضلوا** ﴾ : أى جاروا عن قصد السبيل .

المناسبـــة وإجمـال المعنـــى

كان الكلام قبل هذا المقام – كمقام الألوهية – وجدالهم بالتى هى أحسن ، بضرب الأمثال لهم ، وإقامة الحجة عليهم ، وإيضاح السبيل لهم – والكلام هنا فى مقام النبوة والنعى عليهم فى عدم فهمهم للقرآن والنفور منه والهزء به ، وضربهم الأمثال للنبى ﷺ وقولهم فيها تارة إنه ساحر وأخرى إنه مجنون وحينا إنه شاعر .

روى ابن عباس أن ابا سفيان والنضر بن الحارث وأبا جهل وغيرهم ، كانوا يجالسون النبى ﷺ ويستمعون حديثه ، فقال النضر يوما ما أدرى ما يقول محمد ، غير أنى أرى شفتيه تتحركان بشىء ، وقال أبو سفيان : إنى لأرى بعض ما يقول حقاً ، وقال أبو جهل : هو مجنون ، وقال أبو لهب هو كاهن ، وقال و حويطب بني عبد العُزّى : هو شاعر فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً * وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا** ﴾ :

(١) الآية ٦ من سورة الطارق .

(٢) الآية ٢٥ من سورة المؤمنون .

المراد بالحجاب المستور هو الحجاب الساتر ، لأن هؤلاء الناس لما عطلوا قلوبهم وآذانهم وأبصارهم عن سماع الحق ، وأغلقوا كل منافذ المعرفة ، جازاهم الله بمثل أعمالهم قال سبحانه : ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾[١] .

وقال تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾[٢] .

وقال عز من قائل : ﴿ أولئك الذين طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون * لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[٤] .

وقال تعالى مسجلاً عليهم أقوالهم : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ أى نسمع سماع متدبر مستبصر ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾[٥] .

إن هؤلاء إذا سمعوا القرآن يقرؤه صاحب الرسالة العصماء كان بينهم وبينه حجاب حاجز .

أما القلوب فعليها أكنة تمنع من الفقه والفهم ، أما الآذان ففيها وقر فإذا ما سمعوا توحيد الله ولوا على أدبارهم نفورا قال تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون * قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون ﴾[٦]

قال تعالى : ﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾ :

أى انصرفوا ناكصين على اعقابهم ﴿ كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ :

إن علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور هو الذى يعلم ما يستمعون به القرآن ، ويعلم حالهم حين استماعهم له ، فهم إذ يستمعون يتناجون فيما بينهم ويسرون الحديث قائلين إن تتبعون إلا رجلا مسحورا سحرته الجن ، والعجيب أن هذه التهمة الباطلة رمى بها الأنبياء من أقوامهم ، قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[٨]

---

(١) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٧ من سورة البقرة .
(٣) الآيتان ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة النحل .
(٤) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .
(٥) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الملك .
(٦) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الزمر .
(٧) الآيتان ٥٠ ، ٥١ من سورة المدثر .
(٨) الآيات ٥٢ — ٥٥ من سورة الذاريات .

فانظر كيف ضربوا الأمثال والأشباه لرسول الله بالسحر ، فضلوا عن سواء السبيل ، فلا يستطيعون أن يسلكوا طريق الحق ، وهم فى قرارة أنفسهم يعلمون أنه ﷺ ما كان مسحوراً ، ولا ساحراً ، ولا مجنوناً ، ولا كاهناً ، ولا كذاباً ، ولا شاعراً ، لكنه الكبر وبطر الحق وغمط الناس .

قال محمد بن إسحق فى السيرة حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث (أن أبا سفيان ابن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل فى بيته فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوا أول مرة ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته فقال أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد قال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها قال الأخنس وأنا والذى حلفت به .

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال ياأبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه قال : فقام عنه الأخنس وتركه) .

الرد على منكرى البعث

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ ۞قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾

المفـــردات : ﴿ **الرفات** ﴾ : ما تكسر وبلى من كل شىء يكبر فى صدوركم : أى يستبعد قبوله للحياة فطركم : أى ذرأكم وأوجدكم ، ﴿ **فسينغضون إليك رءوسهم** ﴾ : أى سيحركونها

استهزاء يقال نغض رأسه ينغض نغضاً إذا تحرك وأنغض رأسه : حركه كالمتعجب من الشيء ، ﴿ **فتستجيبون** ﴾ : أى تجيبون الداعى .

المناسبة وإجمال المعنى

اعلم أن أمهات المسائل التى دار حولها البحث فى الكتاب الكريم الإلهيات والنبوات والبعث والجزاء والقضاء والقدر ، وقد تكلم فيما سلف فى الإلهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ، وفندها بما لا مجال للرد عليه ولا لدحضه وتكذيبه .

ثم ذكر فى هذه الآيات شكوكهم فى المعاد والبعث والجزاء ، ويرد عليها بما لو نظر إليه المنصف لأيقن بصدق ما يدعى وألزم نفسه تصديق ما يقال .

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا** ﴾ :

أى وقال الذين لا يؤمنون باليوم الآخر من المشركين : أئذا كنا عظاماً فى قبورنا لم نتحطم ولم نتكسر بعد مماتنا ورفاتاً متكسرة مدقوقة ، أئنا لمبعوثون بعد مصيرنا فيها وقد بلينا فتكسرت عظامنا وتقطعت أوصالنا ، خلقا جديداً كما كنا قبل الممات .

ومثل الآية قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظاماً نخرة * قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾[1].

وقوله : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[2] .

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم ويعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاهم خلقاً جديدا على أى حال كانوا عظاماً ورفاتاً أو حجارة أو حديداً أو خلقا مما يكبر فى صدورهم فقال :

﴿ **قل كونوا حجارة أو حديداً * أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم** ﴾ :

أى قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يستبعد عندكم قبوله للحياة كالسموات والأرض والجبال ، فإن الله لا يعجزه إحياؤكم لتساوى الأجسام فى قبولها الأعراض المختلفة ، فكيف إذا كنتم عظاماً بالية ، وقد كانت قبل حية ، والشيء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد ؟

(١) الآيات ١٠ — ١٢ من سورة النازعات .

(٢) الآيتان ٨٧ ، ٧٩ من سورة يس .

والخلاصة :

إنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله عن الإعادة والإحياء وهذا كما يقول القائل للرجل : اتطمع فىّ وأنا فلان . فيقول : كن ابن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقى .

وجملة المعنى إن فى هذا مبالغة أيما مبالغة فى قدرة القادر العليم على الإعادة والإحياء كما يقال : لو كنت عين الحياة فالله يميتك ولو كنت عين الغنى فالله يفقرك .

وبعد أن استبعدوا الإعادة استبعدوا صدورها وهى على هذه الحال حجارة أو حديدا من أى معيد كما حكى عنهم سبحانه بقوله : ﴿ **فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة** ﴾ :

أى فسيقولون لك من يعيدنا ونحن على هذه الحال ؟ قل لهم تحقيقاً للحق وإزاحة للاستبعاد وإرشاداً إلى طريق الاستدلال :

الذى يفعل ذلك هو القادر العظيم الذى ذرأكم أول مرة على غير مثال يحتذى ولا منهاج معين ينتحى ، وكنتم ترابا لم يشم رائحة الحياة ، أليس الذى يقدر على ذلك يقدر على أن يفيض الحياة على العظام البالية ويعيدها إلى ما كانت عليه أولاً ؟

بلى إنه سبحانه على كل شىء قدير .

ثم بين جلت قدرته ما يفعلون حين سماع هذه الإجابة فقال : ﴿ **فسينغضون إليك رءوسهم** ﴾ :

قال أبو الهيثم : يقال لمن أُخبر بشىء فحرك رأسه إنكاراً له : قد أنغض أى إنك إذا قلت لهم ذلك يحركون رءوسهم استهزاء وتكذيباً ثم يسألون :

﴿ **ويقولون متى هو** ﴾ : أى متى هذا البعث وفى أى وقت وحال يعيدنا خلقاً جديداً كما كنا أول مرة ، ومقصدهم من هذا السؤال استبعاد حصوله .

وفى معنى الآية قوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾[1]

وقوله : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾[2] . ﴿ **قل عسى أن يكون قريباً** ﴾ :

أى فاحذروا ذلك فإنه قريب منكم سيأتيكم لا محالة ، وكل آت قريب ، وكل ما هو محقق الحصول قريب وإن طال زمانه ، ولم يخبر به أحداً من خلقه لا ملكا مقربا ولا نبياً مرسلا ، يكون الخبر قد جاء بقرب حدوثه كما قال الرسول : ﴿ بعثت أنا والساعة كهاتين ﴾[3] وأشار بالسبابة والوسطى .

﴿ **يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده** ﴾ :

أى ذلك يوم يدعوكم فتستجيبون له من قبوركم بقدرته ودعائه إياكم ، ولله الحمد فى كل حال ،

(١) الآية ٤٨ من سورة يس .

(٢) الآية ١٨ من سورة الشورى .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٣٩ ، وفى تفسير سورة ٧٩ : ١ . ومسلم فى الجمعة : ٤٣ ، وفى الفتن : ١٣٢ — ١٣٥ . وابن ماجة فى المقدمة : ٧ . والدارمى فى الرقاق : ٤٦ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٠٩ ، وفى ٥ : ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ .

وهذا كما يقول القائل فعلت هذا بحمد الله ولله الحمد على كل ما فعلت .

وروى عن أنس مرفوعاً : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت أو فى القبر ولا فى الحشر وكأنى بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون رءوسهم من التراب يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » .

قال تعالى ﴿ **وتظنون إن لبثتم إلا قليلا** ﴾ :

ونحو الآية قوله : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾[1] ، وقوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾[2] .

وقوله : ﴿ كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادِّين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾[3] .

قال الحسن : المراد تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل .

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

المفـــردات : ﴿ **ينزغ** ﴾ : يفسد ويهيج الشر ، ﴿ **الوكيل** ﴾ : هو المفوض إليه الأمر ، ﴿ **الزبور** ﴾ : اسم الكتاب الذى أنزل على داود عليه السلام .

المناسبـــة

بعد أن أقام سبحانه الحجج على إبطال الشرك فقال : قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا وذكر الأدلة على صحة البعث والجزاء فقال : ﴿ **قل الذى فطركم أول مرة** ﴾ :

أمر رسوله أن يأمر عباده المؤمنين بأن يحاجوا مخالفيهم ويجادلوهم باللين ولا يغلظوا لهم فى القول ولا يشتموهم ولا يسبوهم فإن الكلمة الطيبة تجذب النفوس وتميل بها إلى الاقتناع كما يعلم ذلك الذين تولوا النصح والإرشاد من الوعاظ والساسة والزعماء فى كل أمة .

(١) الآية ٤٦ من سورة النازعات .

(٢) الآية ٥٥ من سورة الروم .

(٣) الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة المؤمنون .

ثم ذكر من الكلمة الطيبة أن يقول لهم : ربكم العليم بكم إن شاء عذبكم وإن شاء رحمكم ولا يصرح بأنهم من أهل النار فإن ذلك مما يهيج الشر مع أن الخاتمة مجهولة لا يعلمها إلا الله سبحانه ثم بين لرسوله أن لا يقسر الناس على الإسلام فما عليه إلا البلاغ والإنذار والله هو العليم بمن فى السموات والأرض ، فيختار لنبوته من يشاء ممن يراه أهلا لذلك ، وأولئك الأنبياء ليسوا سواء فى مراتب الفضل والكمال ، وأفضلهم محمد ﷺ وأمته .

قوله تعالى : ﴿ **وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن** ﴾ :

أى وقل لعبادى يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم : الكلام الأحسن للإقناع مع البعد عن الشتم والسب والأذى .

ونظير الآية قوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾[١] . وقوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾[٢] .

روى أن الآية نزلت فى عمر بن الخطاب ذلك أن رجلاً شتمه فسبه عمر وهم بقتله فكادت تثور فتنة فأنزل الله الآية .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إن الشيطان ينزغ بينهم** ﴾ :

أى إن الشيطان يفسد بين المؤمنين والمشركين ويهيج الشر بينهم ، فينتقل الحال من الكلام إلى الفعال ويقع الشر والمخاصمة ، ومن ثم نهى رسول الله ﷺ أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديده ، فإن الشيطان ينزغ فى يده فربما أصابه بها .

روى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (ولا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده فيقع فى حفرة من النار)[٣] .

وروى أيضا عن رجل من بنى سليط قال : أتيت النبى ﷺ وهو فى رفلة (جماعة) من الناس فسمعته يقول (والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله التقوى ها هنا ووضع يده على صدره)[٤] .

ثم بين سبب نزغ الشيطان للإنسان بقوله : ﴿ **إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا** ﴾ :

أى إن بين الشيطان والإنسان عداوة قديمة مستحكمة كما قال تعالى حكاية عن الشيطان (ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) وقال : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين)[٥] .

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(٢) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣١٧ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، وفى ٣ : ٤٩١ ، وفى ٤ : ٦٦ ، ٦٩ ، وفى ٥ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٧١ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ . والبخارى فى الإكراه : ٧ . ومسلم فى البر : ٣٢ . والترمذى فى البر : ١٨ .

(٥) الآية ١٦ من سورة الحشر .

ثم فسر سبحانه التى هى أحسن بما علمهم النَّصفة بقوله : ﴿ **ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم** ﴾ :

أى ربكم أيها القوم هو العليم بكم إن يشأ يرحمكم بتوفيقكم للإيمان والعمل الصالح يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلكم عن الإيمان فتموتوا على شرككم ، وفى هذا إيماء إلى أنه لا ينبغى للمؤمنين أن يحتقروا المشركين ولا أن يقطعوا بأنهم من أهل النار ويعيرّوهم بذلك فإن العاقبة مجهولة ولا يعلم الغيب إلا الله إلى أن ذلك مما يجر إلى توليد الضغينة فى النفوس بلا فائدة ولا داع يدعو إليها .

ثم وجه خطابه إلى أعظم الخلق ليكون من دونه أسوة له فقال : ﴿ **وما أرسلناك عليهم وكيلا** ﴾ :

أى وما أرسلناك أيها الرسول حفيظا ورقيباً تقسر الناس على ما يرضى الله وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً ، فدارهم ولا تغلظ عليهم ومر أصحابك بذلك فإن ذلك هو الذى يؤثر فى القلوب ويستهوى الأفئدة .

ثم انتقل من علمه تعالى بهم إلى علمه بجميع خلقه فقال : ﴿ **وربك أعلم بمن فى السموات والأرض** ﴾ : وبأحوالهم الظاهرة والباطنة فيختار منهم لنبوته والفقه فى دينه من يراه أهلاً لذلك ويفضل بعضهم على بعض لإحاطة علمه وواسع قدرته ، ونحو الآية قوله : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾[1] .

وفى هذا رد عليهم حين قالوا : يبعد كل البعد أن يكون يتيم ابن أبى طالب نبيا وأن يكون أولئك الجوعى العراة كصهيب وبلال وخباب وغيرهم صحابة دون الأكابر والصناديد من قريش .

وفى ذكر من فى السموات رد لمقالهم حين قالوا ﴿ لولا نزل علينا الملائكة ﴾ .

وفى ذكر من فى الأرض رد لمقالهم حين قالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[2] .

﴿ **ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض** ﴾ :

بما لهم من الفضائل النفسية والمزايا القدسية وإنزال الكتب السماوية ، فخصصنا كلا منهم بفضيلة وميزة ففضلنا إبراهيم باتخاذه خليلا ، وموسى بالكليم ، ومحمداً بالقرآن الذى أعجز البشر ، والإسراء والمعراج .

ونحو الآية قوله : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾[3] .

---

(١) الآية ١٤ من سورة الملك .

(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .

ولا خلاف فى أن أولى العزم منهم وهم الخمسة الذين ذكروا فى سورة الشورى فى قوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾[1]

أفضل من بقيتهم ولا خلاف فى أن محمداً ﷺ أفضلهم ثم إبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام .

﴿ **وآتينا داود زبورا** ﴾ :

أى إن تفضيل داود لم يكن بالملك بل كان بما آتاه الله من الكتاب وأفرده بالذكر لأنه كتب فى الزبور إن محمداً خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم كما قال تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون وهم محمد ﷺ وأمته .

قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

المفـــردات : ﴿ **الزعم** ﴾ : (بتثليث الزاى) القول المشكوك فى صدقه وقد يستعمل بمعنى الكذب . حتى قال ابن عباس : كل موضع فى كتاب الله ورد فيه (زعم) فهو كذب ، ﴿ **لا يملكون** ﴾ : أى لا يستطيعون ، ﴿ **كشف الضر** ﴾ : إزالته أو تحويله عنكم إلى غيركم ، ﴿ **يدعون** ﴾ : أى ينادون ، ﴿ **الوسيلة** ﴾ : القرب بالطاعة والعبادة ، ﴿ **محذورا** ﴾ : أى يحذره ويحترس منه كل أحد ، ﴿ **فى الكتاب** ﴾ : أى فى اللوح المحفوظ ، ﴿ **الآيات** ﴾ : ما اقترحته قريش من جعل الصفا ذهبا ، ﴿ **ومبصرة** ﴾ : أى ذات بصيرة لمن يتأملها ويتفكر فيها ، ﴿ **فظلموا بها** ﴾ : أى فكفروا بها وجحدوا ، ﴿ **أحاط بالناس** ﴾ : أى أحاطت بهم قدرته فلا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا ، ﴿ **والرؤيا** ﴾ : هى ما عاينه ﷺ ليلة أسرى به من العجائب ، ﴿ **والشجرة** ﴾ : هى شجرة الزقوم ، ﴿ **والطغيان** ﴾ : تجاوز الحد فى الفجور والضلال .

(١) الآية ١٣ من سورة الشورى .

المناسبــــــة

هذه الآيات عود على بدء فى تسفيه آراء المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة والجن والمسيح وعزيرا ، إذ رد عليهم بأن من تدعونهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ويخافون عذابه ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فادعونى وحدى ، لأنى أنا المالك لنفعكم وضركم دونهم .

ثم بين أن قرى الكافرين صائرة إما إلى الفناء والهلاك بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب دون ذلك من قتل كبرائها وتسليط المسلمين عليهم بالسبى واغتنام الأموال ، وأخذ الجزية .

ثم أردف ذلك ببيان أنه ما منعه من إرسال الآيات التى طلب مثلها الأولون كقولهم : (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً)[1] .

إلا أنه لو جاء بها ولم يؤمنوا لأصابهم عذاب الاستئصال ، كما أصاب من قبلهم ، أو لم ينظروا إلى ما أصاب ثمود حين كذبوا بآيات ربهم وعقروا الناقة .

ثم قفى على ذلك بأن الله حافظه من قومه وأنه سينصره ويؤيده .

ثم أتبع ذلك بأن أمر الإسراء كان فتنة للناس وامتحانا لإيمانهم كما كان ذكر شجرة الزقوم فى قوله : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾[2] .

ثم تلا هذا بذكر تماديهم فى العناد وأنه كلما خوفهم وأنذرهم ، ازدادوا تماديا وطغيانا ، فلو أنزل عليهم الآيات التى اقترحوها لم ينتفعوا بها ، ومن ثم أجل عذابهم إلى يوم الوقت المعلوم .

قوله تعالى : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً** ﴾ :

أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه ، حين ينزل الضر بكم من فقر ومرض ونحوها ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم ، إنهم لا يقدرون على دفع شيء من ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

روى أنه لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ انزل الله هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة** ﴾ :

أى هؤلاء الذين يدعوهم المشركون أربابا وينادونهم لكشف الضر عنهم ، يطلبون مجتهدين إلى ربهم ومالك أمرهم القرب إليه بالطاعة والقربة .

---

(١) الآية ٩٠ من سورة الإسراء .

(٢) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الدخان .

أخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (سلوا الله لى الوسيلة قالوا وما الوسيلة ؟ قال القرب من الله ثم قرأ هذه الآية)[١] .

﴿ **أيهم أقرب** ﴾ :

أى إن أقرب أولئك المعبودين إلى الله يدعوه يبتغى إليه الوسيلة والقرب منه .

وإذا كان العجز عن كشف الضر عنكم والافتقار إلى ربكم شأن أعلاهم وأدناهم فكيف تعبدونهم ؟

﴿ **ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ :

أى ويرجون بفعلهم للطاعة رحمته ويخافون بمخالفة أمره عذابه .

ثم ذكر العلة فى خوفهم من العذاب فقال : ﴿ **إن عذاب ربك كان محذورا** ﴾ : أى إن عذابه حقيق بأن يحذره كل أحد من الملائكة والأنبياء فضلا عن سواهما .

ثم ذكر مآل الدنيا وأهلها فقال : ﴿ **وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديداً** ﴾ :

أى وما من قرية من القرى التى ظلم أهلها بالكفر والمعاصى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء ومبيدوهم بالاستئصال قبل يوم القيامة ، أو معذبوها ببلاء من قتل بالسيف أو غير ذلك من صنوف العذاب ، بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال سبحانه عن الأمم الماضية : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٢] .

وقال : ﴿ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾[٣] وقال : ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾[٤] .

﴿ **كان ذلك فى الكتاب مسطورا** ﴾ :

أى كان ذلك مثبتاً فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ .

عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فقال ما أكتب قال اكتب المقدر وما هو كائن إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذى .

وكان كفار قريش يقولون يا محمد : إنك تزعم إنه كان قبلك أنبياء منهم من سُخّرت له الريح ، ومنهم من كان يحيى الموتى ، فإن سرك أن نؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون** ﴾ :

(١) أخرجه الترمذى فى المناقب : ١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٦٥ .

(٢) الآية ١١٨ من سورة النحل .

(٣) الآية ٥ من سورة الطلاق .

(٤) الآية ٨ من سورة الطلاق

أى إنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم لا ستحقوا عذاب الاستئصال ، كما هو سنتنا فى الأمم السالفة ، لكن هذا العذاب على هذه الأمة لا يكون ، لأن الله يعلم أن فيهم من سيؤمنون أو يؤمن أولادهم فلم يجبهم إلى ما طلبوا ، ولم يظهر لهم تلك المعجزات .

والخلاصـــة :

إنه ما منعنا من إرسال الآية التى سألوها إلا تكذيب الأولين بمثلها فإن أرسلنا الآيات وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله فى عباده .

روى احمد عن ابن عباس قال : « سأل أهل مكة النبى ﷺ ان يجعل لهم الصفا ذهبا وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا فقيل له إن شئت أن نستأنى بهم وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم قال بل نستأنى بهم »[1] وأنزل الله ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون** ﴾ :

وأخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع بن أنس قال : « قال الناس لرسول الله ﷺ : لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون فقال رسول الله ﷺ إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم فإن عصيتم هلكتم فقالوا لا نريدها » .

ثم بين أن الآيات التى التمسوها هى مثل آية ثمود وقد أوتوها واضحة بينة فكفروا بها فاستحقوا العذاب فكيف يتمنى مثلها هؤلاء على سبيل الاقتراح كما قال : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾[2] .

أى وقد سألت ثمود من قبل قومك الآيات فآتيناها ما سألت وجعلنا لها الناقة حجة واضحة دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذى أجيب دعاؤه فيها فكفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها فأبادهم الله وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

﴿ **وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً** ﴾ :

أى إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون فيراجعوا .

ذكر المؤرخون ان الكوفة رُجفت (زلزلت) فى عهد ابن مسعود فقال : أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه .

وروى إن المدينة زلزلت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرات فقال عمر : أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٢٥٨ .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .

وفى الحديث الصحيح (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله يخوف بهما عباده فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره) ثم قال : يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً)[١] .

ثم قال سبحانه محرضا رسوله على إبلاغ رسالته ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس .

﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ :

أى واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك هو القادر على عباده ، وهم فى قبضته وتحت قهره وغلبة ، فلا يقدرون على أمر إلا بقضائه وقدره ، وقد عصمك من أعدائك فلا يقدرون على إيصال الأذى إليك كما قال : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[٢] .

والخلاصـــة : إن الله ناصرك ومؤيدك حتى تبلغ رسالته وتظهر دينه .

قال الحسن : حال بينهم وبين أن يقتلوه ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[٣] .

﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ :

أى وما جعلنا الرؤيا التى أريتها ليلة الإسراء إلا امتحانا واختباراً للناس ، فأنكرها قوم وكذبوا بها ، وكفر كثير ممن كان قد آمن به ، وازداد المخلصون إيمانا .

روى البخارى فى التفسير عن ابن عباس إنها رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء .

وهو قول سعيد بن جبير ومسروق وقتادة والعرب تقول رأيته بعينى رؤية ورؤيا . **﴿ والشجرة الملعونة فى القرآن ﴾ :**

أى وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس ، فإنهم حين سمعوا : ﴿ إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم ﴾[٤] اختلفوا فقوم ازدادوا إيماناً ، وقوم ازدادوا كفرا كأبى جهل إذ قال : إن ابن أبى كبشة (يعني النبى ﷺ) توعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنها تنبت شجرة وتعلمون ان النار تحرق الشجر . قال عبد الله بن الزبعرى : أن محمداً يخوفنا بالزقوم ، وما الزقوم إلا التمر والزبد ، فتزقموا منه وجعل يأكل من هذا بهذا .

---

(١) أخرجه البخارى فى اللباس : ٢ ، وفى الكسوف : ١ ، ٢ ، ٤ - ٦ . ومسلم فى الكسوف : ١ - ٣ ، ٦ ، ١٠ . وأبو داود فى الاستقصاء : ٣ ، ٤ ، ١١ . والنسائى فى الكسوف : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . وابن ماجة فى المقدمة : ٢٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٩٨ . وفى ٢ : ١٠٩ ، ١١٨ .

(٢) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

(٤) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الدخان .

وقد فات هؤلاء أن فى الدنيا أشياء كثيرة لا تحرقها النار ، فهناك نوع من الحرير يسمى بالحرير الصخرى لا تؤثر فيه النار ، بل هو يزداد إذا لامسها نظافة ، ومن ثم يلبسه رجال المطافىء فى الدول المتمدينة .

وكم فى الأرض من عجائب ، وكم فى العوالم الأخرى من مثلها ، فالأرض مملوءة ناراً وما خلص من النار إلا قشرتها التى نعيش عليها ، وما من شجر أو حجر إلا وفيه نار ، والماء نفسه مادة نارية فنحو $\frac{8}{9}$ منه اكسوجين وهو مادة تشتعل سريعا ، والتسع أيدروجين ، فأرضنا نار ، وماؤنا نار ، وأشجارنا مليئة بالنار ، وهذا العالم الذى نسكنه تتخلله النار .

والخلاصـــة :

إن هؤلاء المشركين فُتنوا بالرؤيا وفتنوا بالشجرة ، وقد وصفت هذه الشجرة بكونها ملعونة ولا ذنب لها للعن الكفار الذين يأكلونها توسعا فى الاستعمال ، وهو كثير فى كلام العرب .

﴿ ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا ﴾ :

أى ونخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة فما يزيدهم التخويف إلا تماديا فى الطغيان والضلال ، فلو أننا أنزلنا عليهم الآيات التى اقترحوها لم يزدادوا بها إلا تمردا وعنادا واستكبارا فى الأرض ، وفعل بهم ما فعل بأمثالهم من الأمم الغابرة من عذاب الاستئصال ، لكن قد سبقت كلمتنا بتأخير العذاب عنهم إلى حلول الطاقة الكبرى .

والكلام مسوق لتسليته ﷺ على ما عسى أن يعتريه من عدم الإجابة إلى إنزال الآيات المقترحة ، لمخالفتها للحكمة من الحزن لطعن الكفار ، إذ ربما يقولون لو كنت رسولا حقاً لأتيت بمثل هذه المعجزات التى أتى بها من قبلك الأنبياء .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَ ٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

المفـــردات : ﴿ **أرأيتك** ﴾ : أى أخبرنى هذا الذى كرمت على : أى هذا الذى كرمته على . قاله احتقاراً واستغفاراً لشأنه ، ﴿ **لأحتنكن** ﴾ : من قولهم حنك الدابة واحتنكها : إذا جعل فى

حنكها الأسفل حبلا يقودها به كأنه يملكها كما يملك الفارس فرسه بلجامه ، ﴿ **اذهب** ﴾ : أى أمض لشأنك فقد خليتك وما سولت لك نفسك ، ﴿ **موفوراً** ﴾ : أى مكملاً لا يدخر منه شىء من قولهم وفر لصاحبك غرضه فرة : أى أكمله له قال :

ومــن يجعــل المعــروف مــن دون عرضــه
يفــره ومــن لا يتــق الشتــم يشتــم

ويقال أفزه الخوف واستنفزه : أى ازعجه واستخفه ، ﴿ **بصوتك** ﴾ : أى بدعائك إلى معصية الله ، ﴿ **واجلب عليهم** ﴾ : أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ويقال أجلب على العدو إجلابا إذا جمع عليه الخيول (والخيل هنا الفرسان) كما جاء فى قوله ﷺ فى بعض غزواته لأصحابه : (يا خيل الله أركبى)[1] ، ﴿ **والرّجل** ﴾ : واحده راجل كركب وراكب ، ﴿ **والغرور** ﴾ : تزيين الباطل بما يظن انه حق ، ﴿ **والوكيل** ﴾ : الحافظ والرقيب .

المناسبــــــة

بعد أن ذكر سبحانه أن الرسول ﷺ كان فى محنة من قومه إذ كذبوه وتوعدوه حين حدثهم بالإسراء وشجرة الزقوم ، وأنهم نازعوه وعاندوه واقترحوا عليه الآيات حسداً على ما آتاه الله من النبوة ، وكبراً عن أن ينقادوا إلى الحق .

بينّ أن هذا ليس ببدع من قومك ، فقد لاقى كثير من الأنبياء من أهل زمانهم مثل مالاقيت ، الا ترى أن آدم عليه السلام كان فى محنة شديدة من إبليس ، وأن الكبر والحسد هما اللذان حملاه على الخروج من الإيمان ، والدخول فى الكفر ، والحسد بلية قديمة ، ومحنة عظيمة للخلق .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً** ﴾

ذكر سبحانه قصص آدم فى سبع سور : البقرة . الأعراف . الحجر . الإسراء . الكهف . طه . صَ .

وفى هذا المقام يخبر ربنا تبارك وتعالى نبيه ومصطفاه فيقول : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾

أى اذكر وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، فقد منعه الحسد والكبر أن يمتثل أمر الله فتكبر على آدم .

قال تعالى : ﴿ إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾[١] وقال : ﴿ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾[٢] . وقال ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾[٣].

ماذا قال إبليس لربه : ﴿ **قال أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾ .

وكان فى هذا الموقف يجعل من العناصر مقاييس يقيس بها القيم والمثل ، ونسى أن العناصر لاقيمة لها فى هذا المقام . فالإنسان حيث يثبت لاحيث ينبت ، وحيث يوجد ، لا حيث يولد .

الناس من جهة التصوير أكفاء ... أبوهـم آدم والأم حـواء
فإن يكن لهم فى أصلهم شرف ... يتفاخرون به فالطين والمـاء

إن الميزان العدل والقسطاط المستقيم الذى وزن به الحكم العدل هو التقوى فلم يقل تعالى إن أكرمكم عند الله أقواكم ولا أغناكم ، إنما قال : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[٤] فالتقوى هى السلاح الأقوى :

ثم قال إبليس بعد ذلك لرب العزة : ﴿ **قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ :

كلمة قالها على سبيل التعجب : أى أخبرنى أهذا الذى كرمته علىَّ وأنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتوين ذريته بالضلال والإغواء ، و ﴿ لأ قعدنَّ لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين ﴾[٥].

لكنه استثنى القليل من ذرية آدم . قال تعالى : ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[٦] . فماذا قال له مولانا ؟

﴿ **قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا** ﴾ :

وهذا كقوله تعالى : ﴿ قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾[٧] .

وهنا يقول له ربنا ﴿ **اذهب** ﴾ : أى امض لشأنك فالحق واضح ، والطريق لائح والمنادى صائح ﴿ **فمن تبعك منهم** ﴾ بمخالفة أمرى وسلك طريق الغواية فلأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . وهى جزاؤكم لإغوائك لهم ، واتباعهم لك جزاءاً موفورا .

(١) الآية ٣٤ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٣١ من سورة الحجر .
(٣) الآية ٥٠ من سورة الكهف .
(٤) الآية ١٣ من سورة الحجرات .
(٥) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعراف .
(٦) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ من سورة ص .
(٧) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة ص .

لقد حذَّر الله أبناء آدم من هذا الذئب فهو أشد علينا من ذئب الغنم ، قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم أ لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾[٢].

وقال تبارك اسمه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[٣].

قال له رب العزة : ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورَجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا** ﴾ .

قال ابن عباس فى قوله ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك** ﴾ قال : كل داع دعا إلى معصية الله عزَّ وجلَّ .

وقال مجاهد : باللهو والغناء أى استخفهم بذلك .

وقال قتادة - اختاره ابن جرير - فى قوله تعالى ﴿ **وأجلب عليهم بخيلك ورجلك** ﴾ : يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ، فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصحب جمع صاحب ، ومعناه : تسلط عليهم بكل ماتقدر عليه وهذا أمر قدرى كقوله تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾[٤] أى تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا ، وتسوقهم إليها سوقا .

وقال ابن عباس ومجاهد فى قوله : ﴿ **وأجلب عليهم بخيلك ورجلك** ﴾ قال : كل راكب وماش فى معصية الله . »

وقال قتادة : إن له خيلا ورجالا من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه تقول العرب : أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه .

وقوله تعالى : ﴿ **وشاركهم فى الأموال والأولاد** ﴾ :

قال ابن عباس ومجاهد : هو ما أمرهم به من انفاق الأموال فى معاصى الله تعالى .

وقال عطاء : هو الربا .

وقال الحسن : هو جمعها من خبيث وإنفاقها فى حرام .

(١) الآيتان : ٦٠ ، ٦٣ من سورة يس
(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقره
(٣) الآية ٦ من سورة فاطر
(٤) الآية ٨٣ من سورة مريم

وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أما مشاركته إياهم فى أموالهم فهو ماحرموه من أنعامهم يعنى من البحائر والسوائب ونحوها .

وقال ابن جرير : والأولى أن يقال إن الآية تعم ذلك كله .

وقوله : ﴿ **والأولاد** ﴾ قال العوفى عن ابن عباس ومجاهد والضحاك : يعنى أولاد الزنا .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفها بغير علم .

وقال قتادة عن الحسن البصرى : قد والله شاركهم فى الأموال والأولاد مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام وجزءوا من أموالهم جزءا للشيطان .

وقال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميعه بما يكرهه الله ، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله ، أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به . أو فيه ، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه من ولد ، ذلك الولد له أو منه ، لأن الله لم يخصص بقوله ﴿ **وشاركهم فى الأموال والأولاد** ﴾ فكل ماعصى الله فيه أو به أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة .

فقد ثبت فى صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله عز وجل : [إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم] (١).

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال : باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبدا »(٢).

وقوله تعالى : ﴿ **وعدهم** ﴾ من يستخفهم ويغرهم من المواعيد الباطلة ، كوعدهم بأن لا جنة ولا نار ، أو بأن الآلهة تشفع لهم ، أو بالكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، مع ماثبت من قوله ﷺ : « يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ماشئت لا أغنى عنك من الله شيئا »(٣)

أو بالتسويف فى التوبة ، أو بإيثار العاجل على الآجل أو نحو ذلك .

وخلاصة ذلك : إنه يغويهم بأن لاضرر من فعل هذه المعاصى ، فإنه لا جنة ولا نار ، ولا حياة بعد هذه الحياة ، وإنها سبيل اللذة والسرور ، ولا حياة للإنسان إلا بها فتفويتها غبن وخسران ، وينفرهم من

---

(١) أخرجه مسلم فى الجنة : ٦٣ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٦٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ١١ ، وفى الوضوء : ٨ وفى النكاح : ٦٦ ، وفى الدعوات : ٥٥ . ومسلم فى الطلاق : ٦ . وأبو داود فى النكاح : ٤٥ . والترمذى فى النكاح : ٦ . وابن ماجه فى النكاح : ٢٧ . والدرامى فى النكاح : ٢٩ . والإمام أحمد فى : فى ١ : ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٤٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ .

(٣) أخرجه الدرامى فى الرقاق : ٢٣ .

الطاعة بأن لا فائدة فيها ، إذ لارجعة بعد هذه الحياة ، فهى عبث محض ، فهذه بعض تلبيسات الشيطان وهذه خدعة .

قوله تعالى : ﴿ **وما يعدهم الشيطان إلا غرورا** ﴾ : لأنه لايغنى عنهم من عقاب الله شيئا إذا نزل بهم ، فمواعيده خدعة يزينها لهم ويُلبسها ثوب الحق ، كما قال إبليس إذ حصحص الحق يوم يقضى ربك بالحق : ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ﴾[1].

ثم نفى الله تعالى سلطان الشيطان عن عباده المخلصين فقال : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا** ﴾

وذلك كقوله جلّ شأنه : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾[2].

فسبحانك اللهم شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا ، قطرة من فيض وجودك تملأ الأرض رِيًّا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا .

يارب حبك فى دمى وكيانى نور أغر يذوب فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

قوله تعالى : ﴿ **وكفى بربك وكيلا** ﴾ :

فنعم المولى ونعم النصير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وكفى بربك هاديا ونصيرا ، وكفى به شهيدا ، وحسيبا ، وكفيلا .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن لينضى شياطينه كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر »[3] ينضى أى يأخذ بناصيته ويقهره .

(١) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .
(٢) الآيات ٩٩ ، ١٠٠ من سورة النحل .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٨٠ .

نـداء الفطرة

﴿ رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

المفردات : ﴿ **يزجى** ﴾ : أى يسوق حينا بعد حين ، والمراد أنه يجريه ﴿ **وفضله** ﴾ : هو رزقه . والمراد ﴿ **بالضر** ﴾ : خوف الغرق بتقاذف الأمواج ، ﴿ **وضل** ﴾ : غاب عن ذكركم ، ﴿ **والخسف** ﴾ : والخسوف : دخول الشى فى الشيء ؛ يقال عين خاسفة إذا غابت حدقتها فى الرأس ، وعين من الماء خاسفة : أى غائرة الماء وخسفت الشمس : أى احتجبت ، وكأنها غارت فى السحاب ﴿ **والحاصب** ﴾ : الريح التى ترمى بالحصباء والحجارة ﴿ **والقاصف** ﴾ : الريح تقصف الشجر وتكسره . ﴿ **والتبيع** ﴾ : النصير والمعين . ﴿ **وحملته على فرس** ﴾ : أى أعطيته إياها ليركبها .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى موقف إبليس من آدم وكيف حسده وتكبّر عليه وأبى السجود له ، وبيّن ما يكيد به للبشر بصوته وخيله ورجله ومشاركته إياهم فى الأموال والأولاد ، ووعده لهم بالأمانى والخداع . بيّن سبحانه أن من رحمته التى وسعت كل شيء أنه نفى سلطانه عن عباده المؤمنين .

وبيّن أن من صور رحمته بهم أيضا ، أنه هو الذى يسوق لهم الفلك فى البحر ليبتغوا من فضله ، فتسير حياتهم برا وبحرا سيرا لهم فيه مايقوم بمعاشهم .

قال تعالى : ﴿ **ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما** ﴾ :

وهذا كما قال جلّ شأنه : ﴿ وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[1] .

والبحر خلق عظيم الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود ، وقد بيّن الله تعالى حَال قوم إذا مسّهم الضر فى البحر نسوا كل معبود سوى الله ، فلما كشف الله عنهم الضر

(١) الآية ١٢ من سورة فاطر .

أعرضوا عن الله وتولوا عن وحدانيته . قال عزَّ من قائل : ﴿ **وإذا مسكم الضر فى البحر ضلَّ من تدعون إلا إيَّاه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا** ﴾ :

لما ذهب عكرمة بن أبى جهل فارا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هاربا فركب فى البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لايغنى عنكم إلا أن تدعو الله وحده ، فقال عكرمة فى نفسه : والله إن كان لاينفع فى البحر غيره فإنه لاينفع فى البر غيره ، اللهم لك على عهد لئن أخرجتنى منه لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنه رؤوفا رحيما ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضى الله عنه وأرضاه .

وقوله تعالى : ﴿ **فلما نجاكم إلى البر أعرضتم** ﴾ : أى نسيتم ما عرفتم من توحيده فى البحر ، وأعرضتم عن دعائه وحده لاشريك له . ﴿ **وكان الإنسان كفورا** ﴾ أى سجيته هذا ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾[1].

وكما قال تعالى : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[2].

قوله تعالى : ﴿ **أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا** ﴾ :

يا من أعرضتم عن توحيد الله وكفرتم به بعد أن نجاكم إلى البر هل أمنتم من فى السماء أن يخسف بكم جانب البر ، أو أن يرسل عليكم حاصبا من حجارة ، ثم إنكم لن تجدوا وكيلا غيره تكلون إليه أمركم .

قال تعالى : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل مايشاء ﴾[3].

ثم هل أمنتم بعد نجاتكم من الغرق أن يعيدكم الله فى البحر مرة أخرى ، ويرسل عليكم ريحا عاصفا فيغرقكم بما كفرتم ، إنه إن فعل بكم ذلك لن تجدوا لكم ناصرا من دون الله ، ولن تجدوا لكم تبيعا .

---

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

(٢) الآية ٦٥ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ١٨ من سورة الحج .

قال جل شأنه : ﴿ **أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا** ﴾ :

إن عليكم كما عرفتم الله فى الشدة فدعوتموه وحده أن تعرفوه فى الرخاء فتثبتوا على توحيده ، فهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وهو الذى أسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها . إن الإنسان لظلوم كفّار ﴾(١).

ومن مظاهر نعمه سبحانه عليكم يابنى آدم أنه كرَّمكم وحملكم فى البر والبحر ورزقكم من الطيبات ، وفضَّلكم على كثير من خلقه ، فشكر المنعم واجب .

قال تعالى : ﴿ **ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ :

يا خالق الكون فى عز وتمكين ... وكل أمر جرى بالكاف والنون

يامن لطفت بحالى قبل تكوينى ... لاتجعل النار يوم الحشر تكوينى

﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾(٢) .

إن من مظاهر تكريم الله تعالى لابن آدم أنه خلقه على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾(٣) .

فهو يمشى قائما منتصبا على رجليه ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه وجعل له سمعا وبصرا وفؤادا يفقه بذلك كله وينتفع به ، ويفرق بين الأشياء ، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدينية والدنيوية ، وحملناهم فى البر أى على الدواب من الأنعام والخيل والبغال وفى البحر أيضا على السفن الكبار والصغار ، ورزقناهم من الطيبات أى من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يضعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحى ، وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا ، أى من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة ، قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم قال : (قالت الملائكة يا ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون منها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا الآخرة . فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان) .

---

(١) الآية ٣٤ من سورة ابراهيم .
(٢) الآية ١٩ من سورة النمل .
(٣) الآية ٤ من سورة التين .

وقد روى ابن عساكر بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : (إن الملائكة قالوا : ربنا خلقتنا وخلقت بنى آدم ، وجعلتهم يأكلون الطعام ، ويشربون الشراب ، ويلبسون الثياب ، ويتزوجون النساء ، ويركبون الدواب ، ينامون ويستريحون ، ولم تجعل لنا من ذلك شيئا ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة . فقال الله عزّ وجلّ : لا أجعل من خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى كمن قلت له كن فكان) .

وقال الطبرانى بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : (ماشيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم) قيل يا رسول الله ولا الملائكة . قال : (ولا الملائكة . الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر) .

من مشاهد القيامة وتوجيهات إلٰهية

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

المفردات : ﴿ **إمامهم** ﴾ : أى كتابهم فهو كقوله : ﴿ وكل شىء أحصيناه فى إمام

مبين ﴾[1]. ﴿ **الفتيل** ﴾ : الخيط المستطيل فى شق النواة وبه يضرب المثل فى الشىء الحقير التافه ومثله النقير والقطمير . ﴿ **أعمى** ﴾ : أى اعمى البصيرة عن حجة الله والركون إلى الشىء : الميل إلى ركن منه ﴿ **ضعف الحياة** ﴾ : أى عذابا مضاعفا فى الحياة الدنيا . ﴿ **وضعف الممات** ﴾ : أى عذابا مضاعفا فى الممات فى القبر وبعد البعث . ﴿ **ونصيرا** ﴾ : أى معينا يدفع عنك العذاب . ﴿ **لايلبثون** ﴾ : أى لايبقون ﴿ **خلافك** ﴾ : أى بعدك ﴿ **سنة من قد أرسلنا** ﴾ : أى سننا بك سنه الرسل قبلك ﴿ **تحويلا** ﴾ : أى تغييرا . ﴿ **دلوك الشمس** ﴾ : زوالها عن دائرة نصف النهار ﴿ **الغسق** ﴾ : شدة الظلمة . ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾ : أى صلاة الصبح أو القرآن الذى يتلى فجراً . ﴿ **كان مشهودا** ﴾ : أى تشهد شواهد القدرة وروائع الحكمة وبهجة العالم العلوى والسفلى ؛ فمن ظلام حالك ازالة ضوء ساطع ونور باهر ومن نوم وخمود إلى يقظة وحركة وسعى إلى الأرزاق .

سبحان الواحد الخلاق وهل هناك منظر أجمل فى نظر الرائى من ظهور ذلك النور ينفلت من خلال الظلام الدامى يدفعه بقوة ليضىء العالم بجماله ويقظة النوام وحركتهم على ظهر البسيطة ، وقد كانوا فى سكون ، فهى حياة متجددة بعد موت وغيبوبة للحواس . ﴿ **التهجد** ﴾ : الاستيقاظ من النوم للصلاة ﴿ **نافلة** ﴾ : أى صلاة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة عليك . ﴿ **المقام المحمود** ﴾ : مقام الشفاعة العظمى حين فصل القضاء حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه ﷺ . ﴿ **السلطان** ﴾ : الحجة البينة . ﴿ **والنصير** ﴾ : الناصر والمعين . ﴿ **زهق** ﴾ : أى زال واضمحل . ﴿ **نأى بجانبه** ﴾ : أى لوى عطفه عن الطاعة وولاها ظهره . ﴿ **وشاكلته** ﴾ : أى مذهب وطريقه التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال . ﴿ **ويئوسا** ﴾ : أى شديد اليأس والقنوط من رحمة الله . ﴿ **وأهدى سبيلا** ﴾ : أى أسد طريقا وأقوم منهجا .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر الله تعالى أحوال بنى آدم فى الدنيا ، وذكر أنه أكرمهم على كثير من خلقه ، وفضلهم عليهم تفضيلا ، فصل فى هذه الآيات تفاوت أحوالهم فى الآخرة مع شرح أحوال السعداء ، ثم أردفه مايجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال ، والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس ،

ثم قفّى على ذلك ببيان أن سنته قد جرت بان الأمم التى تلجىء رسلها إلى الخروج من أرضها ، لابد أن يصيبها الوبال والنكال ،

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى كيد الكفار واستفزازهم لرسول الله ﷺ ، ليخرجوه من أرضه ، وسلاه بما سلاه به أمره بالإقبال على ربه بعبادته لينصره عليهم ولا يبالى بسعيهم ولا يلتفت إليهم ، فإنه سبحانه يدفع مكرهم وشرهم ، ويجعل يده فوق أيديهم ، ودينه عاليا على أديانهم ، ثم وعده بما يغبطه عليه الخلق أجمعون من المقام المحمود .

(١) الآية ١٢ من سورة يس .

ثم بين أن ما أنزل عليه من كتاب ربه فيه الشفاء للقلوب من الأدواء النفسية والأمراض الاعتقادية ، كما أنه يزيد الكافرين خسارة وضلالا ، لأنه كلما نزلت عليه آية ازدادوا بها كفرا وعتوا .

قوله تعالى :

﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا * ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ :

قال مجاهد وقتاده : أى بنبيهم

وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط ﴾[١].

وقال بعض السلف : هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث ، لأن إمامهم النبى ﷺ .

وقال ابن زيد : بكتابهم الذى أنزل على نبيهم من التشريع ، واختاره ابن جرير :

عن ابن عباس فى قوله ﴿ **يوم ندعوا كل أناس بإمامهم** ﴾ :

أى بكتاب أعمالهم . وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى : ﴿ وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ﴾[٢]

وقال تعالى : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴾[٣]

ويحتمل إن المراد بإمامهم أى كل قوم بمن ياتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾[٤].

وفى الصحيحين (لتتبع كل أمة ما كانت تعبد من كان يعبد الطواغيت الطواغيت)[٥] . الحديث .

وقال تعالى : ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون ﴾[٦].

وهذا لاينافى أن يجاء بالنبى إذا حكم الله بين أمته ، فإنه لابد أن يكون شاهدا على أمته بأعمالها ، كقوله تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ﴾[٧].

---

(١) الآية ٤٧ من سورة يونس .

(٢) الآية ١٢ من سورة يس .

(٣) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

(٤) الآية ٤١ من سورة القصص .

(٥) الآية أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، وفى الرقاق : ٥٢ . ومسلم فى الإيمان : ٢٩٩ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٧٥ ، ٢٩٣ ، ٥٣٤ .

(٦) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الجاثية .

(٧) الآية ٧٠ من سورة الزمر .

وقوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾[١].

ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال ولهذا قال تعالى : ﴿ **يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم** ﴾ .

أى من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته ، كقوله : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه * فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يظلمون فتيلا** ﴾ الفتيل هو الخيط المستطيل فى شق النواة .

روى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قول الله تعالى : ﴿ **يوم ندعوا كل أناس بإمامهم** ﴾ قال : (يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له فى جسمه ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون : اللهم أتنا بهذا ، وبارك لنا فى هذا . فيأتيهم فيقول لهم : أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا . وأما الكافر فيسودّ وجهه ، ويمد له فى جسمه ، ويراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من هذا ، أو من شر هذا ، اللهم لاتأتنا به . فيأتيهم فيقولون : اللهم أخزه . فيقول : أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا) .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن كان فى هذه أعمى** ﴾ : قال ابن عباس ومجاهد وقتاده وابن زيد : ﴿ **ومن كان فى هذه** ﴾ أى فى الحياة الدنيا ﴿ **أعمى** ﴾ أى عن حجة الله وآياته وبيناته ﴿ **فهو فى الآخرة أعمى** ﴾ أى كذلك يكون .

﴿ **وأضل سبيلا** ﴾ : أى وأضل منه كما كان فى الدنيا عياذاً بالله من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا * وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لايلبثون خلافك إلا قليلا * سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولاتجد لسنتنا تحويلا** ﴾ .

يخبر تعالى عن تأييده ،لرسوله صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولى أمره ونصره ، وأنه لايكله إلى أحد من خلقه ، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه فى مشارق الأرض ومغاربها .

قوله تعالى : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لايلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا** ﴾ :

---

(١) الآية ٤١ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٩ — ٢٥ من سورة الحاقة .

نزلت فى كفار قريش هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم ، فتوعدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرا ، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصفا حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ **سنة من قد أرسلنا** ﴾.

أى وهكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا ، وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم ، يأتيهم العذاب ، ولولا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم فى الدنيا مالا قبل لأحد به. ولهذا قال تعالى : ﴿ وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾[1].

قوله تعالى : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً * ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ .

عن جابر بن عبد الله قال : (دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندى ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبى ﷺ فقال : أخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس ﴾[2].

فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس .

فمن قوله : ﴿ **لدلوك الشمس إلى غسق الليل** ﴾ وهو ظلامه ، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

وقوله : ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾ يعنى صلاة الفجر ، وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواترا من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفاً عن سلف ، وقرنا بعد قرن .

﴿ **إن قرآن الفجر كان مشهودا** ﴾ : قال الأعمش عن إبراهيم ، عن ابن مسعود وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنهما : عن النبى ﷺ فى هذه الآية ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ قال : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار .

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال (فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر)[3].

يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ .

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الأنفال .

(٢) الآية أخرجه الدرامى فى المقدمة : ٠٧ وابن ماجه فى الإقامة : ١٤٨. والإمام أحمد فى ٣ : ٣٩٨ ، وفى ٤ : ٣٤٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأذان : ٣١ ، وفى الصلاة : ٨٧ ، وفى تفسير سورة ١٧ : ١٠. والترمذى فى الصلاة : ٤٧. والدرامى فى الصلاة : ٥٦. والإمام أحمد فى ١ : ٣٧٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥٢ ، ٤٦٥ ، وفى ٢ : ١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٥٢ ، ٢٦٦ ، ٥٠١ ، ٥٢٠ .

قال الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ قال : (تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار)[1] رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

وفى لفظ فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (**يتعاقبون فيكم** ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون . وقال عبد الله بن سعود يجتمع الحرسان فى صلاة الفجر فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء)[2].

قوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك** ﴾ : هذا أمر بقيام الليل بعد أن أمره تعالى بأداء المكتوبة .

وقد روى الإمام مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه سئل أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال (صلاة الليل)[3] ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل فإن التهجد ماكان بعد نوم .

وقوله تعالى : ﴿ **نافلة لك** ﴾ : قيل أنه مخصوص بوجوب – وحده ، فجعلوا قيام الليل واجبا فى حقه دون الأمة ، رواه العوفى عن ابن عباس وهو أحد قولى العلماء ، واحد قولى الشافعى رحمه الله .

وقيل إنما جعل قيام الليل فى حقه نافلة على الخصوص ، لأنه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التى عليه .

قال الفقهاء فى قيام الليل

١ – فضله :

أمر الله به نبيه ﷺ ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ :

١ ــ وهذا الأمر وإن كان خاصا برسول الله ﷺ إلا أنه عامة المسلمين يدخلون فيه بحكم أنهم مطالبون بالاقتداء به ﷺ .

٢ ــ يبين ان المحافظين على قيامه هم المحسنون المستحقون لخيره ورحمته ، فقال : ﴿ إن المتقين فى

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ٠٥ وابن ماجه فى الصلاة : ٢ ، وفى الجنائز : ٠٦٥ والإمام أحمد فى ٢ : ٤٧٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى المواقيت : ١٦ ، وفى بدء الخلق : ٦ ، وفى التوحيد : ٢٣ ، ٠٣٣ ومسلم فى المساجد : ٠٢١٠ والنسائى فى الصلاة : ٠٢١ والإمام مالك فى السفر :٠٨٢ والإمام أحمد فى :٢٥٧ ، ٣١٢ ، ٤٨٦ .

(٣) أخرجه مسلم فى الصيام : ٠٢٠٣ والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٣ ، ٣٢٩ .

جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا من الليل مايهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾[١] .

٣ ـ ومدحهم وأثنى عليهم ونظمهم فى جملة عبادة الأبرار فقال : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما * والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما﴾[٢] .

٤ ـ وشهد لهم بالإيمان بآياته فقال ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[٣] .

٥ ـ ونفى التسوية بينهم وبين غيرهم ممن لم يتصف بوصفهم فقال : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾[٤] .

هذا بعض ماجاء فى كتاب الله ، أما ماجاء فى سنة رسول الله ﷺ فهاك بعضه :

١ ـ قال عبد الله بن سلام ! أول ماقدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت ممن جاءه ، فلما تأملت وجهه استبنته ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب قال : فكان أول ماسمعت من كلامه أن قال : (يأأيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلو الجنة بسلام)[٥] . رواه الحاكم وأبو ماجه والترمذى وقال حسن صحيح .

٢ ـ وقال سلمان الفارسى ! قال رسول الله ﷺ (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، ومقربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم ، ومطردة للداء عن الجسد)[٦] .

٣ ـ وقال سهل بن سعد ! جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : (يامحمد عش ماشئت فإنك ميت ، وأعمل ماشئت فإنك مجزى به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، وأعلم أن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس) .

٤ ـ وعن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : (ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم : الذى إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فإما أن يقتل وإما أن ينصره الله عز وجل

(١) الآيات ١٥-١٨ من سورة الذاريات .

(٢) الآيتان ٦٣ ، ٦٤ من سورة الفرقان .

(٣) الآيات ١٥-١٧ من سورة السجدة .

(٤) الآية ٩ من سورة الزمر .

(٥) أخرجه الترمذى فى الأطعمة : ٤٥ ، وفى القيامة : ٥٦ . وابن ماجة فى المقدمة : ٩ ، وفى الأدب : ١١ . والإمام أحمد فى ١ : ١٦٥ ، ١٦٧ .

(٦) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٠١ .

ويكفيه ، فيقول : انظروا إلى عبدى هذا كيف صبر لى بنفسه ، والذى له إمرأة حسنة وفراش لين حسن فيقوم من الليل فيقول : يذر شهوته ويذكرنى ، ولو شاء رقد ، والذى إذا كان فى سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر فى ضراء وسراء) .

٢ – آدابه :

يسن لمن أراد قيام الليل ما يأتى :

١ – أن ينوى عند نومه قيام الليل . فعن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال : (من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم فيصلى من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كتب له مانوى ، وكان نومه صدقة عليه من ربه)[١]. رواه النسائى وابن ماجه بسند صحيح .

٢ – أن يمسح النوم عن وجهه عند الاستيقاظ ، ويتسوك ، وينظر إلى السماء ، ثم يدعو بما جاء عن رسول الله ﷺ فيقول : (لا إله إلا أنت سبحانك ، أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولاتزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا . وإليه النشور[٢]. ثم يقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾[٣] إلى آخر السورة . ثم يقول : اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك الحق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فأغفرلى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت الله لا إله إلا أنت)[٤].

٣ – ثم يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين ثم يصلى بعدهما ماشاء فعن عائشة قالت : (كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يصلى افتتح صلاته بركعتين خفيفتين)[٥].

---

(١) أخرجه أبو داود فى التطوع : ٢٠ . والنسائى فى الليل : ٦١ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد : ١٣ ، وفى الدعوات : ٧ ، ١٥ . ومسلم فى الذكر : ٥٩ . وابن ماجه فى الدعاء : ١٦ والدارمى فى الاستئذان : ٥٣ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، وفى ٥ : ١٥٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧ .

(٣) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران .

(٤) أخرجه البخارى فى التهجد : ١ . ومسلم فى المسافرين : ١٩٩ ، ٢٠١ . وأبو داود فى الصلاة : ١١٩ . والنسائى فى التطبيق : ١٣ ، ١٤ ، ٧–٦٩ . وابن ماجه فى الإقامة : ٧٠ ، ١٨٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٩٥ ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ .

(٥) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٩٧ ، ٢٠٠ . والإمام أحمد فى ٦ : ٣٠ .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين)[١] رواهما مسلم .

٤ – أن يوقظ أهله ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (رحم الله أمرا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح فى وجهها ، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء)[٢].

وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال (إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا أو صلى ركعتين جميعا كتب فى الذاكرين والذاكرات)[٣] رواهما أبو دواد وغيره باسناد صحيح .

وعن أم سلمة أن النبى ﷺ استيقظ ليلة فقال : (سبحان الله ، ماذا أنزل الليلة من الفتنة ، ماذا أنزل من الخزائن من يوقظ صواحب الحجرات ، يارب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة رواه البخارى . عن على أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة فقال : ألا تصلبان ؟ قال : فقلت : يارسول الله أنفسنا بيد الله . فإن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ثم سمعته وهو يضرب فخذه وهو يقول : (وكان الإنسان أكثر شىء جدلاً)[٤] . متفق عليه .

٥ – أن يترك الصلاة ويرقد إذا غلبه النعاس حتى يذهب عنه النوم فعن عائشة أن النبى ﷺ قال : (إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضجع)[٥]رواه مسلم .

وقال أنس : (دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين فقال : ماهذا ؟ قالوا : لزينب تصلى ، إذا كسلت أو فترت أمسكت به ؟ فقال : حُلّوه ، ليصل أحدكم نشاطه فإذا كسل أو فتر فليرقد)[٦] متفق عليه .

٦ – أن لايشق على نفسه بل يقوم من الليل بقدر ماتتسع له طاقته ويواظب عليه ولايتركه إلا لضرورة . فعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : (خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فوالله لايمل الله حتى تملوا)[٧]. رواه البخارى ومسلم .

---

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٩٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٩٩ .

(٢) أخرجه أبو داود فى التطوع : ١٨ ، وفى الوتر : ١٣ . والنسائى فى قيام الليل : ٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٠ ، ٤٣٦ .

(٣) أخرجه البخارى فى ليلة القدر : ٥ . ومسلم فى الاعتكاف : ٧ . وأبو داود فى التطوع : ١٨ ، وفى الوتر : ١٣ . والنسائى فى قيام الليل : ٥ ، ١٧ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٧٥ . والإمام مالك فى صلاة الليل : ٥ . والإمام أحمد فى ١ : ١٣٢ ، وفى ٢ : ٢٥٠ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٢٩٧ .

(٥) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٢٣ . وأبو داود فى التطوع : ١٨ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٨٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٨ .

(٦) أخرجه البخارى فى التهجد : ١٨ . وابن ماجة فى الإقامة : ١٨٤ .

(٧) أخرجه البخارى فى الرقاق : ١٨ . ومسلم فى المسافرين : ٢١٥ ، ٢٢٠ . والترمذى فى القبلة : ١٣ . وابن ماجه فى زهد : ٢٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣١ ، ٣٥٠ ، ٤٩٦ ، وفى ٦ : ٤٠ ، ٦١ ، ٨٤ .

ورويا عنها أن رسول الله ﷺ : سئل أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : (أدومه وإن قل)[٨].

وروى مسلم عنها قالت : (كان عمل رسول الله ﷺ ديمة . وكان إذا عمل عملاً أثبته)[٢].

وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (يا عبد الله لاتكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل)[٣]. متفق عليه

ورويا عن ابن مسعود قال : (ذكر عند النبى ﷺ رجل نام حتى أصبح قال : ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه - أو قال فى أذنه)[٢].

ورويا عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أن النبى ﷺ قال لأبيه : (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل . قال سالم ، فكان عبد الله بعد ذلك لاينام من الليل إلا قليلاً) .

٣ - وقتـــه :

صلاة الليل تجوز فى أول الليل ووسطه وآخره مادامت الصلاة بعد صلاة العشاء . قال أنس رضى الله عنه فى وصف صلاة رسول الله ﷺ : (ما كنا نشاء أن نراه من الليل مصليا إلا رأيناه ، وماكنا نشاء أن نراه نائما إلا رأيناه ، وكان يصوم من الشهر حتى نقول لايفطر منه شيئا ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئا)[٣]. رواه أحمد والبخارى والنسائى .

قال الحافظ : لم يكن لتهجده ﷺ وقت معين بل بحسب مايتيسر له القيام .

٤ - أفضــل أوقاتهــا :

ولكن الأفضل تأخيرها إلى الثلث الأخير !

١ - فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى سماء الدنيا

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٢ ، وفى الصوم : ٥٢ . ومسلم فى المسافرين : ١٣٩ ، ٢٢١ ، والنسائى فى قيام الليل : ١٧ والإمام أحمد فى ٦ : ٥١ ، ٥٤ ، ٣١٩ ، ٣٣٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى الصوم : ٦٤ ، وفى الرقاق : ١٨ . ومسلم فى المسافرين : ٢١٧ . وأبو داود فى التطوع : ٢٧ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٠٩ ، وفى ٦ : ٤٣ ، ٥٥ ، ١٧٤ ، ١٨٩ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ١٧٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٧٠ .

(٤) أخرجه البخارى فى التهجد : ١٣ . ومسلم فى المسافرين : ٢٠٥ . والنسائى فى قيام الليل : ٥ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٧٤ والإمام أحمد فى ١ : ٣٧٥ ، ٤٢٧ ، وفى ٢ : ٢٦٠ ، ٤٢٧ .

(٥) أخرجه البخارى فى التهجد : ١١ .

حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفرله)[١] رواه الجماعة .

٢ - وعن عمرو بن عبسة قال : سمعت النبى ﷺ يقول : (أقرب مايكون العبد من الرب فى جوف الليل الأخير فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن) رواه الحاكم قال : على شرط مسلم ، والترمذى وقال : حسن صحيح .

٣ - وقال أبو مسلم لأبى ذر : أى قيام الليل أفضل ؟ قال سألت رسول الله ﷺ كما سألتنى فقال : (جوف الليل الغابر ، وقليل فاعله)[٢]. رواه أحمد بإسناد جيد .

٤ - وعن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : (أحب الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما)[٣] رواه الجماعة إلا الترمذى .

٥ - عدد ركعاته :

ليس لصلاة الليل عدد مخصوص ، ولاحد معين ، فهى تتحقق ولو بركعة الوتر بعد صلاة العشاء .

١ - فعن سَمُرة بن جندب رضى الله عنه قال : (أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلى من الليل ماقل أو كثر ونجعل آخر ذلك وتراً) . رواه الطبرانى والبزار .

٢ - وروى عن أنس رضى الله عنه يرفعه إلى النبى ﷺ قال : (صلاة فى مسجدى تعدل بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة فى المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة ، والصلاة بأرض الرباط تعدل بألفى ألف صلاة ، وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد فى جوف الليل) . رواه أبو الشيخ وابن حبان فى كتابه « الثواب » وسكت عنه الخنذرى فى « الترغيب والترهيب » .

٣ - وعن إياس بن معاوية المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لابد من صلاة بليل ولو حلب شاة ، وماكان بعد صلاة العشاء فهو من الليل) . رواه الطبرانى ورواته ثقات إلا محمد ابن اسحق .

---

(١) أخرجه البخارى فى التهجد : ١٤ ، وفى الدعوات : ١٤ . ومسلم فى المسافرين : ١٦٨ ، ١٦٩ . وأبو داود فى التطوع : ٢١ . والترمذى فى المواقيت : ٢١ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٨٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٤١٩ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الايمان : ٨ ، وفى الدعوات : ٧٨ ، ١١٨ . والنسائى فى المواقيت : ٣٥ ، ٤ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٤٨ ، ١٨٢ .

(٣) أخرجه البخارى فى الصوم : ٥٦ ، وفى الأنبياء : ٣٧ . ومسلم فى الصيام : ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠١ وأبو داود فى الصوم : ٥٣ . والنسائى فى الصيام : ٧٥ ، ٧٦ . وابن ماجه فى الصيام : ٣١ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٥٨ .

٤ – وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (ذكرت قيام الليل فقال بعضهم : إن رسول الله ﷺ قال : (نصفه) ثلثه ، ربعه فواق حلب ناقة ، فواق حلب شاة) .

٥ – وروى عنه أيضا قال : (أمرنا رسول الله ﷺ بصلاة الليل ورغب فيها حتى قال : « عليكم بصلاة الليل ولو ركعة » . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

والأفضل المواظبة على إحدى عشرة ركعة ، أو ثلاث عشرة ركعة ، وهو مخير بين أن يصلها وبين أن يقطعها .

قالت عائشة رضى الله عنها : (ماكان رسول الله ﷺ يزيد فى رمضان ولا غيره عن إحدى عشرة ركعة ، يصلى أربعا ، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثاً ، فقلت : يارسول الله أتنام قبل أن توتر ؟ فقال : (ياعائشة إن عينى تنامان ولاينام قلبى)[1]. رواه البخارى ومسلم .

ورويا أيضا عن القاسم بن محمد قال : سمعت عائشة رضى الله عنها تقول كانت صلاة رسول الله ﷺ عشر ركعات ويوتر بسجدة)[2].

٦ – قضـــاء قيـــام الليـــل :

روى مسلم عن عائشة : (أن النبى ﷺ كان إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة)[3].

وروى الجماعة إلا البخارى عن عمر أن النبى ﷺ قال : (من نام عن حزبه أو عن شىء منه فقرأه مابين صلاة الفجر وصلاة الظهر كأنما قرأه من الليل)[4].

وقوله تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً**) : أى يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذى يقومه محمد ﷺ للشفاعة يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ماهم فيه من شدة ذلك اليوم.

وعن حذيفة قال : يجمع الناس فى صعيد واحد يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، حفاة عراة كما خلقوا ، قياما لاتكلم نفس إلا بإذنه ، ينادى : يامحمد فيقول : (لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ،

---

(١) أخرجه البخارى فى التهجد : ١٦ ، وفى المناقب : ٢٤ . ومسلم فى المسافرين : ١٢٥ . وأبو داود فى الطهارة : ٧٩ ، وفى التطوع :
(٢) ٢٦ . والترمذى فى الفتن : ٦٣ . والنسائى فى الليل : ٣٦ والإمام مالك فى الليل : ٩ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢ ، ٢٧٨ ، وفى
(٣) ٢ : ٢٥١ ، ٤٣٨ ، وفى ٥ : ٤٠ ، ٥٠ ، وفى ٦ : ٣٦ ، ٧٣ ، ١٠٤ .
(٤) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٢٨ . وأبو داود فى التطوع : ٢٦ . والإمام أحمد فى ٦ : ١٦٥ .

والشر ليس إليك والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، ومنك وإليك ، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت) فهذا المقام المحمود الذى ذكره الله تعالى .

قال ابن عباس هذا المقام المحمود مقام الشفاعة .

وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد ، وقاله الحسن البصرى .

وقال قتادة : هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذى قال الله تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ .

قلت : لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لايساويه فيها أحد ، فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكبا إلى المحشر ، وله اللواء الذى آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الحوض الذى ليس فى الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتى لفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد ما تسأل الناس آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكل يقول : لست لها حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول (أنا لها أنا لها) ، كما سنذكر ذلك مفصلا فى هذا الموضع إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك أنه يشفع فى أقـوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها ، وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته وأولهم إجازة على الصراط بأمته ، وهو أول شفيع فى الجنة كما ثبت فى صحيح مسلم .

وفى حـديث الصور : (أن المؤمنين كلهم لايدخلون الجنة إلا بشفاعته وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع فى رفع درجات أقوام لاتبلغها أعمالهم وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة لاتليق إلا له ، وإذا أذن الله تعالى فى الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيشفع هو فى خلائق لايعلم عدتهم إلا الله تعالى ، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك .

قال البخارى حدثنا اسماعيل بن أبان حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن على سمعت ابن عمر يقول : (إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء كل أمة تتبع نبيها يقولون : يافلان اشفع يافلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً)[١]

وعن عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : (إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول : لست بصاحب ذلك ، ثم بموسى فيقول كذلك ، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً)[٢].

وقال البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : (من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٧ : ١١ .

(٢) أخرجه الدارمى فى الرقاق : ٨٠ . والإمام فى ١ : ٣٩٨ ، وفى ٣ : ٤٥٦ .

وعدته . حلت به شفاعتي يوم القيامة)[١] انفرد به دون مسلم .

وقال الإمام أحمد عن أبي بن كعب عن أبيه عن النبي ﷺ قال : (إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر)[٢]. قال الترمذي حسن صحيح .

وقال الامام أحمد عن أنس عن النبي ﷺ قال : (يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيقول لهم آدم : لست هناكم . ويذكر ذنبه الذى أصاب ، فيستحى ربه عز وجل من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحا فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ماليس له به علم فيستحى ربه من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتونه فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا موسى ، عبداً كلمه الله وأعطاه التوارة . فيأتون موسى فيقول لست : هناكم ، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس فيستحى ربه من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ، فيأتون عيسى فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمداً غفر الله له ماتقدم من ذنوبه وما تأخر . فيأتولى – قال الحسن هذا الحرى – فأقوم فأمشى بين سماطين من المؤمنين – قال أنس حتى أستأذن على ربى فإذا رأيت ربى وقعت له – أو خررت – ساجداً لربى ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى – قال – ثم يقال : ارفع محمد ، قل تسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعطه ، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربى وقعت له – أو خررت – ساجدا لربى فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ، ثم يقال : ارفع محمد ، قل تسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الثالثة فإذا رأيت ربى وقعت – أو خررت – ساجداً لربى فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ، ثم يقال : ارفع محمد ، قل تسمع ، وسل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الرابعة ، فأقول يارب : مابقى إلا من حبسه القرآن)[٣].

وحدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : (فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن برة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن ذرة)[٤].

---

(١) أخرجه البخارى فى الأذان : ٨ ، وفى تفسير سورة ١٧ : ١١ . والترمذى فى الصلاة : ٤٣ . والنسائى فى الأذان : ٣٨ . وابن ماجه فى الأذان : ٤ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الزهد : ٣٧ . والترمذى فى المناقب : ١ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ١ ، وفى التوحيد : ١٩ ، ٢٤ ، وفى الرقاق : ٥١ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢٢ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٧ .

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٣ ، وفى المناقب : ٢٨ ، وفى التوحيد : ١٩ . والترمذى فى جهنم : ٩ ، ١٠ . وابن ماجه فى المقدمة : ٩ ، وفى الزهد : ٣٧ . والإمام أحمد فى ١ : ٤١٦ ، ٤٥٨ ، وفى ٣ : ١١٦ ، ١٧٣ ، ٢٤٨ ، ٢٧٦ .

وقال الإمام أحمد عن أنس قال حدثنى نبى الله ﷺ قال : (إنى لقائم انتظر أمتى تعبر الصراط ، إذ جاءنى عيسى عليه السلام فقال : هذه الأنبياء قد جاءتك يامحمد يسألون – أو قال يجتمعون إليك – ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله بغم ماهم فيه ، فالخلق ملجمون بالعرق ، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة ، وأما الكافر فيغشاه الموت ، فقال : انتظر حتى أرجع إليك ، فذهب نبى الله ﷺ فقام تحت العرش ، فلقى مالم يلق ملك مصطفى ، ولا نبى مرسل ، فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن أذهب إلى محمد وقل له : أرفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فشفعت فى أمتى أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً ،فمازلت أتردد إلى ربى عز وجل فلا أقوم منه مقاما إلا شفعت ، حتى أعطانى الله عز وجل من ذلك أن قال : أدخل من أمتك من خلق الله عز وجل من شهد أن لا إله إلا الله يوما واحداً مخلصا ومات على ذلك)[1].

وقال الإمام أحمد عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال (يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتى على تل ، ويكسونى ربى عز وجل حلة خضراء ، ثم يؤذن لى فأقول ماشاء الله أن أقول ، فذلك المقام المحمود)[2].

وقال أيضا عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : (أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه فأنظر إلى ما بين يدى فأعرف أمتى من بين الأمم ، ومن خلفى مثل ذلك ، وعن يمينى مثل ذلك ، وعن شمالى مثل ذلك) فقال رجل : يارسول الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟ قال : قال : (هم غر محجلون من أثر الوضوء ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم)[3].

صلى الله عليك يا علم الهدى ماهبت النسائم وما ناحت على الأيك والحمائم :

إذا كان يوم العرض والحشر واللقا
فلا أحد فى الرسل يشفع إلا هو
فسيجد تحت العرش لله سجدة
ويسأله فصل القضاء فيعطاه

ويرحم الله أمير الشعراء إذ يقول فى أمير الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليه .

يا من له عز الشفاعة وحده   وهو المنزه ماله شفعاء

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٧ ، ٣٧٣ ، ٥١٨ ، وفى ٣ : ١٧٨ ، وفى ٤ : ٤٤ ، وفى ٥ : ٢٣٦ . والترمذى فى الدعوات : ١٢٦ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، وفى ٢ : ٣٠٠ ، ٣٣٤ ، ٣٦٢ ، ٤٠٠ ، ٤٠٨ ، ٥٢٣ ، وفى ٣ : ٤٣١ ، وفى ٤ : ٢٠٧ ، وفى ٥ : ١٩٩ ، ٢٦٢ .

عرش القيامة أنت تحت لوائه والحوض أنت حياله السقاء
لى فى مديحك يا رسول عرائس تُيمن فيك وشاقهن جلاء
هن الحسان فإن قبلت تكرما فمهورهن شفاعة حسناء

قوله تعالى : ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا * وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ :

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله تعالى ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** ﴾ وقال الترمذى حسن صحيح .

وقال الحسن البصرى فى تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة ، أمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذى قال الله عز وجل : ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق** ﴾ الآية

وقال قتادة : ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق** ﴾ يعنى المدينة ﴿ **وأخرجنى مخرج صدق** ﴾ يعنى مكة .

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد أسلم وهذا القول هو أشهر الأقوال .

وقال العوفى عن ابن عباس ﴿ **أدخلنى مُدخل صدق** ﴾ يعنى الموت ﴿ **وأخرجنى مخرج صدق** ﴾ يعنى الحياة بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ **واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** ﴾ :

قال قتادة : إن نبى الله ﷺ علم أن لاطاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمه من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم .

وقال مجاهد : ﴿ **سلطانا نصيرا** ﴾ حجة بينة .

واختار ابن جرير قول قتادة وهو الأرجح ، لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ولهذا يقول تعالى :

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾[1] .

(١) الآية ٢٥ من سورة الحديد .

وفى الحديث : (إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن) أى يمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام مالا يمتنع كثير من الناس بالقرآن ، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد .

قوله تعالى : ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾ :

هذا وعيد وتهديد لكفار قريش .

روى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال (دخل النبى ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود من يده فيقول :

﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾

﴿ جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾[1].

وعن جابر رضى الله عنه قال :

(دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما تعبد من دون الله ، فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها ، وقال :

﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾

إن من الحقائق الثابتة أن صوت الباطل لن يرتفع إلا إذا غفل أهل الحق ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الجمل وسيظل الباطل يعربد فى عرصات الأرض حتى يتصدى له الحق بقوته فيدمغه فإذا هو زاهق .

والباطل زهوق بطبعه ، لكن إذا غفل أهل الحق عن حقهم خلا الجو للباطل فباض وأفرخ باض الالحاد وافرخ الزندقة ، فكيف يسكت أهل الحق عن حقهم بينما أهل الباطل يستمسكون بباطلهم .

فما بال المعروف أصبح منكرا ، وكيف أضحى المنكر معروفا ، وكيف صار الذئب راعيا ، وكيف بات الخصم العنيد قاضيا .

اللهم ارنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وارنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .

قوله تعالى :

﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ :

هو كقوله تعالى عن القرآن :

﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾[2]

(١) الآية ٤٩ من سورة سبأ .

(٢) الآية ٤٤ من سورة فصلت .

وقال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا * فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾[1].

قال قتادة : إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ ولايزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ أى لاينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين .

قوله تعالى :

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشركان يئوسا * قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ .

هذا اختيار منه تبارك اسمه عن فريق من الناس ، فهو سبحانه إذا أخبر فهو العليم بذات الصدور : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[2].

هذا النوع من الناس إذا أنعم الله عليه بنعمة نسى شكر المنعم ، وأعرض عن ذكر ربه ، ونأى بجانبه بعيدا عن طاعة الله ، فإذا ما ابتلاه الله بنقمة يئس من رحمة الله ، وأعرض عن دعاء ربه ، فهذا الفريق والعياذ بالله فى شر فى كل أحواله ، فهو فى السراء معرض ، وفى الضراء يئوس ، ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ، ولا يقنط من رحمة الله إلا الضالون .

فاللهم أغننا بالفقر إليك ، ولاتفقرنا بالاستغناء عنك ، فشعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ، ولو انغمست فى نعيم الدنيا ، وقطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا :

مامسنى قدر بكره أو رضا
إلا اهتديت به إليك طريقا
أمضى القضاء على الرضا منى به
إنى عرفتك فى البلاء رفيقا

قوله تعالى :

﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ :

قال ابن عباس : على ناحيته .

وقال مجاهد : على حدته وطبيعته .

وقال قتادة : على نيته .

وقال ابن زيد : دينه .

(١) الآيتان ١٢٤ ، ١٢٥ من سورة التوبة .
(٢) الآية ١٤ من سورة الملك .

وهذه الآية تهديد للمشركين ووعيد لهم كقوله تعالى : ﴿ وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ۝ وانتظروا إنا منتظرون ۝ ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه ومار بك بغافل عما تعملون ﴾[1].

ربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، وسيجزى كلا بعمله ولايظلم ربك أحدا .

الروح والقرآن ومقترحات المعاندين

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ

(١) الآيتان ، ١٢١ ، ١٢٣ من سورة هود .

أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

المفردات : فى المراد من الروح فى هذه الآية ثلاثة آراء :

١ – ﴿ **القرآن** ﴾ : وهو المناسب لما تقدمه من قوله : ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة ﴾[١] ولما بعده من قوله : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾[٢] ولأنه سمى به فى مواضع متعددة من القرآن كقوله ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾[٣] وقوله ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره ﴾[٤] ولأن به تحصيل حياة الأرواح والعقول إذ به تحصل معرفة الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، ولا حياة للأرواح إلا بمثل هذه المعارف .

٢ – ﴿ **جبريل عليه السلام** ﴾ : وهو قول الحسن وقتادة ، وقد سمى جبريل فى مواضع عدة من القرآن كقوله : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾[٥] وقوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾[٦] ويؤيد هذا أنه قال فى هذه الآية ﴿ **قل الروح من أمر ربى** ﴾ وقال جبريل ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾[٧] فهم قد سألوا الرسول كيف جبريل فى نفسه وكيف يقوم بتبليغ الوحى .

٣ – الروح الذى يحيا به بدن الإنسان – وهذا قول الجمهور – ويكون ذكر الآية بين ما قبلها وما بعدها اعتراضا للدلالة على خسارة الظالمين وضلالهم ، وأنهم مشتغلون عن تدبر الكتاب والانتفاع به إلى التعنت بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق على معرفته .

ويؤيد هذا ماروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : (مرّ رسول الله ﷺ بنفر من اليهود فقال بعضهم : سلوه عن الروح . وقال بعضهم : لا تسألوه يُسمعكم ما تكرهون . فقاموا إليه ، وقالوا : يا أبا القاسم حدثنا عن الروح . فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه ، ثم قال : ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ . الآية (ذكره المراغى فى تفسيره) .

﴿ **وكيلا** ﴾ : أى ملتزماً استرداده بعد الذهاب به كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه . ﴿ **ظهيراً** ﴾ : أى معينا فى تحقيق مايتوخونه من الإتيان بمثله . ﴿ **وصرفنا** ﴾ : كررنا ورددنا . ﴿ **والكفور** ﴾ : الجحود . ﴿ **الينبوع** ﴾ : العين التى لاينضب ماؤها . ﴿ **جنة** ﴾ : أى بستان تستر أشجاره ماتحتها من الأرض . ﴿ **كسفا** ﴾ : واحدها كسفة : كقطع وقطعة لفظا ومعنى . ﴿ **وقبيلا** ﴾ :

---

(١) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٨٦ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى .
(٤) الآية ٢ من سورة النحل .
(٥) الآية ١٩٣ من سورة الشعراء .
(٦) الآية ١٧ من سورة مريم .
(٧) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

أى مقابلا كالعشير بمعنى المعاشر والمراد رؤيتهم عيانا . ﴿ **والزخرف** ﴾ : هنا الذهب . وأصله الزينة وأجملها ماكان بالذهب . ﴿ **ترقى** ﴾ : أى تصعد . ﴿ **مطمئنين** ﴾ : **أى ساكنين مقيمين فيها** . ﴿ **وخبت** ﴾ :أى سكن لهبها . ﴿ **والسعير** ﴾ : اللهب . ﴿ **وكفورا** ﴾ : أى جحوداً للحق . ﴿ **خشية الانفاق** ﴾ : أى خوف الفقر . ﴿ **والقتور** ﴾ : الشديد البخل .

قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وماأوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ :

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود أنه قال : (كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرث فى المدينة وهو متوكأ على عسيب ، فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح : وقال بعضهم : لا تسألوه . قال : فسألوه عن الروح فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فمازال متوكئا على العسيب ، قال : فظننت أنه يوحى إليه . فقال ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ قال : فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه)[1].

قال العلامة ابن كثير :

وهذا السياق يقتضى بادى الرأى أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية .

وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهى هذه الآية ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ .

ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد . حدثنا قتيبة حدثنا يحيى بن زكريا عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال : (قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل . فقالوا : سلوه عن الروح . فسألوه ، فنزلت ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ قالوا أوتينا علماً كثيراً ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً ، قال : وأنزل الله ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾[2].

قوله تعالى : ﴿ **قل الروح من أمر ربى** ﴾ : أى من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ : أى وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لايحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى .

(١) أخرجه البخارى فى الاعتصام : ٨٢٣ ، وفى العلم : ٤٧ ، وفى التفسير سورة ١٧ : ١٣ . ومسلم فى المنافقين : ٣٢ . والترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ١٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٥٥ ، ٣٨٩ ، ٤١٠ ، ٤٤٤ .

(٢) الآية ١٠٩ من سورة الكهف .

والمعنى أن علمك فى علم الله قليل ، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما أستأثر به تعالى ، ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى .

جاء فى قصة موسى والعبد الصالح : (أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة فنقر فى البحر نقرة ، أى شرب منه بمنقاره ، فقال : يا موسى ماعلمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر)[1] أو كما قال .

فسبحان من أحاط بكل شىء علماً وأحصى كل شىء عددا ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[2].

وسبحان من علم ما كان وعلم مايكون وعلم ماسيكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

﴿ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾[3]

فسبحان من خلق الكائنات وقدر أرزاقها وحدد آجالها .

﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[4].

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾[5].

قوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا * إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً * قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا * ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ :

بعد أن أمتن سبحانه على نبيه بما أنزل عليه من الكتاب ، وذكر أنه شفاء للناس ، وأنه ثبته عليه حين كادوا يفتنونه عنه ، ثم أردفه بمسألة الروح اعتراضا ، لأن اليهود والمشركين اشتغلوا بها عن تدبر الكتاب والانتفاع به ، وسألوا تعنتا عن شىء لم يأذن الله بالعلم به لعباده .

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٢٧ ، وفى العلم : ٤٤ ، وفى تفسير سورة ١٨ : ٢ ، ٤ . ومسلم فى الفضائل : ١٧٠ والترمذى فى تفسير سورة ١٨ : ١ .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٧ من سورة لقمان .

(٤) الآية ٦ من سورة هود .

(٥) الآية ١٠٩ من سورة الكهف .

امتن عليه ببقاء ذلك الكتاب وحذره من فتنة الضالين ، وإرجاف المرجفين وهو المعصوم من الفتنة فإنه لوشاء لأذهب ما بقلبه منه ، ولكن رحمة بالناس تركه فى الصدور .

وفى هذا تحذير عظيم للهداة والعلماء وهم غير معصومين من الفتنة ، بأن يباعد بينهم وبين هدى الذين بمظاهرتهم للرؤساء والعامة ، وتركهم العمل به اتباعاً لأهوائهم ، واستبقاء لودهم وحفظا لزعامتهم على الناس .

ثم ذكر أن القرآن وحى يوحى ، فلا يستطيع الجن والإنس ان يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض معينا ، وقد اشتمل على الحكم والأحكام والآداب التى تحتاج إليها البشر فى معاشهم ومعادهم ، وكثير من الناس جحدوا فضله عتوا وكبراً .

قوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا ﴾ :

لما ذكر سبحانه أنه ماأتاهم من العلم إلا قليلا بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل فقال : **﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾** :

أى والله لئن شئنا لنمحون القرآن من الصدور والمصاحف ، ولا نترك له أثراً ، وتصير كما كنت لاتدرى ما الكتاب ولا الايمان .

﴿ ثم لاتجد لك به علينا وكيلا ﴾ : أى ثم لاتجد ناصراً ينصرك فيحول بيننا وبين مانريد بك ، ولا قيّما لك يمنعنا من فعل ذلك بك .

﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ : أى ولكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به ، وفى هذا إمتنان من الله ببقاء القرآن ، قال الرازى : إنه تعالى امتن على جميع العلماء بنوعين من المنة أحدهما : تسهيل ذلك العلم عليهم . ثانيهما : إبقاء حفظه .

﴿ إن فضله كان عليك كبيرا ﴾ :

إذ ارسلك للناس مبشرا ونذيرا ، وأنزل عليك الكتاب وأبقاه فى حفظك ، وتصاحفك ، وفى حفظ أتباعك ومصاحفهم وصيرك سيد ولد آدم ، وختم بك النبيين ، وأعطاك المقام المحمود .

ثم نبه إلى شرف القرآن العظيم وكبير خطره فقال سبحانه : **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾** :

أى قل لهم متحديا : والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على ان يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله بلاغة وحسن معنى وتصرفا وأحكاماً ونحو ذلك ، لا يأتون بمثله ، ومنهم العرب الفصحاء ، وأرباب البيان ، ولو تعاونوا وتظاهروا ، فإن هذا غير ميسور لهم ، فكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذى لانظير له ولا مثيل .

ثم ذكر بعض محاسن هذا القرآن فقال :

﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ :

أى ولقد رددنا القول فيه بوجوه مختلفة ، وكررنا الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهى ، وأقاصيص الأولين والجنة والنار ، ليدبروا آياته ويتعظوا بها .

﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفروا ﴾ :

أى فأبى أكثر الناس إلا الجحود والإنكار والثبات على الكفر ، والإعراض عن الحق .

ولما تم الإقناع بالحجة ، وقطعت ألسنتهم وأفحموا ، ولم يجدوا وسيلة للرد ، أرادوا المراوغة باقتراح الآيات ، وذكروا من ذلك ستة أنواع ذكرها سبحانه بقوله :

قوله تعالى :

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا * وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا . قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا * ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا * ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً * أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لاريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا * قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً ﴾ :

بعد أن أقام سبحانه الدليل على إعجاز القرآن ، وألزمهم الحجة وغلبوا على أمرهم ، أخذوا يراوغون ويقترحون الآيات ، ويتعثرون فى أذيال الحيرة ، فطلبوا آية من آيات ست ، فإن جاءهم بآية منها آمنوا به وصدقوا برسالته .

روى عن ابن عباس : (أن أشراف مكة أرسلوا إلى النبى ﷺ وهم جلوس عند الكعبة ، فأتاهم فقالوا : يا محمد إن أرض مكة ضيقة ، فسيِّر جبالها لننتفع بأرضها ، وفجّر لنا فيها نهراً وعيونا نزرع منها . فقال : لا أقدر عليه . فقال قائل : أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجير . فقال : لا أقدر عليه . فقيل : أو يكون لك بيت من زخرف (ذهب) فيغنيك عنا . فقال : لا أقدر

عليه . فقيل له : أما تستطيع الخير ، فاستطع الشر ، فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا بالعذاب . فقال عبد الله بن أميه المخزومى ، وأمه عمة رسول الله ﷺ : لا والذى يحلف به لا أومن بك حتى تشد سلما فتصعد فيه ونحن ننظر إليك ، فتأتى بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ، ثم بعد ذلك لاأدرى أنؤمن بك أم لا) .

فأمره الله بأن يرد عليهم بأن اقتراح الآيات ليس من وظيفة الرسل ، وإنما وظيفتهم البلاغ للناس .

ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى استبعادهم أن يرسل الله بشراً رسولا ، فأجابهم بأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن تكون رسلهم من الملائكة ، لأن الجنس أميل إلى جنسه .

ثم سلى رسوله ﷺ على ما يلاق من قومه ، بأن الهداية والإيمان بيد الله ، لا قدرة له على شيء من ذلك ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وسيلقون جزاءهم نار جهنم بما كسبت أيديهم ، دنسوا به أنفسهم من الكفر والفجور والمعاصى وإنكار البعث والحساب ، وهم يعلمون . أن الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يعيدهم مرة أخرى .

ثم بين أنه لو أجابهم إلى ماطلبوا من إجراء الأنهار والعيون ، وتكثير الأموال واتساع المعيشة ، لما كان هناك من فائدة ، ولما أوصلوا النفع إلى أحد فالانسان بطبعه شحيح كزّ بخيل .

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً** ﴾ :

أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبى سفيان والنضر بن الحارث ، قول المبهوت المحجوج المتحير : لن نصدقك حتى تستنبط لنا عيناً من أرضنا تدفق بالماء أو تفور ، وذلك سهل يسير على الله لو شاء فعله ، وأجابهم إلى ما يطلبون ، ولكن الله علم أنهم لايهتدون . كما قال : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[(١)]

وقال : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ماكانوا ليؤمنوا ﴾[(٢)].

٢ - ﴿ **أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا** ﴾ : أى أو يكون لك بستان فيه نخيل وعنب تتفجر الأنهار خلاله تفجيرا

٣ - ﴿ **أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا** ﴾ :

وخلاصة ذلك - أو تسقط السماء علينا متقطعة قطعا قطعاً ، ونحو الآية قوله : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾[(٣)].

---

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٢) الآية ١١١ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

وكذلك سأل قوم شعيب مثله فقالوا: ﴿فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾[١] .

٤ - ﴿ **أو تأتى بالله والملائكة قبيلا** ﴾ : أى أو تأتى بالله والملائكة ، تقابلهم معاينة ومواجهة . قاله مجاهد وعطاء ونحو الآية قولهم : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾[٢].

٥ - ﴿ **أو يكون لك بيت من زخرف** ﴾ : أى أو يكون لك بيت من ذهب روى ذلك عن ابن عباس وقتادة وغيرهما .

٦ - ﴿ **أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه** ﴾ : أى أو تصعد فى سلم إلى السماء ، ونحن ننظر إليك ولن نصدقك من أجل رقيك وحده .

بل لابد أن تنزل علينا كتابا نقرؤه ، بلغتنا على نهج كلامنا ، وفيه تصديقك ﴿ **قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا** ﴾ :

أى قل لهم متعجبا من مقترحاتهم ، ومنزها ربك من أن يقترح عليه أحد ، أو يشاركه فى القدرة : ما أنا إلا كسائر الرسل ، وليس للرسل أن يأتوا إلا بما يظهره الله على أيديهم بحسب ما تقتضيه المصلحة من غير تفويض إليهم فيه ولا تحكم منهم عليه .

وخلاصة ذلك : سبحانه أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل .

ثم أعقب ذلك بشبهة أخرى : وهى استبعادهم أن يكون من البشر رسول فقال :

﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا** ﴾ :

أى وما منع مشركى قريش وهم من حكبت أباطيلهم من الإيمان بك حين مجىء الوحى المقرون بالمعجزات التى تستدعى الايمان بنبوتك ، وبما نزل عليك من الكتاب إلا قولهم : أبعث الله بشرا رسولا ، إنكاراً منهم أن يكون الرسول من جنس البشر واعتقاداً منهم بأن الله لو بعث رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون من الملائكة ، ونحو الآية قوله : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾[٣].

---

(١) الآية ١٨٧ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٢١ من سورة الفرقان .
(٣) الآية ٢ من سورة يونس .

وقوله : ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ﴾[١].

وقال فرعون وملؤه : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾[٢]

ولذلك قالت الأمم لرسلهم ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾[٣].

فأجابهم الله عن هذه الشبهة ذاكرا وجه الحق ، منبها إلى المصلحة ، بقوله : **﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾** :

أى لو وجد فى الأرض ملائكة يمشون كما يمشى البشر ، ويقيمون فيها كما يقيمون ، ويسهل الاجتماع بهم ، وتتلقى الشرائع منهم ، لنزلنا عليهم من السماء رسلا من الملائكة للهداية والإرشاد ، وتعليم الناس ما يجب عليهم تعلمه ، ولكن طبيعة الملك لايصلح للاجتماع بالبشر ، فلا يسهل عليهم التخاطب والتفاهم معهم ، لبعد مابين الملك وبينهم ، ومن ثم لم نبعث ملائكة إليهم ، بل بعثنا خواص البشر ، لأن الله قد وهبهم نفوساً زكية ، وأيدهم بأرواح قدسية ، وجعل لهم ناحية ملكية ، بها يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة ، وناحية بشرية بها يبلغون رسالات ربهم إلى عباده .

وقد نبه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة وجليل تلك النعمة بقوله : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾[٤].

وقوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾[٥].

وقوله : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾[٦].

وإجمال القول فى ذلك أنه لو جعل الرسل ملائكة لما استطاع الناس التخاطب معهم ، ولما تمكنوا من الفهم منهم ، فلزم أن يجعلوا بشرا حتى يستطيعوا أداء الرسالة ، كما قال تعالى جده : ﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[٧].

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء فى صورة دحْية الكلبى مراراً عدة ، فقد صح أن أعرابيا جاء وليس عليه وعثاء السفر ، فسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان فأجابه عليه السلام بما أجابه ثم انصرف ، ولم يعرفه أحد من الصحابة رضوان الله عليهم ، فقال عليه السلام : (هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم)[٨].

---

(١) الآية ٦ من سورة التغابن .

(٢) الآية ٤٧ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية ١٠ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

(٦) الآية ١٥١ من سورة البقرة .

(٧) الآية ٩ من سورة الأنعام .

(٨) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٧ ، وفى تفسير سورة : ٣١ : ٢ . ومسلم فى الإيمان : ١ ، ٥ . والترمذى فى الإيمان : ٤ . وأبو داود فى السنة : ١٦ . والنسائى فى المواقيت : ٦ ، وفى الإيمان : ٥ . وابن ماجه فى المقدمة : ٩ . والإمام أحمد فى ١ : ١٥ ،

ثم أجابهم سبحانه بجواب آخر بقوله :

﴿ **قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم** ﴾ :

أى قل لهم : إن الله شاهد علىّ وعليكم ، عالم بما جئتكم به ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى أشد الإنتقام ، كما قال سبحانه ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين ﴾[١].

ثم ذكر سبحانه ماهو كالتهديد والوعيد بقوله :

﴿ إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾

أى إنه محيط بأحوال عباده الظاهر منها والباطن ، وأعلم بمن يستحق الإحسان والرعاية ، ومن هو أهل للشقاء والضلال .

وفى هذا إيماء إلى أنه ما دعاهم إلى إنكار نبوته ﷺ إلا الحسد وحب الرياسة والتكبر عن قبول الحق ، كما أن فيه تسلية له ﷺ على مايلقاه من الإصرار والعناد والإمعان فى إيذائه .

ثم أخبر سبحانه بأنه لا معقب لحكمة ، ولا سلطان لأحد من خلقه فى شىء ، فقال : ﴿ **ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه** ﴾ :

أى ومن يهد الله للإيمان به وتصديقك وتصديق ماجئت به من عند ربك ، فهو المهتدى إلى الحق المصيب سبيل الرشد ، ومن يضلله لسوء اختياره وقدسيته نفسه ، وركوبه رأسه فى الغواية والعصيان كهؤلاء المعاندين ، فلن تجد لهم أنصاراً ينصرونهم من دونه يهدونهم إلى الحق ، ويمنعون عنهم العذاب الذى يقتضيه ضلالهم ، ﴿ **ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكماً وصماً** ﴾ :

أى ونجمعهم فى موقف الحساب بعد تفرقهم فى القبور عمياً وبكماً وصماً ، كما كانوا فى الدنيا لايستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ومصامون عن استماعه ، فهم فى الآخرة لا يبصرون ما تقر به أعينهم ، ولايسمعون ما يلذ لمسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم ، كما قال : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾[٢].

روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه انه قال : (قيل : يارسول الله كيف يمشى الناس على وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم)[٣].

=٢٧ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، وفى ٢ : ٤٢٦ وفى ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ .

(١) الآيات ٤٤–٤٦ من سورة الحاقة .

(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢٤ : ١ . ومسلم فى المنافقين : ٥٤ . والترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ١٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٥٤ ، ٣٦٣ .

وروى الترمذى : (إن الناس يكونون ثلاثة أصناف فى الحشر : مشاة وركبانا وعلى وجوههم)[١]

وإنا نرى فى الدنيا من الحيوان ماهو طائر ، ومنه ماهو ماش ، ومنه ماهو زاحف كالحيات ، وهو امّ الأرض .

والقسم الأخير من الأقسام الثلاثة فى الحديث أقرب إلى هيئة الزواحف ، بحيث يبقى الوجه فى الأرض ، وتحيط به زوائد كالأرجل الصغيرة الحيوانية ، وهو يهيم على وجهه .

الخلاصـــة : إنهم يبعثون فى أقبح صورة ، وأشنع منظر ، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع ، مع كونهم مسحوبين على وجوههم كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى إهانته وتعذيبه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ﴾[٢].

﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ :

أى ثم بعد أن يتم حسابهم يكون منقلبهم ومصيرهم جهنم كلما سكن لهيبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ، ولم يبق ماتتعلق به وتحرقه زدناها لهبا وتوقدا ، بأن نعيدهم إلى ماكانوا عليه فتستعر وتتوقد .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن ابن عبّاس رضى الله عنهما إنه قال : (إن الكفار وقود النار ، فإذا أحرقتهم ولم يبق شىء صارت حجرا تتوهج ، فذلك خبوها ، فإذا بدلوا خلقا جديدا عادوتهم) . اهـ .

وكان هذا عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الإفناء بتكرارها مرة بعد أخرى ليروها عيانا ، حيث أنكروها برهانا . ثم بيّن علة تعذيبهم لعلة يرجع منهم من قضى بسعادته ، فقال : **﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاقاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾** :

أى ذلك العذاب الذى جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصم هو جزاؤهم الذى يستحقونه على تكذيبهم بالبينات والحجج التى جاءتهم ، وعلى استبعادهم وقوع البعث ، وقولهم أبعد ماصرنا إلى ماصرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق فى أرجاء الأرض نعاد مرة أخرة ، استنكاراً منهم وتعجباً من أنه يحصل ذلك .

ثم استدل على البعث فقال :

﴿ أو لم يروا آن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ :

أى ألم يعلموا ويتدبروا أن الذى خلق السموات والأرض ابتداعاً على غير مثال سابق ، وإقامهما

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ١٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٥٤ ، ٣٦٢ .
(٢) الآية ٤٨ من سورة القمر .

بقدرته ، قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق بعد فنائهم ، وكيف لايقدر على إعادتهم ، والاعادة أهون من الابتداء ؟ .

وبعد أن أثبت أن البعث أمر يمكن الوجود فى نفسه أردف ذلك أن لحصوله وقتا معلوما عنده فقال :

﴿ **وجعل لهم أجلاً لاريب فيه** ﴾ : أى وجعل لإعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلا مضروبا ، ومدة مقدرة لابد من انقضائها لا يعلمها إلا هو ، كما قال ﴿ **وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾

خلاصة ذلك :

إنهم قد علموا بالبرهان العقلى أن الله قادر على إعادتهم ، وقد جعل لميقات إعادتهم أجلا ، وهو يوم القيامة الذى لاشك فيه ، فلا وجه لانكاره .

﴿ **فأبى الظالمون إلا كفورا** ﴾ :

أى وبعد إقامة الحجة عليهم أبوا إلا تماديا فى ضلالهم وكفرهم مع وضوح الحجة وظهور المحجة .

ثم بين السبب فى عدم إجابتهم إلى ماطلبوا من الجنات والعيون ، بأنهم لو ملكوا خزائن الدنيا لبقوا على شحهم فقال :

﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق** ﴾ :

المراد من الإنفاق هنا الفقر ، كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، وروى نحوه عن قتادة ، وإليه ذهب الراغب فقال : أنفق فلان إذا افتقر .

وقال أبو عبيده : أنفق وأملق وأعدم وأحرم ، بمعنى أى قل لهم أيها الرسول لو أنكم تملكون التصرف فى خزائن الله لأمسكتم خشية الفقر ، أى خشية أن تزول وتذهب مع أنها لاتفرغ ولاتنفد أبداً .

وقصارى ذلك – أنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها ، لبقيتم على الشح والبخل ، وفى هذا إيماء إلى أن الله لايجيبكم إلى ماطلبتم من نبيه ﷺ ، من بساتين وعيون تنبع لا بخلا منه ، ولكن اقتضت الحكمة ان يكون نظام الدنيا هكذا ، ولا رقى للانسان إلا على هذا المنوال ، فهو يوسع الرزق على قوم ويضيقه على آخرين على مقتضى الحكمة والمصلحة ومن ثم لم ينزل على ما اقترحتموه .

﴿ **وكان الإنسان قتورا** ﴾ :

أى كان الإنسان بخيلا منوعا بطبعه ، كما قال : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذاً لايؤتون الناس نقيراً ﴾[1].

أى لو أن لهم نصيباً من ملك الله لما أعطوا أحدا شيئاً ولا مقدار نقير .

(١) الآية ٥٣ من سورة النساء .

وقد روى البخارى ومسلم : (يد الله ملأى لايغيضها نفقة سماء (أخذ) الليل والنهار أرأيتم ما أنفق من خلق السموات والأرض فانه لم يغض مافى يمينه) .

وإجمال المعنى : إن الله لم يجب محمدا إلى ماطلبتم لا هوانا لنبيه ولا لأنه ليس بنبى ولا بخلا منه (حاشاه) بل لحكمة منه ، فربما كانت وفرة العطاء إذا نزلت على غير وجهها مصايب على الناس ، فأما أنتم فمنعكم يجرى على طريق البخل ، فلو سلم لكم السموات والأرض وأورثتموها لم تفهموا إلا الإمساك ، ومن ثم لايسلمكم مفاتيح خزائنه ، لئلا تمسكوا المال لأنفسكم ولاتنفعوا خلقه .

موسى وبنو اسرائيل وفرعون

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

المفردات : ﴿ **مسحورا** ﴾ : أى مخبول . ﴿ **بصائر** ﴾ : حججا وبينات واحدها بصيرة . ﴿ **أى مبصرة** ﴾ : بينة . ﴿ **مثبورا** ﴾ : أى هالكا كما روى عن الحسن ومجاهد . قال الزجاج : يقال ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك ، ويقال فلان يدعو بالويل والثبور حين تصيبه المصيبة ، كما قال تعالى : ﴿ دعوْا هنالك ثبورا * لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعو ثبورا كثيرا ﴾[1]. ﴿ **أن يستفزهم** ﴾ : أى أن يخرجهم بالقتل أو أن يزيلهم عنها . ﴿ **واللفيف** ﴾ : الجمع العظيم من أخلاط شتى ، من شريف ودنىء ، ومطيع وعاص ، وقوى وضعيف ، وكل شىء خلطته بغيره فقد لففته .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فما سلف ما اقترحوه من الآيات وأبان لهم أن الرسل ليس من شأنهم أن يقترحوا على الله شيئاً — ذكر هنا أنه قد أنزل على موسى مثل مااقترحتم وأعظم منه ، ولم تجد فرعون وقومه شيئا ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا فائدة لكم فيما اقترحتموه من الآيات ، كفاكم الآيات العلمية التى أنزلها

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الفرقان .

على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فإن لم تؤمنوا بعد ظهور تلك الحجج أهلككم كما أهلك فرعون بالغرق ، وفى ذلك تسلية لرسوله بذكر ماجرى لموسى مع فرعون ، وما جوزى به فرعون وقومه .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن معجزات كليم الله موسى .

وقد ذكر سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام .

١ – أنه أزال العقدة من لسانه ، أى أذهب العجمة عن لسانه وصار فصيحاً .

٢ – انقلاب العصا حية .

٣ – تلقف الحية حبالهم وعصيهم على كثرتها .

٤ – اليد البيضاء .

٥–٦–٧–٨–٩– الطوفان ، الجراد ، القمل ، الضفادع ، الدم .

١٠ – شق البحر .

١١ – انفلاق الحجر فى قوله ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر ﴾[١]

١٢ – إظلال الجبل فى قوله ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾[٢]

١٣ – إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه .

١٤–١٥– الجدب ونقص الثمرات فى قوله ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾[٣]

١٦ – الطمس على أموالهم من الحنطة والدقيق والأطعمة .

وقد اختلفوا فى المراد من هذه التسع .

أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر من طرق عدة عن ابن عباس : أنها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات .

وقيل : المراد بالآيات الأحكام ، فقد أخرج أحمد والبيهقى والطبرانى والنسائى وابن ماجه (أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى النبى فنسأله ، فأتياه ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى :

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٧١ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ١٣٠ من سورة الأعراف .

﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام : لاتشركوا بالله شيئا ، ولاتزنوا ، ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا الحق ، ولاتسرقوا ، ولاتسحروا ، ولاتأكلوا الربا ، ولاتمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، وأنتم يايهود عليكم خاصة ألا تعدوا فى السبت ، فقبلا يده ورجله وقالا نشهد أنك نبى ، قال : فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا : أن داود دعا ألا يزال من ذريته نبى ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود)[1].

﴿ **فاسأل بنى إسرائيل** ﴾ ثم خاطب نبيه سبحانه وتعالى فقال : فاسأل بنى اسرائيل الذين كانوا فى عصرك وآمنوا بك ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، سؤال استشهاد ، لتزيد طمأنيتك ويقينك ، ولتعلم أن ذلك محقق ثابت عندهم فى كتابهم .

﴿ **إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا** ﴾ : أى فاسألهم يخبروك ، لأنه جاءهم أى جاء آباءهم بهذه الآيات وأبلغها فرعون ، فقال له فرعون : إنى لأظنك ياموسى مخلط العقل ، ومن ثم ادعيت ما ادعيت ، مما لا يقول مثله كامل العقل ، حصيف الرأى .

﴿ **قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا** ﴾ :

أى قال موسى لفرعون : لقد علمت يا فرعون ما أنزل الله هذه الآيات التسع التى أريتكها إلا حجة لى على حقيقة ما أدعوك إليه ، وشاهده لى على صدق وصحة قولى أنى رسول الله ، بعثنى بها رب السموات والأرض ، لأنه هو الذى يقدر عليها وعلى أمثالها ، وهى بصائر لمن استبصر بها ، وهدى لمن اهتدى بها ، يعرف من رآها من جاء بها فهو محق وأنها من عند الله لا من عند غيره ، إذ كانت معجزة لايقدر عليها إلا رب السموات الأرض .

﴿ **وإنى لأظنك يافرعون مثبورا** ﴾ : أى وإنى لأظنك يافرعون مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر .

﴿ **فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا** ﴾ :

أى فأراد فرعون أن يخرج موسى وبنى اسرائيل من أرض مصر بقتلهم واستئصالهم بحيث لا يُبقى منهم أحداً ، فعكسنا عليه مكره وأغرقناه فى البحر ومن معه من جنده جميعا ، فأخرجناه من أرضه أفظع إخراج .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الاستئذان : ٣٣ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

﴿ **وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض** ﴾ :

أى ونجينا موسى وبنى إسرائيل وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون : اسكنوا أرض الشام وهى الأرض المقدسة التى وعدتم بها .

﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا** ﴾ :

أى فإذا جاءت الساعة الأخرة حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

مع القرآن العظيم

وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)

المفردات : ﴿ **الحق** ﴾ : هو الثابت الذى لايزال ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك كدلائل التوحيد وتعظيم الملائكة ونبوة الأنبياء وإثبات البعث والقيامة . ﴿ **وفرقناه** ﴾ : أى أنزلناه مفرقاً منجما . ﴿ **والمكث** ﴾ : (بالضم والفتح) : التؤدة والتأنى . ﴿ **والخرور** ﴾ : السقوط بسرعة . ﴿ **والأذقان** ﴾ : واحدها ذقن : وهو مجتمع اللحيين . ﴿ **ادعوا الله أو ادعوا الرحمن** ﴾ : أى سموه بهذين الاسمين . ﴿ **خفت** ﴾ : الرجل بقراءته : إذا لم يبينها برفع الصوت . ﴿ **وتخافت القوم** ﴾ : القوم تسارُّوا فيما بينهم .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن القرآن معجز دال على صدق الرسول بقوله : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾ :

حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز ، بل طلبوا معجزات أخرى ، وأجابهم ربهم بأنه لاحاجة إلى شيء سواه ، وبأن موسى أتى فرعون وقومه بتسع آيات فجحدوا بها فأهلكوا ، فلو أتاكم محمد ﷺ بتلك المعجزات التى اقترحتموها ثم كفرتم بها أنزل عليكم عـذاب الاستئصال ، ولم يكن ذلك من الحكمة التى أرادها لعلمه أن منكم من يؤمن ومنكم من لا يؤمن ، ولكن سيظهر من نسله من يكون مؤمنا .

عاد هنا إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدرة وبيان أنه هو الثابت الذى لا يزول ، وأنه أنزله على نبيه مفرّقا ليسهل حفظه وتعرف دقائق أسراره ، وأنكم سيان آمنتم به أو لم تؤمنوا ، فإن من قبلكم من أهل الكتاب إذا تلى عليهم خروا سجدا وبكيا ، ثم أردف ذلك ببيان أنكم إن ناديتم الله أو ناديتم الرحمن فالامران سواء ثم قفىّ على ذلك بطلب التوسط فى القراءة فى الصلاة بين الجهر والخفوت ، ثم أمر نبيه أن يقول حين الدعاء : ﴿ **الحمد الله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا** ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس : (قال صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم ، فدعا الله تعالى فى دعائه : يا ألله يا رحمن فقال المشركون انظروا إلى هذا الصابىء ، ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فنزل : ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّا ماتدعوا فله الاسماء الحسنى** ﴾ .

وعن الفحال أنه قال : (قال أهل الكتاب لرسول الله ﷺ إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوارة هذا الاسم فنزلت) .

﴿ **وبالحق أنزلناه** ﴾ : أى أنزلنا عليك القرآن متضمناً للحق ، ففيه أمر بالعدل والإنصاف ، ومكارم الأخلاق ، ونهى عن الظلم والأفعال الذميمة ، وذكر براهين الوحدانية وحاجة الناس إلى الرسل ، لتبشيرهم وإنذارهم وحثهم على صالح الأعمال انتظارا ليوم الحساب والجزاء .

﴿ **وبالحق نزل** ﴾ : أى ونزل إليك محفوظا محروسا لم يُشب بغيره. فلم يُزد فيه ولم ينقص ، وقد يكون المراد ونزل إليك مع الحق وهو شديد القوى الأمين المطاع فى الملأ الأعلى جبريل عليه السلام .

وبعد أن مدح الكتاب مدح من أنزل عليه فقال : ﴿ **وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا** ﴾ :

أى وما أرسلناك أيها الرسول إلى من أرسلناك إليهم من عبادنا إلا مبشرا بالجنة من أطاعنا فانتهى إلى أمرنا ، ومنذرا لمن عصانا فخالف ذلك .

﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزلناه تنزيلا** ﴾ :

أى وآتيناك قرآنا فرقناه ، أى نزلناه مفرَّقا منجما ، وقد بدىء بإنزاله ليلة القدر فى رمضان ، ثم أنزل نجوما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع .

وسر نزوله هكذا بعضه إثر بعض ، أن تقرأه على الناس بتؤدة وتأن ليسهل عليهم حفظه ، ويكون ذلك أعون على تفهم معناه .

أخرج البيهقى فى الشعب عن عمر رضى الله عنه أنه قال : (تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات . فإن جبريل عليه السلام كان ينزل به خمساً خمساً) .

وكذلك أخرج ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى .

والمراد أن الغالب كذلك ، فقد صح أنه نزل بأكثر من ذلك وبأقل منه .

وفائدة قوله : ﴿ **ونزلناه تنزيلا** ﴾ بعد قوله ﴿ **فرقناه** ﴾ بيان أن ذلك التنزيل لمقتضى ، وهو التنزيل بحسب الحوادث .

ثم هددهم سبحانه على لسان نبيه ﷺ بقوله : ﴿ **قل آمنوا به أو لا تؤمنوا** ﴾ :

أى قل لهؤلاء الضالين القائلين لك : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، آمنوا بهذا القرآن الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا ، ولو كان بعضهم ظهيرا ، أو لا تؤمنوا به ، فإن إيمانكم به لن يزيد فى خزائن رحمة الله ، ولا ترككم للإيمان به ينقص ذلك .

ثم علل عدم المبالاة بهم ، واحتقار شأنهم ، بقوله : ﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا** ﴾ :

أى وإن تكفروا به فإن العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن ، وعرفوا أن الله سيبعث نبيا - يخرون لله سجداً شكرا له على إنجاز وعده بإرسالك ، حين يتلى عليهم هذا القرآن ، ويقولون فى سجودهم ، تنزه ربنا عن خلف الوعد ، إنه كان وعده آتيا لا محالة .

والخلاصة - إنكم إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم ، وفيه تسلية لرسول ﷺ ، وازدراء لشأنهم .

﴿ **ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا** ﴾ :

أى ويخرون للأذقان باكين من خشية الله إذا يتلى عليهم ، ويزيدهم مافيه من العبر والمواعظ خشوعا وخضوعا لأمر ، وطاعته . .

وقد جاء فى مدح البكاء من خشية الله أخبار كثيرة .

فقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (عينان لاتمسهما النار ، عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله تعالى)[1].

(١) أخرجه الترمذى فى فضائل الجهاد : ١٢ .

وأخرج مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (لايلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع . ولايجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم)[١].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن عبد الأعلى التيمى أنه قال : إن من أوتى من العلم مالم يُبكه لخليق أن قد أوتى من العلم مالا ينفعه ، لأن الله تعالى نعت أهل العلم فقال ﴿ **ويخرون للأذقان يبكون** ﴾ .

قال الفقهاء فى سجود التلاوة

من قرأ آية سجدة ، أو سمعها ، يستحب له أن يكبر ويسجد سجدة ثم يكبر للرفع من السجود ، وهذا يسمى سجود التلاوة ، ولا تشهد فيه ولا تسليم .

فعن نافع عن ابن عمر قال : (كان رسول الله ﷺ يقرأ علينا القرآن فإذا مر بالسجدة كبر وسجد وسجدنا)[٢] رواه أبو داود والبيهقى والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

وقال أبو داود : يعجبه لأنه كبر .

وقال عبد الله بن مسعود : (إذا قرأت سجدة فكبر واسجد ، وإذا رفعت رأسك فكبر) .

١ – فضـــله :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول : ياويله أمر بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار)[٣] رواه أحمد ومسلم وابن ماجه .

٢ – حكمـــه :

ذهب جمهور العلماء إلى أن سجود التلاوة سنة للقارىء والمستمع . لما رواه البخارى عن عمر أنه (قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النمل حتى جاء السجدة فنزل وسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال : يا أيها الناس إنا لم نؤمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه) . وفى لفظ : (إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء)[٤]

---

(١) أخرجه الترمذى فى فضائل الجهاد : ٨ ، وفى الزهد : ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٥٠٥ .

(٢) أخرجه أبو داود فى الصلاة : ١٧٥ .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٣٣ . وابن ماجه فى الإقامة : ٧٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٤٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى السجود : ١٠ .

وروى الجماعة إلا ابن ماجة عن زيد بن ثابت قال : (قرأت على النبى ﷺ ﴿ **والنجم** ﴾ فلم يسجد فيها)[١] رواه الدارقطنى وقال : (فلم يسجد منا أحد) .

ويرجح الحافظ فى الفتح أن الترك كان لبيان الجواز ، وبه جزم الشافعى . ويؤيده ما رواه البزار والدارقطنى عن أبى هريرة أنه قال : أن النبى ﷺ سجد فى سورة ﴿ **النجم** ﴾ وسجدنا معه قال الحافظ فى الفتح ورجاله ثقات .

وعن ابن مسعود (أن النبى ﷺ قرأ ﴿ والنجم ﴾ فسجد فيها وسجد من كان معه ، غير أن شيخاً من قريش أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته ، وقال يكفينى هذا . قال عبد الله : فلقد رأيته بعد قتل كافراً)[٢] رواه البخارى ومسلم .

٣ - مواضع السجود :

مواضع السجود فى القرآن خمسة عشر موضعاً ، فعن عمرو بن العاص (أن رسول الله ﷺ أقرأه خمسة عشر سجدة فى القرآن ، منها ثلاث فى المفصل وفى الحج سجدتان)[٣]. رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم والدارقطنى وحسنه المنذرى والنووى ، وهى :

١ - ﴿ إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ (٢٠٦ - الأعراف) .

٢ - ﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ . (١٥ - الرعد) .

٣ - ﴿ ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابةٍ والملائكة وهم لايستكبرون ﴾ . (٢٩ - النحل) .

٤ - ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ﴾ . (١٧ - الاسراء)

٥ - ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾ . (٥٨ - مريم)

---

(١) أخرجه البخارى فى السجود : ٦ . ومسلم فى المساجد : ١٠٦ . والترمذى فى الجمعة : ٥٢ . والنسائى فى الافتتاح : ٥٠ . والدارمى فى الصلاة : ١٦٤ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٨٣ ، ١٨٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى السجود : ١ ، ٤ ، ٥ ، وفى مناقب الأنصار : ٢٩ ، وفى تفسير سورة ٥٣ : ٤ . والترمذى فى الجمعة : ٥١ . والنسائى فى الافتتاح : ٤٩ ، ٥١ . والإمام مالك فى القرآن : ١٥ . والدارمى فى الصلاة : ١٦٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٨ ، ٤٠١ ، ٤٣٧ ، وفى ٢ : ٤٠٣ ، ٤٤٣ ، وفى ٣ : ٤٢٠ ، وفى ٤ : ٢٠٥ ، ٢١٦ ، وفى ٥ : ٣٣٩ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ٧١ .

٦ - ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل مايشاء ﴾ (١٨ - الحج) .

٧ - ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ . (٧٧ - الحج) .

٨ - ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾ . (٦٠ - الفرقان) .

٩ - ﴿ ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ . (٢٥ - النمل)

١٠ - ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون ﴾ . (١٥ - السجدة)

١١ - ﴿ وظن داود أنما فتناه * فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب ﴾ . (٢٤ - ص) .

١٢ - ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ . (٣٧ - فصلت) .

١٣ - ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ . (٦٢ - النجم)

١٤ - ﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون ﴾ . (٢١ - الانشقاق)

١٥ - ﴿ واسجد واقترب ﴾ . (١٩ - العلق) .

٤ - ما يشترط له :

اشترط جمهور الفقهاء لسجود التلاوة ما اشترطوه للصلاة ، من طهارة واستقبال قبلة وستر عورة .

وقال الشوكانى ليس فى أحاديث سجود التلاوة ما يدل على اعتبار أن يكون الساجد متوضئا ، وقد كان يسجد معه ﷺ من حضر تلاوته ولم ينقل أنه أمر أحدا منهم بالوضوء ، ويبعد أن يكونوا جميعا متوضئين ، وأيضا قد كان يسجد معه المشركون ، وهم أنجاس لايصح وضوؤهم

وقد روى البخارى عن ابن عمر (أنه كان يسجد على غير وضوء)[1].

وكذلك روى عنه ابن أبى شيبة

(١) أخرجه البخارى فى السجود : ٥ .

وأما ما رواه البيهقى عنه بإسناد – قال فى الفتح : إنه صحيح – أنه قال : (لايسجد الرجل إلا وهو طاهر) فيجمع بينهما بما قاله الحافظ من حمله على الطهارة الكبرى أو على الاختيار ، والأول على الضرورة .

وهكذا ليس فى الأحاديث مايدل على اعتبار طهارة الثياب والمكان ، وأما ستر العورة والاستقبال مع الامكان فقيل : إنه معتبر اتفاقا : قال فى الفتح : لم يوافق ابن عمر أحد على جواز السجود بلا وضوء إلا الشعبى . أخرجه ابن أبى شيبة عنه بسند صحيح

وأخرج أيضا عن أبى عبد الرحمن السلمى (أنه كان يقرأ السجدة ثم يسجد وهو على غير وضوء إلى غير القبلة وهو يمشى يومىء إيماء ومن الموافقين) لابن عمر من أهل البيت أبو طالب والمنصور بالله .

٥ – الدعـــاء فيـــه :

من سجد سجود التلاوة دعا بما شاء ، ولم يصح عن رسول الله ﷺ فى ذلك إلا حديث عائشة قالت : (كان رسول الله ﷺ يقول فى سجود القرآن : سجد وجهى للذى خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين)[(١)] رواه الخمسة إلا ابن ماجه .

ورواه الحاكم وصححه الترمذى وابن السكن ، وقال فى آخره (ثلاثا) على أنه ينبغى أن يقول فى سجوده : سبحان ربى الأعلى ، إذا سجد سجود التلاوة فى الصلاة .

٦ – السجود فى الصــلاة :

يجوز للإمام والمنفرد أن يقرأ أية السجدة فى الصلاة الجهرية والسرية ويسجد متى قرأها .

روى البخارى ومسلم عن أبى رافع قال : (صليت مع أبى هريرة صلاة العتمة – أو قال صلاة العشاء – فقرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فيها فقلت : يا أبا هريرة ما هذه السجدة ؟ فقال : سجدت فيها خلف أبى القاسم ﷺ ، فلا أزال أسجدها حتى ألقاه)[(٢)].

وروى الحاكم وصححه على شرط الشيخين عن ابن عمر : (أن النبى ﷺ سجد فى الركعة الأولى من صلاة الظهر فرأى أصحابه أنه قرأ ﴿ آلم تنزيل ﴾ السجدة .

قال النووى : لايكره قراءة السجدة عندنا للإمام كما لايكره للمنفرد ، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، ويسجد متى قرأها .

وقال مالك : يكره مطلقا .

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٠١ . وأبو داود فى السجود : ٧ . والترمذى فى الجمعة : ٥٥ ، وفى الدعوات : ٣٢ ، ٣٣ . والنسائى فى التطبيق : ٧٠ ، ٦٧ ، ٦٩ . وابن ماجه فى الإقامة : ٧٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٩٥ ، ١٠٣ ، وفى ٦ : ٣٠ ، ٢١٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى السجود : ١٠ . ومسلم فى المساجد : ١٠٣ ، ١١١ .

وقال أبو خنيفة : يكره فى السرية دون الجهرية .

قال صاحب البحر : وعلى مذهبنا يستحب تأخير السجود حتى يسلم لئلا يهوش على المأمومين .

٧ – تداخل السجدات :

تتداخل السجدات ويسجد سجدة واحدة إذا قرأ القارىء آية السجدة وكررها ، أو سمعها أكثر من مرة فى المسجد الواحد ، بشرط أن يؤخر السجود عن التلاوة الأخيرة ، فإن سجد عقب التلاوة الأولى فقيل : تكفيه ، وقيل : يسجد مرة أخرى لتجدد السبب .

٨ – قضـاؤه :

يرى الجمهور أنه يستحب السجود عقب قراءة آية السجدة أو سماعها ، فإن آخر السجود لم يسقط مالم يطل الفصل فإن طال فإنه يفوت ولايقضى .

قوله تعالى : ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ .

أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين أنكروا اسم الرحمن : سموا الله أيها القوم ، أو سموا الرحمن ، فبأى اسمائه جل جلاله تسمونه فهو حسن ، لأن كل أسمائه حسنى ، إذ فيها التعظيم والتقديس لأعظم موجود ، وهو خالق السموات والأرض وهذان الاسمان منهما .

روى مكحول : (أن رجلاً من المشركين سمع النبى ﷺ وهو يقول فى سجوده : يارحمن يارحيم ، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو اثنين فأنزل الله الآية) .

ثم أمر رسوله ﷺ بالتوسط فى القراءة ، فلا يجهر بصوته ولا يخافت به قال سبحانه : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾ :

أى ولا تجهر بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، بل ابتغ طريقا بين الجهر والمخافتة .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال (نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ مُختفٍ بمكة (يصلى خفية) فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به)[1].

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه كان يخفت فى قراءته ويقول : (أناجى ربى وقد علم حاجتى) وعمر كان يجهر بها ويقول : (أطرد الشيطان ، وأوقظ الوسنان) فلما نزلت الآية أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع صوته قليلا ، وعمر أن يخفض قليلا .

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ١٦ ، ١٧ .

ولما أمر سبحانه رسوله ألا يناديه إلا باسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد بقوله : ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل** ﴾ :

أى وقل لله ذى الجلال والكمال لك الحمد والشكر على ما أنعمت على عبادك من واسع النعم .

وقد وصف سبحانه نفسه بثلاث صفات :

١ - إنه لم يتخذ ولدا ، فإن من يتخذ الولد يمسك جميع النعم لولده ، ولأن الولد يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله وفنائه تنزه ربنا عن ذلك - ومن كان كذلك لم يستطع الإنعام فى كل الحالات ، فلا يستحق الحمد على الإطلاق .

وهى هنا رد على اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا .

٢ - إنه ليس له شريك فى الملك ، إذ لو كان له ذلك لم يعرف أيهما المستحق للحمد والشكر ، ولكان عاجزا ذا حاجة إلى معونة ، ولم يكن له ولى من الذل أى لم يوال أحدا من أجل مذلة به يدفعها بموالاته .

والخلاصة : إنه ليس له ولد يحبس نعمه عليه ، وليس له شريك يقف أعماله فى الملك ، ولا ناصر يدفع العدو المذل له ، وإذا تنزه ربنا عن ذلك فقد أمن الناس نضوب موارده وأصبحت أبوابه مفتحة لكل قاصد ، فلتعترف أيها العبد من مناهله ، ولتعلم أنه لايحابيك لاجل أهلك ولانسلك ولادينك ، ولو كنت ابن نبى من الأنبياء أو عظيم من العظماء .

﴿ **وكبره تكبيرا** ﴾ :

أى وعظم ربك أيها الرسول بما أمرناك أن تعظمه به من قول أو فعل ، وأطعه فيما أمرك به ونهاك عنه .

وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون :

١ - بتكبيره فى ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته ، وأنه غنى عن كل موجود .

٢ - بتكبيره فى صفاته باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال منزه عن صفات النقص .

٣ - بتكبيره فى أفعاله ، فتعتقد أنه لا يجرى شىء فى ملكه إلا وفق حكمته وإراداته .

٤ - بتكبيره فى أحكامه ، بأن تعتقد أنه ملك مطاع ، له الأمر والنهى ، والرفع والخفض وأنه لا اعتراض لأحد عليه فى شىء من أحكامه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء .

٥ - تكبيره فى أسمائه ، فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة .

روى أحمد فى مسنده عن معاذ الجهنى (أن رسول الله ﷺ كان يقول : آية العز ﴿ **الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا** ﴾[1].

وعن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء)[2].

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الكريم بن ابى أمية قال : (كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بنى هاشم إذا أفصح : ﴿ **الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا** ﴾ سبع مرات .

مجمل ماحوته السورة من الأغراض

١ – الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .

٢ – تاريخ بنى اسرائيل فى حالى الإرتقاء والانحطاط .

٣ – حكم وعظات للأمة الإسلامية يجب أن تراعيها حتى لاتذهب دولها كما ذهبت دولة بنى اسرائيل .

٤ – بيان أن كل مافى السموات والأرض مسبح لله .

٥ – الكلام فى البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه .

٦ – الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام .

٧ – الحكمة فى عدم إنزال الآيات التى اقترحوها على محمد ﷺ

٨ – قصة سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس من ذلك .

٩ – تعداد بعض نعم الله على عباده .

١٠ – طلب المشركين من الرسول ﷺ أن يوافقهم فى بعض معتقداتهم والحافهم فى ذلك .

١١ – أمر النبى ﷺ بإقامة الصلاة بالتهجد فى الليل .

١٢ – بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله .

١٣ – قصة موسى مع فرعون .

١٤ – الحكمة فى إنزال القرآن منجماً .

١٥ – تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٣٩ .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ١٢ .

سورة الكهف

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها مائة وعشر عند الكوفيين ، وكلماتها ألف وخمسمائة وتسع وسبعون وحروفها ستة آلاف وثلاثمائة وست .

وسميت سورة الكهف لاشتمالها على قصة أصحاب الكهف بتفصيلها .

مقصود السورة مجملا

١ – بيان نزول القرآن على سنن السداد .

٢ – تسلية النبى ﷺ فى تأخر الكفار عن الإيمان .

٣ – بيان عجائب حديث الكهف .

٤ – أمر النبى ﷺ بالصبر على الفقراء .

٥ – تهديد الكفار بالعذاب والبلاء ووعد المؤمنين بحسن الثواب .

٦ – تمثيل حال المؤمن والكافر بحال الأخوين الاسرائيليين .

٧ – تمثيل الدنيا بماء السماء ونبات الأرض .

٨ – بيان أن الباقى من الدنيا مافيه طاعة الله فقط .

٩ – ذكر أحوال القيامة وقراءة الكتب وعرض الخلق على الحق .

١٠ – إباء إبليس من السجود .

١١ – ذل الكافرين ساعة دخولهم النار .

١٢ – جدال أهل الباطل مع المحقين الأبرار .

١٣ – التخويف بإهلاك الأمم الماضية وإذلالهم .

١٤ – حديث موسى ويوشع وخضر وعجائب أحوالهم .

١٥ – قصة ذى القرنين وإتيانه إلى المشرقين والمغربين .

١٦- بنيانه لسد يأجوج ومأجوج وما يتفق لهم آخر الزمان من الخروج وذكر رحمة أهل القيامة .

١٧- ضياع عمل الكفر .

١٨- ثمرات مساعى المؤمنين الأبرار .

١٩- بيان أن كلمات القرآن بحور علم : لانهاية لها ولاغاية لأمدها .

٢٠- الأمر بالاخلاص فى العمل الصالح أبدا .

فى قوله : ﴿ **فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾

المتشـــابهات

قوله تعالى : ﴿ **سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم** ﴾ بغير واو ﴿ **ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم** ﴾ بزيادة واو .

وفى هذه الواو أقوال :

أحدهما : أن الأول والثانى وصفان لما قبلهما ، أى هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وكذلك الثانى أى هم خمسة سادسهم كلبهم ، والثالث عطف على ماقبله ، أى هم سبعة ثم عطف عليهم ﴿ **وثامنهم كلبهم** ﴾

وقيل : كل واحد من الثلاثة جملة وقعت بعدها جملة فيها عائد يعود منها إليها .

فأنت فى إلحاق واو العطف وحذفها بالخيار .

وليس فى هذين القولين ما يوجب تخصيص الثالث بالواو .

وقال بعض النحويين : السبعة نهاية العدد ، ولهذا كثير ذكرها فى القرآن والأخبار ، والثمانية تجرى مجرى استئناف كلام ، واستدلوا بقوله سبحانه : ﴿ التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾[1].

وبقوله تعالى :

﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴾[2].

وبقوله تعالى :

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴾[3].

إذْ إن أبواب الجنة ثمانية .

(١) الآية ١١٢ من سورة التوبة . (٢) الآية ٥ من سورة التحريم . (٣) الآية ٧٣ من سورة الزمر .

وقيل : إن الله تعالى حكى القولين الأولين ولم يرتضهما ، وحكى القول الثالث فارتضاه . وهو قوله تعالى : ﴿ **ويقولون سبعة** ﴾ ثم استأنف فقال : ﴿ **وثامنهم كلبهم** ﴾

ولهذا قال عقيب الأول والثانى ﴿ **رجْماً بالغيْب** ﴾ ولم يقل فى الثالث .

فإن قيل : وقد قال فى الثالث ﴿ **قل ربى أعلم بعدتهم** ﴾ فالجواب تقديره : قل ربى أعلم بعدتهم ، وقد أخبركم أنهم سبعة وثامنهم كلبهم بدليل قوله تعالى : ﴿ **مايعلمهم إلا قليل** ﴾ .

ولهذا قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل فعد أسماءهم .

وقال بعضهم : الواو فى قوله تعالى : ﴿ **ويقولون سبعة** ﴾ يعود إلى الله تعالى ، فذكر بلفظ الجمع كقوله إنا وأمثاله ، هذا على سبيل الاختصار .

قوله تعالى : ﴿ **ولئن رددت إلى ربى** ﴾ وفى حم : ﴿ ولئن رجعت إلى ربى ﴾[(١)] لأن الرد عن شيء يتضمن كراهة المردود ، ولما كان مافى الكهف تقديره : ولئن رددت عن جنتى التى أظن أنها لاتبيد أبدا إلى ربى ، كان لفظ الرد الذى يتضمن الكراهة أولى ، وليس فى حم مايدل على كراهة ، فذكر بلفظ الرجع ليأتى لكل مكان مايليق به .

قوله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها** ﴾ وفى السجدة ﴿ **ثم أعرض عنها** ﴾[(٢)] :

لأن الفاء للتعقيب ، وثم للتراخى ، وما فى هذه السورة فى الاحياء من الكفار ، أى ذكروا فأعرضوا عقيب ما ذكروا ، ونسوا ذنوبهم ، و[هم] بعد متوقع منهم أن يؤمنوا . ومافى السجدة فى الأموات من الكفار بدليل قوله : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ﴾[(٣)]

أى ذكروا مرة بعد أخرى ، وزمانا بعد زمان ، ﴿ **بآيات ربهم** ﴾ ثم أعرضوا عنها بالموت ، فلم يؤمنوا ، وانقطع رجاء إيمانهم .

قوله تعالى :

﴿ **نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر** ﴾ : والآية الثالثة : ﴿ **واتخذ سبيله** ﴾ لأن الفاء للتعقيب والعطف ، فكان اتخاذ الحوت السبيل عقيب النسيان فذكر بالفاء [و] فى الآية الأخرى لما حيل بينهما بقوله : ﴿ **وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره** ﴾ زال معنى التعقيب وبقى العطف المجرد وحرفه الواو .

قوله تعالى :

﴿ **لقد جئت شيئا إمرا** ﴾ وبعد ﴿ **لقد جئت شيئاً نكرا** ﴾ لأن الأمر : العجب ، والعجب

---

(١) الآية ٥٠ من سورة فصلت . (٢) الآية ٢٢ من سورة السجدة . (٣) الآية ١٢ من سورة السجدة .

يستعمل فى الخير والشر بخلاف النكر ، لأن النكر ما ينكره العقل فهو شر ، وخرق السفينة لم يكن معه غرق ، فكان أسهل من قتل الغلام وإهلاكه فصار لكل واحد معنى يخصه .

قوله تعالى : ﴿ **ألم أقل إنك** ﴾ وبعده ﴿ **ألم أقل لك إنك** ﴾ لأن الانكار فى الثانية أكثر وقيل : أكد التقرير الثانى بقوله (لك) كما يقول لمن توبخه : لك أقول ، وإياك أعنى ، وقيل بين فى الثانى المقول له ، لما لم يبين فى الأول .

قوله تعالى فى الأول ﴿ **فأردت** ﴾ ، وفى الثانى ﴿ **فأردنا** ﴾ وفى الثالث ﴿ **فأراد ربك** ﴾ .

لأن الأول فى الظاهر إفساد ، فأسنده إلى نفسه ، والثالث إنعام محض فاسنده إلى الله عز وجل ، وقيل : لأن القتل كان منه أما إرهاق الروح فكان من الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ **ما لم تستطع** ﴾ جاء فى الأول على الأصل وفى الثانى : ﴿ **تسطع** ﴾ على التخفيف ، لأنه الفرع .

قوله تعالى :

﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا** ﴾ :

اختار التخفيف فى الأول لأن مفعوله حرف وفعل وفاعل ومفعول فاختير فيه الحذف ، والثانى مفعوله اسم واحد وهو قوله (**نقبا**) وقرأ حمزة بالتشديد وأدغم التاء فى الطاء .

فضل السورة

صح فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من حفظ عشر آيات من أول الكهف عصم من الدجال)[1].

مناسبتها لما قبلها

١ - إن سورة الإسراء افتتحت بالتسبيح ، وهذه بالتحميد ، وهما مقترنتان فى سائر الكلام فى نحو « فسبح بحمد ربك » ونحو سبحان الله وبحمده .

٢ - تشابه ختام السالفة وافتتاح هذه ، فإن كل منهما حمد .

٣ - إنه ذكر فى السابقة قوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ والخطاب فيها لليهود ، وذكر هنا قصة موسى نبىّ إسرائيل مع الخضر عليهما السلام وهى تدل على كثرة معلومات الله التى لاتحصى ، فكانت كالدليل على ماتقدم .

---

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٥٧ . وأبو داود فى الملاحم : ١٤ . والترمذى فى ثواب القرآن : ٦ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٣ ، ١٩٦ ، وفى ٦ : ٤٤٦ ، ٤٤٩ .

٤ - إنه جاء فى السورة السابقة : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ ثم فصل ذلك هنا بقوله : **﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكَّاءَ وكان وعد ربى حقا ﴾ إلى قوله : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ﴾** .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ **العوج** ﴾ : (بالكسر والفتح) : الانحراف والميل عن الاستقامة ، فلا خلل فى لفظه ولا فى معناه . ﴿ **قيما** ﴾ : أى معتدلا لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشق على العباد ، ولاتفريط فيه بإهمال ماتمس الحاجة إليه ﴿ **والبأس** ﴾ : العذاب الشديد فى الآخرة . ﴿ **من لدنه** ﴾ : أى من عنده . ﴿ **كبرت** ﴾ : (بضم الباء) ﴿ **كلمة** ﴾ : أى ماأعظمها مقالة قيلت ، وهذا أسلوب فى الكلام يدل على التعجب والاستغراب مما حدث من قول أو فعل . ﴿ **باخع** ﴾ : أى قاتل ، قالها بن عباس . ﴿ **على آثارهم** ﴾ : أى من بعدهم أى من بعد توليهم عن الإيمان وتباعدهم عنه . ﴿ **والحديث** ﴾ : هو القرآن . ﴿ **والأسف** ﴾ : المبالغة فى الحزن والغضب . ﴿ **وصعيدا** ﴾ : أى ترابا . ﴿ **وجرزا** ﴾ : أى لانبات فيه .

هذه صورة جليلة قدرها عظيم عند الله .

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبى إسحاق قال سمعت البراء يقول : (قرأ رجل الكهف وفى الدار دابة فجعلت تنفر فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : اقرأ فلان فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت للقرآن)[1] أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة به وهذا الرجل الذى كان يتلوها هو أسيد بن الحضير .

(١) أخرجه البخارى فى المناقب : ٢٥ ، وفى فضائل القرآن : ١١ . ومسلم فى المسافرين : ٢٤٠ ، ٢٤١ . والترمذى فى ثواب القرآن : ٦ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ .

وروى الإمام أحمد بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه إلى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا مابين السماء والأرض)[٢].

وروى الحافظ أبو بكر بسنده عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ (من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضىء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين) .

وروى الإمام سعيد بن منصور بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق) .

وفى المختارة للحافظ الضياء المقدس بسنده عن على بن الحسين عن أبيه عن على مرفوعا : (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإن خرج الدجال عصم منه) .

سـبب نزولهـا :

ذكر محمد بن اسحق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال : حدثنى شيخ من أهل مصر ، قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : (بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط ، إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ماليس عندنا من علم الأنبياء .. فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله وقالا : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإلا فرجل متقول ، فترون فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبؤه ، وسلوه عن الروح ماهو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدالكم .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا يامعشر قريش قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور وأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا يامحمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ « أخبركم غدا عما سألتم عنه » ولم يستثن

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٣٩ .

فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له فى ذلك وحيا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه وشق عليه مايتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ماسألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما** ﴾ :

اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحقيق بالحمد والثناء الجميل ، نحمدك على هذه النعمة الجليلة بإنزال الكتاب الكريم على نبيك الكريم ، وعبدك الصادق الأمين ، محمد ﷺ ، ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[(١)]

لقد أنزلت عليه كتابا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وقلت فى شأن هذا الكتاب ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾[(٢)].

وقلت : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ﴾[(٣)].

وقلت : ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾[(٤)].

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾[(٥)]

وقلت : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[(٦)].

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾[(٧)].

وقلت : ﴿ **تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لايؤمنون** ﴾[(٨)] .

وقلت : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾[(٩)].

---

(١) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٢ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٣ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ٢ من سورة الاعراف .

(٥) الآية ١ من سورة يونس .

(٦) الآية ١ من سورة هود .

(٧) الآية ١ من سورة يوسف .

(٨) الآية ١ من سورة الرعد .

(٩) الآية ١ من سورة إبراهيم .

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾[١] .

وقلت : ﴿ تلك آيات القرآن وكتاب مبين * هدى وبشرى للمؤمنين ﴾[٢] .

وقلت : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[٣] .

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين ﴾[٤] .

وقلت : ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾[٥] .

وأقسمت به وقلت : ﴿ يس * والقرآن الحكيم ﴾[٦] .

وقلت : ﴿ ص * والقرآن ذى الذكر ﴾[٧] .

وقلت : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾[٨] .

وقلت : ﴿ حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾[٩] .

وقلت : ﴿ حم * تنزيل الكتاب من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون ﴾[١٠] .

وقلت : ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾[١١] .

وقلت : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾[١٢] .

وقلت : ﴿ الرحمن * عَلَّم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان ﴾[١٣] .

وقلت : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾[١٤] .

وقلت : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴾[١٥] .

وقلت : وقولك الحق : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾[١٦] .

وقلت لرسولك : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون ﴾[١٧] .

أنزلته كتاباً مستقيما لا عوج فيه ولا زيغ ولا انحراف ، انتظم أصول العقائد ، وشعائر العبادات ،

---

(١) الآية ١ من سورة الحجر .
(٢) الآيتان ١ ، ٢ من سورة النمل .
(٣) الآية ١ من سورة الفرقان .
(٤) الآية ٢ ، ٣ من سورة لقمان .
(٥) الآية ٢ من سورة السجدة .
(٦) الآيتان ١ ، ٢ من سورة يس .
(٧) الآيتان ١ ، ٢ من سورة ص .
(٨) الآية ١ من سورة الزمر .
(٩) الآيتان ١ ، ٢ من سورة غافر .
(١٠) الايات ١-٤ من سورة فصلت .
(١١) الآية ٣ من سورة الشورى .
(١٢) الآيتان ١ ، ٢ من سورة محمد .
(١٣) الآيات ١-٤ من سورة الرحمن .
(١٤) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة الزخرف .
(١٥) الآية ٣ من سورة الدخان .
(١٦) الآية الأولى من سورة القدر .
(١٧) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .

وشرائع المعاملات ، ومناهج السلوك ، وقواعد النظام ، ومبادىء الأخلاق ، أنزلته قيما فأحييت به أجيالاً من العدم ، وفتحت به قلوبا غلفا ، وأعيناً عميا ، وآذانا صمًّا .

الله اكبر ان دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

قوله تعالى : ﴿ **لينذر بأساً شديداً من لدنه** ﴾ :

هذا وعيد وتهديد بالعذاب الشديد من عند الله الذى لايعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ، لكل من أدبر واستكبر وتولى وأعرض .

قوله تعالى : ﴿ **ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبدا** ﴾ :

هذا وعد من رب العزة للمؤمنين الصادقين الذين قدموا الأعمال الصالحة ، يبشرهم ربهم أن لهم أجراً حسنا ، وهذا الأجر هو الجنة ، ونعيمها ومساكنها الطيبة ، والتى فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وأنهم ماكثون دائمون فى هذا النعيم ، كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين * ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين * لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾[(١)]

قوله تعالى : ﴿ **وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾ :

هؤلاء هم مشركو العرب ، فإنهم جعلوا الملائكة المكرمين بنات الله قال سبحانه :

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئاً إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾[(٢)].

وقال سبحانه :

﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين * فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾[(٣)].

---

(١) الآيات ٤٥-٤٨ من سورة الحجر .
(٢) الآيات ٨٨-٩٥ من سورة مريم .
(٣) الآيات ١٤٩-١٥٧ من سورة الصافات .

إن هؤلاء الجاهلين ماهم به من علم ولا لآبائهم ، إنما قالوا ماقالوا تقليدا لأهل الضلال الذين سبقوهم ، فمن عرف الله علم إنه تعالى متصف بصفات الجلال والكمال والجمال ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[١].

﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾[٢].

قوله تعالى : ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾ :

أى ما أعظمها من حكمة ، وما أكبرها من جناية تناهت فى القبح عندما يدعون أن لله ولدا وهذه الكلمة لا تتجاوز الأفواه ، إذ الحقائق تكذبها ، والحجج تدحضها ، والبراهين تمحوها ، فإنهم ما يقولون إلا كذبا لا أساس له من الصحة ، ولا نصيب له من الواقع .

قوله تعالى : ﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾ :

هذا تصبير من الله تعالى لرسوله على أذى قومه ، فقد دفعه حرصه عليهم أن يحزن ، قال له مولانا : لا تهلك نفسك على هؤلاء بعدما كذبوا هذا القرآن ، ولا تحزن عليهم ، ولاتك فى ضيق مما يمكرون ، ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا * وإنا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا** ﴾ :

قال قتادة عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء)[٤].

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها فقال تعالى : ﴿ **وإنا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا** ﴾ :

أى وإنى لمصيرها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، فنجعل كل شيء عليها هالكاً صعيدا جرزا ، لاينبت ولا ينتفع به .

قال ابن عباس ﴿ **وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا** ﴾ يقول : يهلك كل شيء عليها ويبيد .

(١) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٢) سورة الإخلاص .

(٣) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .

(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق : ١٧ ، ١١ . والترمذى فى الفتن : ٢٦ . وفى الزهد : ٤١ . والنسائى فى الزكاة : ٥٠ ، ٨٠ وابن ماجه فى الفتن : ١٩ . والدارمى فى الرقاق : ٣٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ . وفى ٦ : ٦٨ ، ٣٦٤ ، ٣٧٨ .

قال قتادة : الصعيد الأرض التى ليس فيها شجر ولا نبات .

قال ابن زيد : الصعيد الأرض التى ليس فيها شىء ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾[1].

وقال محمد بن أسحق : ﴿ **وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزاً** ﴾ يعنى الأرض وإن ما عليها لفان وبائد ، وإن المرجع لإلى الله ، فلا تأس ولا يحزنك ماتسمع وترى .

أصحـــاب الكهـــف

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ * وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ

---

(١) الآية ٢٧ من سورة السجدة .

عَلَيۡكُمۡ يَرۡجُمُوكُمۡ أَوۡ يُعِيدُوكُمۡ فِي مِلَّتِهِمۡ وَلَن تُفۡلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعۡثَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ لِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيۡبَ فِيهَآ إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم بُنۡيَٰنٗاۖ رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾

المفردات : ﴿ **أم** ﴾ : حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر . وهو بمعنى بل وهمزة الاستفهام أى بل أحسبت والخطاب فى الظاهر للنبى عليه الصلاة والسلام . والمراد غيره . ﴿ **والكهف** ﴾ : النقب المتسع فى الجبل فإن لم يكن متسعاً فهو غار . ﴿ **والرقيم** ﴾ : لوح حجرى رقمت فيه أسماؤهم كالألواح الحجرية المصرية التى يذكر فيها تاريخ الحوادث وتراجم العظماء . ﴿ **أوى إلى المكان** ﴾ : اتخذه مأوى ومكانا له . ﴿ **والفتية** ﴾ : واحدهم فتى وهو الشاب الحدث وقد كانوا من ابناء اشراف الروم وعظمائهم . ﴿ **وهيء** ﴾ : أى يسر . ﴿ **والرشد** ﴾ : (بفتحتين وضم فسكون) الهداية إلى الطريق الموصل للمطلوب . ﴿ **فضربنا على آذانهم** ﴾ : أى ضربنا عليها حجاباً يمنع السماع كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها قبة والمراد أنمناهم نومة لاتنبههم الأصوات الموقظة . ﴿ **عددا** ﴾ : أى ذوات عدد والمراد التكثير لان القليل لايحتاج إلى العد غالبا ﴿ **بعثناهم** ﴾ : أى ايقظناهم وأثرناهم من نومهم . ﴿ **والحزبين** ﴾ : هما الحزب القائل لبثنا يوماً أو بعض يوم والحزب القائل ربكم اعلم بما لبثتم . ﴿ **وأحصى** ﴾ : أى اضبط لأوقات لبثهم . ﴿ **والأمد** ﴾ : مدة لها حد وغاية . ﴿ **النبأ** ﴾ : الخبر العظيم وبالحق : أى بالصدق ﴿ **الربط** ﴾ : الشد وربطت الدابة : شددتها بالرباط . ﴿ **والمربط** ﴾ : الحبل وربط الله على قلبه أى قوى عزيمته . ﴿ **قاموا** ﴾ : أى وقفوا بين يدى ملكهم الجبار دقيانوس . ﴿ **إلهآ** ﴾ : أى معبوداً آخر . ﴿ **اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ : أى نحتوا أصناماً وعبدوها . ﴿ **والسلطان** ﴾ : الحجة . ﴿ **والبين** ﴾ : الظاهر . ﴿ **والاعتزال والتعزل** ﴾ : تجنب الشيء بالبدن أو بالقلب . ﴿ **فأووا إلى الكهف** ﴾ : أى التجئوا إليه وينشر لكم : أى يبسط لكم . ﴿ **المرفق** ﴾ :

مايرتفق وينتفع به . ﴿ **وتزاور** ﴾ : تتنحى . ﴿ **وذات اليمين** ﴾ : أى جهة يمين الكهف .
﴿ **وتقرضهم** ﴾ : أى تعدل عنهم قال الكسائى : يقال : قرضت المكان : إذا عدلت عنه ولم تقر به .
﴿ **فجوة** ﴾ : أى متسع . ﴿ **والإيقاظ** ﴾ : واحدهم يقظ (بضم القاف وكسرها . ﴿ **والرقود** ﴾ :
واحدهم راقد . أى نائم . ﴿ **وباسط ذراعيه** ﴾ : أى مادهما . ﴿ **والوصيد** ﴾ : فناء الكهف .
﴿ **والرعب** ﴾ : الخوف يملأ الصدر . ﴿ **بعثناهم** ﴾ : أى أيقظناهم . ﴿ **لبثتم** ﴾ : أى أقمتم .
﴿ **والورق** ﴾ : الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة . ﴿ **وأزكى** ﴾ : أجود وأطيب .
﴿ **وليتلطف** ﴾ : أى يتكلف اللطف فى المعاملة كى لاتقع خصومة تجر إلى معرفته . ﴿ **ولا يشعرن** ﴾ :
أى لايفعلن : أى لايفعلن ما يؤدى إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم . ﴿ **إن يظهروا عليكم** ﴾ :
أى إن يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم وأصل العثور السقوط للوجه يقال عثر عثورا وعثارا إذا سقط
لوجهه ويقال فى المثل (من سلك الجدد أمن العثار) . ثم أستعمل فى الاطلاع على أمر من غير طلب له .
﴿ **والساعة** ﴾ : يوم القيامة حين يبعث الله الخلائق جميعاً للحساب والجزاء . ﴿ **والتنازع** ﴾ :
التخاصم . ﴿ **والذين غلبوا على أمرهم** ﴾ : هم رؤساء البلد لأنهم هم الذين لهم الرأى فى مثل هذا .
﴿ **المسجد** ﴾ : معبد المؤمنين من تلك الأمة وكانوا نصارى على المشهور . ﴿ **والرجم** ﴾ : القول بالظن
ويقال لكل مايخرص : رجم فيه وحديث مرجوم ومرجمٌ . ﴿ **والغيب** ﴾ : وأغاب عن الإنسان فالمراد
ان يرمى الانسان ماغاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة كما يقال فلان يرمى بالكلام رميا : أى يتكلم من غير
تدبر . والمراد هنا القول بالظن والتخمين . ﴿ **المراء** ﴾ : المحاجة فيما فيه مرية وتردد . والمراء الظاهر :
مالا تعمق فيه بالا يكذبهم فى تعيين العدد بل يقول هذا التعيين لا دليل عليه فيجب عدم الجزم به . ﴿ **ولا
تستفت** ﴾ : أى لاتطلب الفتيا منهم .

قصة أهل الكهف

روى أن النصارى عظمت فيهم الخطايا ، وطغت ملوكهم ، حتى عبدوا الأصنام ، وأكرهوا الناس على عبادتها ، وأصدر (الملك دقيانوس) الأوامر المشددة فى ذلك ومعاقبة من يخالفه ، وأراد أن يلزم فتية من أشراف قومه عبادتها ، وتوعدهم بالقتل فأبوا إلا الثبات على دينهم ، فنزع ثيابهم وحليهم ، ولكنه رحم شبابهم فأمهلهم لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، وهكذا ذهب الملك إلى مدن أخرى ليحث أهلها على عبادتها وإلا قتلوا .

أما الفتية فإنهم انطلقوا إلى كهف قريب من مدينتهم (أقسوس أو طرسوس) فى جبل يدعى (نيخايوس) وأخذوا يعبدون الله فيه حتى إذا هجم عليهم (قيانوس وهم بقتلهم هربوا وماتوا طائعين ، وقد كانوا سبعة ، فلما فروا فى الطريق إلى الكهف تبعهم راع ومعه كلبُ فجلسوا هناك يعبدون الله ، وكان من بينهم امرؤ يدعى (تمليخا) يبتاع لهم طعامهم وشرابهم ، ويبلغهم أخبار دقيانوس الذى لا يزال مجداً فى طلبهم ، إذا عاد من مطافه ووصل إلى مدينتهم بحث عن هؤلاء العباد والنساك ليذبحهم ، أو يسجدوا للأصنام .

فسمع بذلك تمليخاً بينما كان يشترى لهم الطعام خفية فأخبرهم فبكوا ، ثم ضرب الله على آذانهم فناموا ، وتذكرهم دقيانوس فهدد آباءهم إن لم يحضروهم فدلوه عليهم ، وقالوا انهم فى الكهف فتوجه إليهم فهدّه عليهم ليموتوا هناك وينتهى الأمر على ذلك .

وقد كان فى حاشية الملك رجلان يكتمان إيمانهما وهما بيدروس وروناس ، فكتبا قصة هؤلاء الفتية سرا فى لوحين من حجر ، وجعلاها فى تابوت من نحاس ، وجعلا التابوت فى البنيان ليكون ذلك عظة وذكرى لمن سيجىء من بعد .

ثم مضت قرون يتلو بعضها بعضا ، ولم يبق لدقيانوس ذكر ولا أثر وبعدئذ ملك البلاد صالح يسمى بيدروس ، دام ملكه ٦٨ سنة ، وانقسم الناس فى شأن البعث والقيامة فرقتين : فرقة مؤمنة به وأخرى كافرة ، فحزن الملك لذلك حزنا شديدا وضرع إلى الله أن يرى الناس آية يرشدهم بها إلى أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وقد خطر إذ ذاك ببال راع يسمى (أولياس) أن يهدم باب الكهف ، ويبنى به حظيرة لغنمه ، فلما هدمه استيقظوا جميعا فجلسوا مستبشرين ، وقاموا يصلون .

ثم قال بعضهم لبعض : كم لبثتم نياما ؟ قال بعضهم : لبثنا يوماً أو بعض يوم . وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم (الورق الفضة) هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما وليحضر لنا جانبا منه ، فذهب تمليخا كما اعتاد من قبل ليشترى لهم الطعام وهو متلطف فى السؤال ، مختف حذر من دقيانوس .

وبينما هو ماش سمع اسم المسيح ينادى به فى كل مكان ، فحدث نفسه وقال : عجباً لم لم يذبح دقيانوس هؤلاء المؤمنين ؟ وبقى حائراً دهشاً وقال : ربما أكون فى حلم ، ولعل هذه ليست مدينتنا فسأل رجلا : ما اسم هذه المدينة قال (أفسوس) وفى آخر مطافه تقدم إلى رجل فأعطاه ورقا ليشترى به طعامه ، فدهش الرجل من نوع هذا النقد الذى لم يره من قبل ، وأخذ يقلبه ، ويعطيه إلى جيرته وهم يعجبون منه ، ويقولون له : أهذا من كنز عثرت عليه ، فإن هذه الدراخم من عهد دقيانوس ، وقد مضت عليه حقبة طويلة .

ثم أخذوه وقادوه إلى حاكمى المدينة فظن فى بادىء الأمر أنهم ساقوه إلى دقيانوس ، ولكن لما عرف أنه لم يؤت به إليه زال عنه الكرب ، وجفت مدامعه ، ثم سأله حاكما المدينة وهما أريوس وطنطيوس : أين الكنز الذى وجدت يافتى ؟

وبعد حوار بينه وبينهما ذكر لهما خبر الفتية ودقيانوس ، وأن حديثهما كان أمس ، وإن كان لديكما ريب من أمرى فها هو ذا الكهف ، فاذهبا معى لتريا صدق ما أقول ، فسارا معه حتى وصلا إلى باب الكهف وتقدمهما تمليخا ، فأخبرهما بالحديث كله ، فداخلهما العجب حين علما أنهم ناموا تسعا وثلاثمائة سنة ، وأنهم أوقظوا ليكونوا آية للناس .

ثم دخل أريوس فرأى تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم ، وبداخله لوحان مكتوب عليهما قصة هؤلاء الفتية ، وكيف هربوا من دقيانوس حرصاً على عقيدتهم ودينهم ، فسد عليهم بالحجارة .

ولما رأى أريوس ومن معه هذا القصص خروا لله سجدا ، وأرسلوا بريدا إلى ملكهم أن عجل واحضر لترى آية الله فى أمر فتية بعثوا بعد أن ناموا ثلاثمائة سنة .

ثم سار الملك ومعه ركب من حاشيته وأهل مدينته ، حتى أتوا مدينة أفسوس ، وكان يوماً مشهوداً ، وحين رأى الفتية خر ساجدا لله ، ثم أعتنقهم وبكى وهم لايزالون يسبحون ، ثم قال الفتية له : أيها الملك نستودعك الله ونعيذك من شر الإنس والجن ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وقبضت أرواحهم .

فأمر الملك أن يجعل كل منهم فى تابوت من ذهب ، وحين جن الليل ونام رآهم فى منامه يقولون له : اتركنا كما كنا فى الكهف ننام على التراب حتى يوم البعث ، فأمر الملك إن يوضعوا فى تابوت من ساج ، وألا يدخل عليهم أحد بعد ذلك ، وأن يبنى على باب الكهف مسجد يصلى فيه الناس ، وجعل لهم ذلك اليوم عيدا عظيماً .

ذلك هو القصص الذى جعله النصارى دليلا على البعث .

أما القرآن الكريم فإنه يقول إن آياتى على البعث وإعادة الأرواح بعد الموت ليست مقصورة على هذا القصص وحده ، فآياتى عليه لاتُعد ولا تحصى ، فاقرءوا صحائف هذا الوجود ،ولا تقصروا أمركم على صحائف أهل الكهف والرقيم واجعلوا انظاركم تتجه إلى ماحواه الكون لا إلى ماكتب فى القصص والحكايات ، وإن كانت فيها الدلائل والآيات .

قوله تعالى : ﴿ **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا** ﴾ :

أى لاتحسب أن قصة أصحاب الكهف والرقيم المذكورة فى الكتب السالفة حين استمروا أحياء أمدا طويلا عجيبه بالاضافة إلى ماجعلناه على ظهر الأرض من الزينة ، فليست هى بالعجب وحدها من بين آياتنا ، بل زينة الأرض وعجائبها أبدع وأعجب من قصة أصحاب الكهف ، فإذا وقف علماء الأديان الأخرى لدى أمثالها دهشين حائرين ، فأنا أدعوك وأمتك إلى ماهو أعظم منها ، وهو النظر فى الكون وعجائبه من خلق السموات والأرض وأختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب إلى نحو أولئك من الآيات الدالة على قدرة الله ، وانه يفعل مايشاء ، لا معقب لحكمه .

أما القصص وغرائبها فلا تكفى للوصول إلى أبواب الخير والسعادة التى يطمع إليها الإنسان ، ويجعلها مثله العليا ليفوز بخيرى الدنيا والآخرة ، فابحث عما نقش فى صحائف الأكوان ، لافى صحائف الكهوف والغيران .

قال الزجاج :

أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم ﴿ **إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيّئ لنا من أمرنا رشدا** ﴾ :

أى اذكر أيها الرسول حين أوى أولئك الفتية إلى الكهف هربا بدينهم من أن يفتنهم عباد الأصنام والأوثان ، وقالوا إذ ذاك : ربنا يسر لنا بما نبتغى من رضاك وطاعتك رشدا من أمرنا ، وسدادا إلى العمل الذى نحب ، وارزقنا المغفرة ، والأمن من الأعداء .

﴿ **فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا** ﴾ :

أى فضربنا على آذانهم حجاباً يمنعهم السماع ، وأنمناهم نوماً لاينبههم فيه مختلف الأصوات فى الكهف سنين كثيرة معدودة .

﴿ **ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا** ﴾ :

أى ثم أيقظناهم من رقدتهم لنعلم أى الطائفتين المتنازعتين فى مدة لبثهم أضبط فى الإحصاء والعد لمدة هذا اللبث فى الكهف .

وخلاصـــة ذلك :

إنا بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبر حالهم لنرى أيهم أحصى لما لبثوا أمدا ، فيظهر لهم عجزهم ، ويفوّضوا ذلك إلى العليم الخبير ، ويتعرفوا ماصنع الله بهم من حفظ أبدانهم ، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته تعالى وعلمه ، ويستبصروا به فى أمر البعث ، ويكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم .

﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق** ﴾ :

أى نحن ننبئك نبأ هؤلاء الفتية الذين آووا إلى الكهف نبأ حقاً لامحل للريبة فيه ، وفى هذا إيماء إلى أن نبأهم كان معروفا لدى العرب على وجه ليس بالصدق ، ويدل على ذلك قول أمية بن الصلت :

وليس بها إلا الرقيـم مجـاورا
وصيدهمـو والقـوم فى الكهـف هُجَّـدُ

ثم فصل ذلك بقوله :

﴿ **إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى** ﴾ :

أى إنهم شباب آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، بالتثبيت على الايمان ، والتوفيق للعمل الصالح ، والانقطاع إلى الله ، والزهد فى الدنيا .

وقد جرت السعادة أن الفتيان أقبل للحق وأهدى سبيلا من الشيوخ الذين قد انغمسوا فى الأديان الباطلة ، ومن ثم كان أكثر الذين استجابوا لله ورسوله ﷺ شبانا ، وبقى الشيوخ على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾[١]

وقوله ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾[٢]

وقوله : ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾[٣]

فى أى زمن كان قصص أهل الكهف ؟

رجح ابن كثير أن قصص أهل الكهف كان قبل مجىء النصرانية لابعدها ، كما رواه كثير من المفسرين متبعين ما أثر عن العرب ، والدليل على ذلك ان أحبار اليهود كانوا يحفظون أخبارهم ، ويعنون بها

فقد روى عن ابن عباس : أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ .

فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء الفتية ، وعن خبر ذى القرنين ، وعن الروح ، وفى هذا أعظم الأدلة على أن ذلك كان محفوظا عند أهل الكتاب ، وأنه مقدم على النصرانية .

قوله تعالى :

﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ :

أى وألهمناهم قوة العزيمة ، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان ، حتى عزفت نفوسهم عما كانوا عليه من خفض العيش ، والرغبة عنه ، وقالوا حين قاموا بين يدى الجبار دقيانوس إذ عاتبهم على تركهم عبادة الأصنام . ربنا رب السموات والأرض ، ورب كل مخلوق .

ثم أردفوا تلك المقالة البراءة من إله غيره فقالوا : **﴿ لن ندعوا من دونه إلها ﴾** :

أى لن ندعو من دون رب السموات والأرض إلهاً لا على طريقة الاستقلال ، ولا على سبيل الاشتراك ، إذ لا رب غيره ولا معبود سواه .

وقد أشاروا بالجملة الأولى إلى توحيد الألوهية والخلق ، وبالجملة الثانية إلى توحيد الربوبية والعبادة ، وعبدة الأصنام يقرون بتوحيد الأولى ، ولا يقرون بتوحيد الثانية .

(١) الآية ١٧ من سورة محمد .
(٢) الآية ١٢٤ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٤ من سورة الفتح .

بدليل قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾[١]

وقوله سبحانه حكاية عنهم : ﴿ إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٢]

وكانوا يقولون فى تلبيتهم فى الحج : لبيك لاشريك لك : إلا شريكا هولك تملكه وماملك

ثم عللوا عدم دعوتهم لغيره بقولهم : **﴿ لقد قلنا إذاً شططا ﴾** :

أى إنا إذا دعونا غير الله لقد أبعدنا عن الحق ، وتجاوزنا الصواب .

وفى هذا إيماء إلى أنهم دعوا لعباده الأصنام وليموا على تركها .

ثم حكى سبحانه عن أهل الكهف مقالة بعضهم لبعض فقال : **﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾** :

أى أن قومنا هؤلاء وإن كانوا أكبر منا سناً ، وأكثر تجربة قد أشركوا مع الله غيره ، فهلا أتوا بحجة بينة على صدق مايقولون ، كما أتينا على صدق ماندعى بالأدلة الظاهرة ، وإنهم لأظلم الظالمين فيما فعلوا وفيما افتروا .

ومن ثم قال : **﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾** :

أى لا أظلم ممن أفترى على الله الكذب ونسب إليه الشريك تعالى عن ذلك علوا كبيرا **﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا ﴾** :

أى وإذ فارقتموهم وخالفتموهم فى عبادتهم غير الله ، ففارقوهم بأبدانكم والجئوا إلى الكهف ، وأخلصوا لله العبادة فى مكان تتمكنون منها بلا رقيب ولا حسيب ، وإنكم إن فعلتم ذلك فالله تعالى يبسط لكم الخير من رحمته فى الدارين ، ويسهل لكم من أمر الفرار بدينكم والتوجه إليه فى عبادتكم ماترتفقون وتنتفعون به .

وقد قالوا ذلك ثقة بفضل الله تعالى ورجاء منه ، لتوكلهم عليه وكمال إيمانهم به .

أخرج الطبرانى وابن المنذر عن ابن عباس قال : مابعث الله نبياً إلا وهو شاب وقرأ : ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ﴾[٣].

﴿ وإذ قال موسى لفتاه ﴾ ، ﴿ إنهم فتية ﴾ .

ثم بين سبحانه حالهم بعد أن أووا إلى الكهف فقال : **﴿ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه ﴾** :

---

(١) الآية ٢٥ من سورة لقمان . (٢) الآية ٣ من سورة الزمر . (٣) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء .

أى إنك أيها المخاطب لو رأيت الكهف لرأيت الشمس حين طلوعها تميل عنه جهة اليمين ، ورأيتها حين الغروب تتركهم وتعدل عنهم جهة الشمال ، والحال أنهم فى وسطه ومتسعه فيصيبهم نسيم الهواء وبرده .

وخلاصة ذلك :

إنهم طوال نهارهم لاتصيبهم الشمس فى طلوعها ولا فى غروبها ، إذ كان باب الكهف فى مقابلة بنات نعش ، فهو إلى الجهة الشمالية ، والشمس لاتسامت ذلك أبداً ، لأنها لاتصل إلى أبعد من خط السرطان ، وكل بلاد بعده إلى جهة الشمال تكون الشمس من ورائها لا أمامها فيكون الظل مائلا جهة الشمال طول السنة ، كما يعلم ذلك من علم الفلك .

وإيضاح ذلك أنه لو كان باب الكهف فى ناحية الشرق لما دخل إليه شىء منها حين الغروب ، ولو كان باب الكهف فى ناحية الجنوب لما دخل شىء حين الطلوع ولا الغروب ، وما تزاور الفىء لايمينا ولاشمالا ، ولو كان جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ، ولاتزال فيه إلى الغروب .

مكان الكهف

وللمفسرين فى تعيين مكان الكهف أقوال : فقيل هو قريب من إيلياء « بيت المقدس » ببلاد الشام .

وقال ابن اسحاق : عند « نينوى » ببلاد الموصل وقيل ببلاد الروم ولم يقم إلى الآن الدليل على شىء من ذلك ولو كان لنا فى معرفة ذلك فائدة دينية لأرشدنا الله إليه كما قال ﷺ : (ما تركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا وقد أعلمتكم به) .

﴿ ذلك من آيات الله ﴾ :

أى إن هدايتهم إلى التوحيد ومخالفتهم قومهم وآباءهم وعدم الاكتراث بهم ، وبملكهم مع حداثتهم وإيواءهم إلى كهف تلك صفته ، بحيث تزاور الشمس عنهم طالعة وتقرضهم غاربة ، وإخبارك بقصصهم كل ذلك من آيات الله الكثيرة فى الكون الدالة على كمال قدرته ، وعلى أن التوحيد هو الدين الحق ، وعلى أن الله يكرم أهله .

ثم بين أن هدايتهم إلى التوحيد كانت بعناية الله ولطفه فقال : **﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ :**

أى من يوفقه الله للاهتداء بآياته وحججه إلى الحق كأصحاب الكهف فهو المهتدى الذى أصاب سبيل الحق ، وفاز بالحظ الأوفر فى الدارين .

وفى هذا إيماء إلى أن أصحاب الكهف أصابوا الصواب ، ووفقوا لتحقيق ما أملوا من نشر الرحمة

عليهم ، وتهيئة المرفق . ﴿ **ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ : أى ومن يضلله الله لسوء استعداده وصرف اختياره إلى غير سبل الهدى والرشاد ، فلن تجد له ابداً خليلا ولا حليفاً يرشده لإصابة سبل الهداية ، وتخلصه من الضلال ، لأن التوفيق والخذلان بيد الله يوفق من يشاء من عباده ويخذل من يشاء .

وفى هذا تسلية لرسوله وإرشاد له إلى انه لاينبغى له أن يحزن على إدبار قومه عنه ، وتكذيبهم إياه ، فإن الله لوشاء لهداهم وآمنوا .

﴿ **وتحسبهم أيقاظا وهم رقود** ﴾ :

أى ولو رأيتهم لظننتهم فى حال يقظة لانفتاح أعينهم وهم نيام ، كأنهم ينظرون إلى من أمامهم ، ولما للنوم من الحال الخاصة به التى يستبينها الناظر بادىء ذى بداء كاسترخاء المفاصل والأعضاء ولاسيما العينان والوجه .

﴿ **ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال** ﴾ :

ونقلب هؤلاء الفتية فى رقدتهم مرة للجنب الأيمن ، ومرة للجنب الأيسر ، كى ينال روح النسيم جميع أبدانهم ، ولا يتأثر مايلى الأرض منها بطول المكث .

﴿ **وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد** ﴾ :

أى وكلبهم ملق يديه على الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين بفناء الكهف ، كما روى عن ابن عباس ، وقيل المراد بالوصيد الباب .

﴿ **لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً** ﴾ :

أى لو شاهدتهم فى رقدتهم التى رقدوها فى الكهف لأدبرت عنهم هارباً فاراً منهم .

﴿ **ولملئت منهم رعبا** ﴾ :

أى ولملئت نفسك حين اطلاعك عليهم خوفا وفزعا ، لأن الله قد ألبسهم هيبة ووقارا ، كى لايصل إليهم واصل ، ولاتلمسهم يد لامس ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتوقظهم من رقدتهم قدرته وسلطانه فى الحين الذى أراد ان يجعلهم فيه عبرة لمن شاء من خلقه ، وآية لمن أراد الاحتجاج عليهم من عباده ، وليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة آتية لاريب فيها .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك بعثناهم** ﴾ :

أى كما أرقدنا هؤلاء الفتية فى الكهف وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ، وثيابهم من العفن على مر الأيام بقدرتنا بعثناهم من رقدتهم ، وأيقظناهم من نومهم ، لنعرفهم عظيم سلطاننا ، وعجيب فعلنا فى خلقنا ، وليزدادوا بصيرة فى أمرهم الذى هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة ،

وإخلاصهم العبادة لله الواحد القهار ، إذا تبينوا طول الزمان عليهم وهم بهيئتهم حين رقدوا .

﴿ ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم ﴾ :

أى ولتكون عاقبة أمرهم أن يسأل بعضهم بعضا ، فيقول قائل منهم لأصحابه : كم لبثتم ؟ ذاك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم .

﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ :

أى فأجابه الآخرون ، فقالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ظنا منهم إن ذلك كذلك كان .

وإيضاح هذا أنهم لم يتحققوا مقدار لبثهم ، فهم لايدرون مقدار ذلك اللبث أيوم هو أو بعض يوم ؟ لأن لوثة النوم وظواهره لم تذهب من بصرهم وبصيرتهم ، فلم ينظروا إلى الأمارات التى تدل على ذلك المقدار الذى يظن انه قد كان .

وأكثر المفسرين على أن دخولهم فى الكهف كان أول النهار واستيقاظهم كان آخر النهار .

﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ :

أى وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم ، أى أنتم لاتعلمون فترة لبثكم ، بل الله هو الذى يعلمها ، وهذا من الأدب البارع فى الرد على الأولين بأحسن أسلوب ، وأجمل تعبير .

وحين علموا أن الأمر ملتبس عليهم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا : **﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة ﴾ :**

أى فابعثوا بدراهمكم هذه إلى المدينة وهى طرسوس ، كما جزم بذلك فخر الدين الرازى .

وفى قولهم **﴿ هذه ﴾** إشارة إلى أن القائل كان قد احضرها ليناولها بعض أصحابه .

وإلى أن التأهب لأسباب المعاش بحمل الدراهم ونحوها لمن خرج من منزله ، لاينافى التوكل على الله كما جاء فى الحديث : (اعقلها وتوكل)[1].

قوله تعالى : **﴿ فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه ﴾ :**

أى فليبصر أى الأطعمة أجود وألذ فليأتكم بمقدار منه . **﴿ وليتلطف ولايشعرن بكم أحدا ﴾ :**

أى وليترفق فى دخول المدينة ، وفى شرائه ، وفى إيابه منها ، ولا يخبرن بمكانكم أحدا من أهلها .

ثم ذكروا تعليل الأمر والنهى السالفين بقولهم : **﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ﴾ :**

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٦٠ .

أى أن الكفار إن علموا بمكانكم ولم تفعلوا مايريدون منكم ، بل ثبتم على إيمانكم إما أن يقتلوكم رميا بالحجارة .

وكان ذلك هو المتبع فى الأزمنة الغابرة ، فيمن يعلن خلاف ماعليه الجماهير فى الأمور الدينية والسياسية التى لها شأن فى الدلوة .

وإما أن يعيدوكم إلى ملة آبائكم التى هم مستمسكون بها .

﴿ ولن تفلحوا إذاً أبدا ﴾ :

أى وإن دخلتم فى ملتهم ولو بالاكراه والقسر ، لن تفوزوا بخير لافى دنياكم ولافى آخرتكم ، إذ ربما استدرجكم الشيطان إلى أن تستحسنوا ما ستعتنقونه من ذلك الدين الجديد ، وتستمرئوه فتستمروا عليه ، فيكون قد كتب عليكم الشقاء عند ربكم ، والخذلان الذى لاخذلان بعده .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها ﴾ :

أى وكما بعثناهم بعد طول رقدتهم كهيئتهم حين رقدوا ليتساءلوا بينهم ، فيزدادوا بصيرة بعظيم سلطانه تعالى ، ومعرفة حسن دفاع الله عن أوليائه ، أعثرنا عليهم الفريق الآخر الذين كانوا فى شك من قدرة الله على إحياء الموتى ، وفى مرية من انشاء أجسام خلقة كهيئتهم يوم قبضهم بعد البلى ، ليعلموا أن وعد الله حق ، ويؤمنوا أن الساعة آتية لاريب فيها ، إذ لاحجة لمن أنكرها إلا الاستبعاد ، ولكن وقوع ذلك الأمر العظيم وعلمهم به مما يخفف من غلوائهم ، ويكبح جماح إنكارهم ، ويردهم إلى رشدهم .

ذلك أن حال هؤلاء الفتية فى تلك الحقبة الطويلة وقد حبست عن التصرف نفوسهم ، وعُطلت مشاعرهم وحواسهم ، وحفظت من التحلل والتفتت أبدانهم ، وبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب ، ثم رجعت بعدئذ تلك المشاعر والحواس إلى حالها ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وأرسلت إلى تدبير أبدانها ، فرأت الأمور كما كانت ، والأعوان هم الأعوان ، ولم تنكر شيئاً عهدته فى مدينتها ، ولم تتذكر حبسها المدى الطويل عن التصرف فى شئونها ، وحال الذين يقومون من قبورهم بعد ما تعطلت مشاعرهم ، وحبست نفوسهم من واد واحد فى الغرابة ولاينكر ذلك إلا جاهل أو معاند .

ووقوع الأول يزيل الارتياب فى إمكان وقوع الثانى ، ولايبقى بعد ذلك شك فى أن وعد الله حق ، وأن الله سيبعث من فى القبور ، فيرد عليهم أرواحهم ويجازيهم جزاء وفاقا ، بحسب أعمالهم إن خيراً فخير ،وإن شرا فشر ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

قوله تعالى : ﴿ إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ :

أى وكذلك أطلعنا عليهم بيدروس وقومه حين ينازع بعضهم بعضا فى أمر البعث ، فمن مقر به وجاحد له ، وقائل تبعث الأرواح دون الأجساد ، ففرح الملك وفرحوا بآية «لله على البعث ـ وزال

مابينهم من الخلاف فى أمر القيامة ، وحمدوا الله إذ رأوا ما رأوا مما يثبتها ، ويزيل كل ريب فيها .

ثم حكى آراء القوم فى شأنهم بعد اطلاعهم عليهم فقال :

﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ :

أى أنهم انقسموا فى شأنهم فريقين ، فريق يقول : نسد عليهم باب الكهف ونذرهم حيث هم ، وفريق يقول : نبنى عليهم مسجداً يصلى فيه الناس ، وقد غلب هذا الفريق الفريق الأول فى الرأى .

وقوله : ﴿ **ربهم أعلم بهم** ﴾ : جملة معترضة من كلامه تعالى ، ردا للخائضين فى أمرهم ممن اعثروا عليهم ، أو ممن كان فى عهده ﷺ من أهل الكتاب فى بيان أنسابهم وأسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم .

وقد ذكر العلماء أن اتخاذ القبور مساجد منهى عنه أشد النهى ، حتى ذكر ابن حجر فى كتابه الزواجر أنه من الكبائر .

روى أحمد وأبو داود عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : (لعن الله تعالى زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)[١] وزاد مسلم (ألا وأن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك)[٢].

وعن رسول الله ﷺ قال : (لعن الله تعالى اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[٣].

وعن رسول الله ﷺ قال : (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ومن يتخذ القبور مساجد)[٤].

قوله تعالى : **﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾** .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٧٨ . والترمذى فى الصلاة : ١٢١ . والنسائى فى الجنائز : ١٠٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الصلاة : ٢١٣ ، ١٢١ . وأبو داود فى الوتر : ١ . والنسائى فى الجنائز : ١٠٤ ، ١٠٦ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٨٦ . والدارمى فى الصلاة : ١٢٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٦ ، ١٢٣ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٦١ ، ٩٦ . ومسلم فى المساجد : ١٩–٢٣ . والنسائى فى المساجد : ١٣ . والإمام مالك فى السفر : ٨٥ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٠٤ .

(٤) أخرجه البخارى فى الصلاة : ٤٨ ، وفى الجنائز : ٦١ ، ٩٦ .

أى سيقول بعض الخائضين من أهل الكتاب ذلك ، فقد روى أن نصارى نجران تناظروا مع رسول الله ﷺ فى عدد أهل الكهف ، فقالت الملكانية (أصحاب الملك) : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقالت النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وروى هذا عن ابن عباس ، وهو الحق بدليل أنه تعالى حكم على القولين السابقين بأنهما)رجم بالغيب ، فأرشد ذلك إلى أن الحال فى الأخير بخلافه ، وأنهم إنما قالوه عن ثبات علم ، وطمأنينة نفس .

﴿ قل ربى أعلم بعدتهم ﴾ :

فى هذا ارشاد لنا إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم الى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم ، فإن أطلعنا على أمر قلنا به ، وإلا توقفنا ولم نجزم بشىء .

﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ :

أى ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس .

روى قتادة عن ابن عباس أنه قال : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل كانوا سبعة سوى الكلب ، ولم يرد فى الصحيح عن النبى ﷺ شىء فى ذلك .

وفى هذا دلالة على أن المهم ليس هو معرفة العدد ، بل المهم الاعتبار بذلك القصص ، وبما يكون نافعا لعقولنا وتطهير أخلاقنا ورقينا فى حياتنا الدنيوية والأخروية .

وبعد أن ذكر سبحانه هذا القصص ، نهى رسول الله ﷺ عن شيئين : المراء فى أمرهم ، والاستفتاء فى شأنهم فقال : **﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾** :

أى فلا تجادل فى شأن الفتية إلا جدلا سهلا لينا ، وقص عليهم ما جاء فى الكتاب الكريم دون تكذيب لهم فى تعيين العدد ولا تجهيل لهم فى الحديث ، إذ لا يترتب على ذلك كبير فائدة ، لأن المقصد من القصة هو العظة والاعتبار ، ومعرفة أن البعث حاصل لا محالة وهذا لا يتوقف على عدد معين ، إلى أن ذلك مما يخل بمكارم الأخلاق التى بعث لاتمامها ، ونحو الآية قوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾[1] .

﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ :

أى ولا تستفت النصارى فى شأنهم فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم ، رجماً بالغيب من غير استناد إلى دليل قاطع ، ولا نص صريح ، وقد جاءك ربك بالحق الذى لا مرية فيه ، فهو الحاكم المقدم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال السالفة .

وفى الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شىء من العلم .

---

(١) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .

قوله تعالى : ﴿ **ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً * إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً** ﴾ : .

المناسبة وإجمال المعنى

جاءت هاتان الآيتان إرشاداً وتأديباً من الله لرسوله ﷺ ، يعلمه بأنه إذا أراد أن يخبر عن شىء سيفعله فى مستأنف الأيام ، أن يقْرن قوله بمشيئة علام الغيوب الذى يعلم ما كان وما سيكون .

وجاءتا معترضتين أثناء القصة لما تضمنتاه من تعليم عباده تفويض الأمور كلها إليه ، وبيان أنه لا يحدث فى ملكه إلا ما يشاء .

روى « أنهما نزلتا حين سألت قريش رسول الله ﷺ عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فقال عليه الصلاة والسلام : غدا أخبركم ، ولم يستثن (لم يقل إن شاء الله) فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما ، فشق عليه وكذبته قريش .

﴿ **ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله** ﴾ :

أى ولا تقولن أيها الرسول لشىء إنى سأفعل ذلك غداً إلا أن تقول : إن شاء الله ، ذاك أنه ربما مات المرء قبل مجىء الغد ، أو ربما عاقه عائق عن فعله فإذا لم يقل إن شاء الله صار كاذباً فى ذلك الوعد ونفر الناس منه .

﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ :

أى واذكر مشيئة ربك إذا فرط منك نسيان ثم تذكرت ذلك ، وهذا أمر بالتدارك حين التذكر ، سواء أطال الفصل أم قصر .

﴿ **وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً** ﴾ :

أى وقل عسى أن يوفقنى ربى لشىء أقرب إرشاداً للناس ، وأظهر حجة من نبأ أهل الكهف .

وقد حقق الله له ذلك ، فآتاه من الآيات ما هو أعظم من ذلك ، كقصص الأنبياء مع أممهم على توالى العصور ومر الأيام .

وخلاصة ذلك . اطمع من ربك أن يهديك لأقرب مما أرشدك إليه خيراً ومنفعة فى ضمن ما ألقى إليك من الأوامر والنواهى ، وقد استجاب الله دعاءه ، فهداه فيما أنزل عليه إلى ما هو خير منفعة ، وأجدى فائدة للمسلمين فى دنياهم وآخرتهم ، وآتاهم من الخير العميم ما جعلهم به خير أمة أخرجت للناس .

ثم بين سبحانه ما أجمل فى قوله : ﴿ **فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً** ﴾ ، فقال

سبحانه: ﴿ **ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً * قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ، مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً** ﴾ :

﴿ **ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا** ﴾ :

أى ولبثوا فى الكهف حين ضربنا على آذانهم ثلاث مائة سنة على حساب أهل الكتاب الذين علموا قومك السؤال عن شأنهم ، وتسعاً زائدة على حساب قومك الذين سألوك عن ذلك .

ولا شك أن فى هذا البيان معجزة لرسوله النبى الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ولم يدرس الحساب ولا الهندسة ولا الفلك ، فمن أين له أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية ، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية . وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يوما على السنة القمرية .

ولا شك أنه قد أعلمه اللطيف الخبير بما أوحاه إليه ، وهداه لأقرب من هذا رشداً ، وهو الذى جعله يلفت الأنظار الى علم ما على الأرض زينة لها كضوء الشمس والقمر على وجهها ، وما نتج عن ذلك الضوء من بهجة الأرض وزينتها ، فلولا اختلاف الفصول لم يكن للأرض زينة ، ولا اختلاف للفصول إلا بتقلب أحوال الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى ، فما من حيوان ولانبات إلا أسن حياته ضوء الشمس الذى أرسله الله إلى الأرض ، كما أرسل محمداً ﷺ ليهدينا إلى نور العلم ويقول لنا : إن النظر فيما على الأرض من زينة أقرب رشداً من قصص الأولين ، وحكايات الغابرين .

فكم فى العوالم المحيطة بكم من خوارق ، فإياكم أن تذروها ابتغاء ما يقع على أيدى أنبيائكم وأوليائكم ، فإنى قد أرسلت الأنبياء ليرشدوكم إلى ملكى وما فى خلقى من عجائب ، وما الأنبياء والأولياء إلا بعض خلقى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] .

ثم أكد أن المدة المضروب على آذانهم فيها هى هذه المدة فقال : ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ :

أى قل الله أعلم منكم بهم ، وقد أخبر بمدة لبثهم ، فهو الحق الذى لا يحوم حوله شك .

وفائدة تأخير بيانها الدلالة على أنهم تنازعوا فيها أيضاً كما تنازعوا فى العدد ، وعلى أن هذا بيان من الغيب الذى أخبر به الله به نبيه ليكون معجزة له ، وجاء قوله ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ :

أى قل الله أعلم منكم بهم ، وقد أخبر بمدة لبثهم ، فهو الحق الذى لا يحوم حوله شك .

وفائدة تأخير بيانها الدلالة على أنهم تنازعوا فيها أيضاً كما تنازعوا فى العدد ، وعلى أن هذا البيان من الغيب الذى أخبر الله به نبيه ليكون معجزة له ، وجاء قوله ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ تذييلا لسابقه ، ليكون محاكياً قوله فى حكاية عددهم ﴿ **قل ربى أعلم بعدتهم** ﴾ .

ثم أشار إلى اختصاصه بعلم مالبثوا دون غيره فقال : ﴿ **له غيب السموات والأرض** ﴾ :

(١) الآية ٥٧ من سورة غافر .

أى ولله ما غاب فيهما ، وما خفى من أحوال أهلهما ، لا يعزب عنه شيء منه ، فسلِّموا له علم ما لبثت الفتية فى الكهف ، وإذا علم الخفى فيهما فهو بعلم غيره أدرى .

ومن ذلك العلم الغائب على كثير من العقول حساب السنة الشمسية والقمرية فقد غيبه الله عن بعض الناس ، ولم يطلع عليه إلا العارفين بحساب الأفلاك ومن ثم يعجبون من أمر نبيهم ، ويعلمون أن هذا مبدأ زينة الأرض وزخرفها .

﴿ أبصر به وأسمع ﴾ :

هذا أسلوب فى اللغة يدل على التعجب والمبالغة فى الأمر الذى تتحدث بشأنه ، أى ما أبصر الله تعالى بكل موجود ، وأسمعه بكل مسموع ، فهو لا يخفى عليه شيء من ذلك ، وهذا أمر عظيم من شأنه أن يتعجب منه .

وقد ورد مثل هذا فى الحديث (ما أحلمك عمن عصاك ، وأقربك ممن دعاك ، وأعطفك على من سألك) .

﴿ مالهم من دونه من ولى ﴾ :

أى ما لخلقه دون ربهم الذى خلقهم – ولى يلى تدبير أمورهم وتصريفهم فيما هم فيه مصرَّفون .

﴿ ولا يشرك فى حكمه أحدا ﴾ :

أى إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ، تعالى الله وتقدست أسماؤه سبحانه بيده الأمر كله وإليه ترجع الأمور ، وإذا قال صدق ، وإذا حكم عدل ، لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار ، فكيف يتصور عاقل أن له شريكاً فى ذاته ، أو شبيهاً فى صفاته ، أو قسيماً فى أفعاله : ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .[1]

---

(١) الآية ٤٠ من سورة يوسف .

توجيهات إلٓهية

وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

المفردات : ﴿ **لا مبدل** ﴾ : أى لا مغير ، لكلماته أى لأحكامها ، فلا يستطيع أحد نسخ أحكام ما جاء فى كتابه . ﴿ **ملتحداً** ﴾ : أى ملجأ تعدل إليه إذا ألَمْت بك ملمة ﴿ **واصبر نفسك** ﴾ أى احبسها وثبتها . ﴿ **بالغداة والعشى** ﴾ : أى فى طرفى النهار ، وخصهما بالذكر ، لأنهما محل الغفلة ، وفيهما يشتغل الناس بأمور دنياهم . ﴿ **ولا تعد عيناك عنهم** ﴾ : أى لا تصرف عيناك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا ؛ والمراد لا تحتقرهم وتصرف النظر عنهم إلى غيرهم لرثاثة منظرهم ، ﴿ **تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾ : أى تطلب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء وأصحاب الثراء ، ﴿ **أغفلنا قلبه** ﴾ : أى جعلناه غافلا ، ﴿ **فرطا** ﴾ : أى تفريطا وتضييعا لما يجب عليه أن يتبعه من أمر الدين . ﴿ **وأعتدنا** ﴾ : أى أعددنا وهيأنا ، ﴿ **والسرادق** ﴾ : الفسطاط أى الخيمة . شبه به ما يحيط بهم من لهب النار المنتشر منها فى سائر الجهات ، ﴿ **المهل** ﴾ : دردىء الزيت أو ما أذيب من المعادن كالرصاص والنحاس ، ﴿ **يشوى الوجوه** ﴾ : أى ينضجها إذا قدُمْ ليشرب ، لشدة حره ، ﴿ **ومرتفقا** ﴾ : أى متكأ ، يقال مات فلان مرتفقاً أى متكئا على مرفق يده ، ﴿ **وجنات عدن** ﴾ : أى جنات إقامة واستقرار يقال عَدَنَ بالمكان إذا أقام فيه واستقر ، ومنه المعدْنِ لاستقرار الجواهر فيه ، ﴿ **والأساور** ﴾ : واحدها سوار ، ﴿ **والسندس** ﴾ : رقيق الديباج واحده سندسه . ﴿ **والإستبرق** ﴾ : ما غلظ منه . ﴿ **الأرائك** ﴾ : واحدها أريكه سرير عليه حَجَله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص أهل الكهف ، ودل اشتمال القرآن عليه على أنه وحى من علام الغيوب ، أمره جل شأنه بالمواظبة على درسه وتلاوته ، وألا يكترث بقول القائلين له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، ثم ذكر ما يلحق الكافرين من النكال والوبال يوم القيامة ، وما ينال المتقين من النعيم المقيم كفاء ما عملوا من صالح الأعمال .

قوله تعالى : ﴿ **واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا** ﴾ :

قال مجاهد : أى ملجأ .

وقال ابن جرير :إن أنت يامحمد لم تتل ماأوحى إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله ، كما قال تعالى : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ :[١] ، وقال : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾[٢] الآيه ، أى سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة .

وفى الآية الكريمة : ﴿ **واتل ما أوحى إليك** ﴾ : أمرٌ بتلاوة الوحى المتلو وهو القرآن العظيم الذى لا تغيير لأحكامه ، فالله تعالى إذا أراد قضى المراد وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب : ﴿ أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ﴾[٣] .

فمن اعتصم به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، ومن استمسك به أدخله الله الجنة وكفاه كل مهمة ، ومن اعتصم بغيره أساخ الله الأرض من تحته ، وقطع الأسباب من فوقه ، ولا يبالى كيف أهلكه ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾[٤] .

فهو القوى المتين صاحب الركن الركين ، والجناب المتين ، عليه توكلنا ، وإليه أنبنا ، وإليه المصير . فاللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء همنا ، وذهاب حزننا .

قوله تعالى : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾ :

قال مسلم فى صحيحه عن سعد بن أبى وقاص قال : « كنا مع النبى ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبى ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : كنا أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال

---

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة .
(٢) الآية ٨٥ من سورة القصص .
(٣) الآية ١١٤ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النور .

ورجلان نسيت أسميهما ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ [١] .

وفى فضل الغداة والعشى روى الإمام أبو داود الطيالسى بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (لأن أجالس قوما يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ولأن أذكر الله من صلاة العصر الى غروب الشمس أحب إلى من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفا) [٢] . فحسبنا دياتهم ونحن فى مجلس أنس فبلغت ستة وتسعين ألفا وههنا من يقول أربعة من ولد إسماعيل والله ما قال إلا ثمانية دية كل واحد منهم أثنا عشر ألفاً .

وقال الحافظ أبو بكر البزار عن الأغر أبى مسلم وهو الكوفى « إن رسول الله ﷺ مر برجل يقرأ سورة الكهف فلما رأى النبى ﷺ سكت فقال النبى ﷺ : هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » [٣] .

قال الامام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لايريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات)[٤] .

وقال الطبرانى : عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : « نزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بعض أبياته ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى** ﴾ : الآية فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله تعالى منهم ثائر الرأس ، وجاف الجلد ، وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم) .

هذا هو الإسلام وذاك نبيه الذى جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، إنه محرر العبيد الذى جعل من عباد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم ، أراد صناديد قريش أن يجعلوها عنصرية ، واستنكفوا أن يجالسوا فقراء المسلمين ، لكن الإسلام لا يزن الناس بمعيار الذهب والفضة فلا رنين ولا بريق ، إنما تقوى وعلم صالح ، ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عندالله أتقاكم إن الله علیم خبير ﴾[٥] .

كان طاغية الفاشية موسولينى يقول : إيطاليا فوق الجميع ، وكان هتلر طاغية النازية يقول : ألمانيا فوق الجميع ، وفرحوا بما أوتوا من العلم ، ونادى تشرشل : إنجلترا فوق الجميع ، لكن الإسلام حطم

(١) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .

(٢) أخرجه أبو داود فى العلم : ١٣ . والدرامى فى الرقاق : ٦٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٧٤ ، وفى ٥ : ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) أخرجه أبو داود فى العلم : ١٣ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٤٢ .

(٥) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

تلك الأصنام ، وأزال تلك الأوثان ، وأخرج الناس من عبادة الانسان إلى عبادة الواحد الديان ، ومن ظلم الطواغيت إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة .

النّاسُ من جهة التصوير أكفاء أبوهم آدم والأم حواءُ
فإن يكن لهم فى أصلهم شرفٌ يتفاخرون به فالطين والماء

إن المادية لما طغت على المعنويات أصبحت الموازين مختلة ، والقيم منكوسة ، والمثل منحوسة .

إن الغنى وإن تكلم بالخطأ قالوا أُصبت وصدقوا ما قال
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم أخطأت ياهذا وقلت ضلال
إن الدراهم فى المجالس كلها تكسو الرجال مهابة وجلال
فهى اللسان لمن أراد فصاحة وهى السلاح لمن أراد قتال

تباركت ربنا وتعاليت ، يا من أوصيت نبيك بهؤلاء الضعفاء :

﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾ :

قال ابن عباس : ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعنى تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ، هذا هو المعيار الحق والميزان العدل ، فالإنسان حيث يثبت لا حيث ينبت وحيث يوجد لا حيث يولد ، لقد ضلت الإنسانية ضلالا بعيداً عندما غفلوا عن آيات الله وصاروا يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .

يمشى الفقير وكل شىء ضده والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه ممقوتا وليس بمذنب ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت رجل الفتى حنت إليه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوما فقيراً ماشيا نبحت عليه وكشرت أنيابها

سبحانك ربى حكمت فعدلت ، وقلت وقولك الحق : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾ : أى شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ، ﴿ **وكان أمره فرطاً** ﴾ : أى أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع ، ولا تكن مطيعاً له ، ولا محبا لطريقته ، ولا تغبطه بما هو فيه ، كما قال سبحانه ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾[1] .

ليست السعادة فى الانتشاء باحتساء الكئوس المترعة ، ولا فى الاستمتاع بالغيد الأماليد ، إنما

(١) الآية ١٣١ من سورة طه .

السعادة فى طاعة الله ورسوله ، وفى الرضا بما قضى ربك ، وارض بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس ، السعادة فى تزكية النفس ، وإشراق العقل ، وصفاء الذهن عن كل مايشغله ويكدره بماديات الدنيا .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقىّ هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

يقول ريتشارد نيكسون : إن الولايات المتحدة لاتعانى أزمة مادية ، إنما تعانى أزمة روحانية ، لقد وجدنا أنفسنا أغنياء فى السلع لكننا فقراء فى الروح ، نصل فى قرب عظيم الى القمر ، ونسقط فى خلاف حاد على الأرض .

قوله تعالى : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا** ﴾ :

هذا إخبار كريم من رب كريم إلى نبى كريم ، فما أعظم الخطاب إذا كان من الله ، وما أجله إذا كان موجهاً إلى رسول الله ﷺ ، أى قل يامحمد للناس هذا الذى جئتكم به من ربكم هو الحق الذى لا مرية فيه ولاشك .

﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ : هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال ﴿ **إنا أعتدنا** ﴾ : أى أرصدنا ﴿ **للظالمين** ﴾ : وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه﴿ **ناراً أحاط بهم سرادقها** ﴾ : أى سورها ، فقد كفروا بالحق ، والله هو الحق ، قال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾[١] ، وله دعوة الحق والقرآن حق ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾[٢] ، ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾[٣] .

فاللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق .

اللهم لك خاصمت ، وبك حاكمت ، وإليك أنبت ، وعليك توكلت ، فاغفر لى ماقدمت وما أخرت ، وماأسررت وما أعلنت ، أنت إلهى ولا إله إلا أنت .

﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٤] .

---

(١) الآية ٦ من سورة الحج .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٣٢ من سورة يونس .
(٤) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة النور .

ولكل عاقل أن يقف كثيراً أمام قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[١]

فيا له من يوم ما أطوله ، ويياله من جبار ما أعدله ، ويياله من خطب ما أهوله ، ﴿ يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعًّا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[٢] .

روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ : (لسرادق النار أربعة جدر ، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة)[٣] . أخرجه الترمذى فى صفة النار .

وقال ابن عباس : ﴿ **أحاط بهم سرادقها** ﴾ : حائط من نار .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه** ﴾ : الآية :

قال ابن عباس : المهل : الماء الغليظ ، مثل دردى الزيت .

وقال عكرمة هو الشىء الذى انتهى حره .

وقال الضحاك : ماء جهنم أسود وهى سوداء وأهلها سود .

﴿ **يشوى الوجوه** ﴾ : من حره إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه ، ﴿ كلا إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعوا من أدبر وتولى * وجمع فأوعى ﴾[٤] .

وقال عبد الله بن المبارك : عن أبى أمامة عن النبى ﷺ فى قوله (ويسقى من ماء صديد* يتجرعه)[٥] قال : ويقرب اليد فيتكرهه فإذا قرب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شرب قطَّع أمعاءه ، ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾[٦] .

وقال سعيد بن جبير : إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم ، فيأكلون منها ، فاختلبت جلود وجوههم ، فلو أن مارًّا مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصيبهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذى انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود ، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿ **بئس الشراب** ﴾ : أى بئس هذا الشراب .

وقال تعالى : ﴿ تسقى من عين آنية ﴾[٧] أى حارة ، كما قال تعالى : ﴿ وبين حميم آن ﴾ :[٨] أى حار .

---

(١) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .
(٢) الآيات ١٣ – ١٦ من سورة الطور .
(٣) أخرجه الترمذى فى (جهنم) : ٤. والإمام أحمد فى ٣ : ٢٩ .
(٤) الآيات ١٥ ، ١٨ من سورة المعارج .
(٥) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سور إبراهيم .
(٦) الآية ١٥ من سورة محمد .
(٧) الآية ٥ من سورة الغاشية .
(٨) الآية ٤٤ من سورة الرحمن .

﴿ **وساءت مرتفقا** ﴾ : أى وساءت النار منزلا ومقيلا ومجتمعا وموضعا للارتفاق ، كما قال فى الآية الأخرى ﴿ **إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ [١] .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا** ﴾ :

هذا هو نور الوعد بعد نيران الوعيد ، فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى حال الأشقياء ثنّى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به ، وعملوا ما أمرهم به من الأعمال الصالحة ، فلهم جنات عدن والعدن الإقامة .

﴿ **تجرى من تحتهم الأنهار** ﴾ :

أى من تحت غرفهم ومنازلهم .

﴿ **يحلون** ﴾ :

أى من الحلية . ﴿ **فيها من أساور من ذهب** ﴾ :

وقال فى آية أخرى : ﴿ ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ﴾[٢] ، وفصله ههنا ، فقال : ﴿ **ويلبسون ثيابا خضراً من سندس وإستبرق** ﴾ :

فالسندس لباس رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها ، وأما الاستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق .

وقوله : ﴿ **متكئين فيها على الأرائك** ﴾ : :

الاتكاء قيل : الاضطجاع ، وقيل : التربع فى الجلوس ، وهو أشبه بالمراد ههنا . والأرائك جمع أريكة وهو السرير تحت الحجلة .

وقوله : ﴿ **نعم الثواب وحسنت مرتفقا** ﴾ :

أى نعمت الجنة ثوابا على أعمالهم وحسنت مرتفقا ، أى حسنت منزلا ومقيلا ومقاما ، كما قال فى النار : ﴿ **بئس الشراب وساءت مرتفقا** ﴾ : وهكذا قابل بينهما فى سورة الفرقان فى قوله : ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾[٣] .

ثم ذكر صفات المؤمنين فقال : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾[٤] .

---

(١) الآية ٦٦ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٢٣ من سورة الحج .
(٣) الآية ٦٦ من سورة الفرقان .
(٤) الآيتان ٧٥ ، ٧٦ من سورة الفرقان .

سبحانك ربى ، شعاع من رضاك يطفىء غضب سلوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو أنغمست فى نعيم الدنيا ، قطرة من فيض جودك تملأ الأرض رِيًا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا ، استحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف أسألك وأنك أنت ، ان كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

حاسبت نفسى لم أجدنى صالحـاً ... إلا رجائى رحمة الرحمن
ووزنت أعمالى على فلن أجد ... فى الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسى فى فعالى كلها ... وحى إذاً من وقفة الديّان
يأيها الاخوان إنى راحل ... مهما يطل عمرى فإنى فان
يارب إن لم ترض إلا ذا تقى ... من للمسيىء المذنب الحيران

الغنى غنى النفس

* وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

المفردات : ﴿ **الجنة** ﴾ البستان ، سميت بذلك لاجتنان أرضها واستتارها بظل الشجر وكل مادة (جـ ن ن) تفيد الخفاء والاستتار كالجنين والجن والمجنون لاستتار عقله وجن الليل : أى أظلم إلى

نحو ذلك . ﴿ **أعناب** ﴾ : أى كروم منوعة . ﴿ **وحففناهما بنخل** ﴾ : أى جعلنا النخل محيطا بهما مطبقا بحفافيهما أى جانبيهما ، يقال حفَّه القوم : أى طافوا به ، ومنه قوله : ﴿ **حافين من حول العرش** ﴾[1] . وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله ، ﴿ **أكلها** ﴾ : أى ثمرها ، ﴿ **ولم تظلم** ﴾ : أى لم تنقص ، ﴿ **والنهر** ﴾ : لغة فى النهر : وهو مجرى الماء العذب ، ﴿ **ثمر** ﴾ : أى أنواع من المال يقال ثمر فلان ماله وأثمره : إذا نماه قال الحارث بن كلدة :

ولقــد رأيت معــاشراً قد أثمروا مالا وولـــداً

﴿ **والصاحب** ﴾ : المصاحب لك . ﴿ **يحاوره** ﴾ : أى يجادله ويراجعه الكلام بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله والبعث ، والمراد من النفر الخدم والحشم والأعوان . ﴿ **أن تبيد** ﴾ : أى تفنى وتهلك ، ﴿ **قائمة** ﴾ : أى كائنة متحققة ، ﴿ **ومنقلبا** ﴾ : أى مرجعاً وعاقبة ، ﴿ **سواك** ﴾ : أى عدلك وكملك إنسانا . ﴿ **لكنا هو الله** ﴾ : أصل التركيب فى الجملة لكن أنا : هو الله ربى (دخله نقل وحذف) ﴿ **لولا** ﴾ : حرف يفيد الحث على الشيء والتوبيخ على تركه ، ﴿ **ماشاء** ﴾ : أى ماشاء الله كائن ، ﴿ **حسبانا من السماء** ﴾ : أى مطرا عظيما يقلع زرعها وأشجارها ، ﴿ **الصعيد** ﴾ : وجه الأرض . ﴿ **زلقا** ﴾ : أى تعيد بحيث تزلق عليها الرجل والمراد أنها تصير ترابا أملس لا تثبت فيه قدم . ﴿ **والغور** ﴾ : الغائر فى الأرض الغائص فيها ، طلبا : أى عملا وحركة لرده ، ﴿ **وأحيط بثمره** ﴾ : أى أهلكت أمواله يقال أحاط به العدو : إذا استولى عليه وغلبه ، ثم استعمل فى كل إهلاك ، ﴿ **يقلب كفيه** ﴾ : هذا أسلوب فى اللغة يفيد الندامة والحسرة ، فإن من تعظم حسرته يصفق بإحدى يديه على الأخرى متأسفا متلهفا ، ﴿ **خاوية** ﴾ : أى ساقطة ، يقال خوت الدار وخوت وخويت خيا وخويا : تهدمت وخلت من أهلها ، ﴿ **والعروش** ﴾ : واحدها عرش وهى الأعمدة التى توضع عليها الكروم ، ﴿ **منتصراً** ﴾ : أى ممتنعاً بقوة عن انتقام الله ، عقبا : أى عاقبة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه نبيه بصبر نفسه مع فقراء المؤمنين ، وعدم طاعة أولئك الأغنياء من المشركين ، الذين طلبوا منه ﷺ طرد هؤلاء الصعاليك ، وأن يعين لهم مجلسا وللسادة مجلسا آخر ، حتى لا يقال إن السادة ومواليهم يجتمعون فى صعيد واحد ، ويتحدثون وإياهم حديث الند للند ، وفى ذلك امتهان لكبريائهم ، وخفض من عزتهم – قفى على ذلك بمثل يستبين منه أن المال لا ينبغى أن يكون موضع فخار ، لأنه ظل زائل ، وأنه كثيراً ما يصير الفقير غنيا ، والغنى فقيراً ، وإنما الذى يجب أن يكون أساس التفاخر ، وعمدة التفاضل ، هو طاعة الله وعبادته ، والعمل على ما يرضيه فى دار الكرامة حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

---
(١) الآية ٧٥ من سورة الزمر .

قوله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً** ﴾ :

أى واضرب أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، مثلا هو مثل رجلين جعلنا لأحدهما بستانين من كروم العنب ، وأحطناهما بنخل ، وجعلنا وسط هذين البستانين زرعاً .

وخلاصة ذلك : إن أرضه جمعت القوت والفواكه وهى متواصلة متشابكة ، فلها منظر ورُواء حسن ووضع أنيق ، يخلب اللب بجماله وبهجته إذا امتلأ منه البصر .

وقد ضرب الله المثل ليبين حال الفريقين المؤمنين والكافرين من قبل أن الكفار مع تقلبهم فى النعيم قد عصوا ربهم ، وأن المؤمنين مع مكابدتهم للشدائد والبأساء قد أطاعوه .

﴿ **كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً** ﴾ :

أى كلتا الجنتين أخرجت ثمرها ولم تنقص منه شيئاً فى سائر الأعوام ، على خلاف مايعهد فى الكروم والأشجار من أنها تكثر غلتها أعواماً ، وتقل أعواماً أخرى .

﴿ **وفجرنا خلالهما نهراً** ﴾ : :

أى وشققنا وسط الجنتين نهراً كبيراً ، متفرع منه عدة جداول ، ليدوم سقيهما ، ويزيد بهاؤهما ، وتكثر غلتهما .

﴿ **وكان له ثمر** ﴾ :

أى وكان لصاحب الجنتين أموال أخرى غيرهما من ذهب وفضة ثمرها بما أدخره من غلات الجنتين ، ومن تجارات أخرى .

وخلاصة ذلك : إنه سبحانه أنعم عليه بخيرات الدنيا صامتها وناطقها ثاغيها وراغيها ، وكان له مزارع يستخدم فيها أعوانه وخدمه ولا يستعصى عليه شىء من مسرات الدنيا ومباهجها ولذاتها ونعيمها ، وبعد أن تم له الأمر وقعد على سنام العز والكبرياء ، داخله الزهو والخيلاء .

﴿ **فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً** ﴾ :

أى فقال لصاحبه المؤمن حين حاوره وراجعه الحديث ، مذكراً له بالايمان بالله والبعث والقيامة : أنا أكثر منك مالا كما ترى من جناتى وزروعى المختلفة ، وأعز عشيرة ورهطاً تقوم بالذب عنى ، ودفع خصومتلا ، وتنفر معى عند الحاجة إلى ذلك .

ثم زاد فخراً على صاحبه المسلم وأراه عيانا مايتمتع به من المناظر البهيجة فى تلك الجنان التى لا

تفنى ، وذلك ما أخبر عنه سبحانه بقوله : ﴿ **ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة** ﴾ :

أى ودخل هذا الذى جعلنا له جنتين من أعناب وأشجار ونخيل ، ومعه صاحبه هاتين الجنتين ، وطاف به فيهما مفاخراً ، وقال حين عاين مافيهما من أشجار وثمار وزروع وأنهار مطردة : ماأظن أن تفنى هذه الجنة أبداً . ولا تخرب كما قال ﴿ وهو شاك فى المعاد إلى الله والبعث والنشور ﴾ ما أظن أن يوم القيامة آت كما تقولون ، وقد كان فى كل ذلك ظالماً لنفسه ، إذ وضع الشىء فى غير موضعه ، فقد كان أليق به من أن يكون شاكراً لتلك النعم ، متواضعاً لربه ، لا أن يكون كافراً به ، منكراً لما جاء به الوحى ، وأقرته جميع الشرائع .

وخلاصة ذلك : إنه لحقه الخسار من وجهين :

(١) ظنه أن تلك الجنة لا تهلك ولاتبيد مدى الحياة .

(٢) ظنه أن يوم القيامة لن يكون .

ثم تمنى أمنية أخرى كان فى شك منها فقال :

﴿ **ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً** ﴾ :

أى ولئن كان معاد ورجعة إلى الله ليكونن لى هناك أحسن من هذا الحظ عند ربى ، والذى جرأه على هذا الطمع ، وعلى تلك اليمين الفاجرة ، اعتقاده أن الله إنما حباه بما حباه به فى الدنيا لما له من كرامة لديه ، ولما فيه من مزايا استحق بها أن ينال مانال .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن الكافر : ﴿ ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ﴾[1]

وخلاصة ذلك : إنه لم يعطنى الجنة فى الدنيا إلا ليعطينى فى الآخرة ما هو أفضل منها ، قال ذلك طمعاً ويُمناً على الله ، وادعاء للكرامة عنده .

ثم ذكر سبحانه جواب المؤمن له فقال :

﴿ **قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟** ﴾ :

أى قال له صاحبه المؤمن واعظاً وزاجراً عما هو فيه من الكفر : أكفرت بالذى خلقك من التراب ؟ إذ غذاء والديك من النبات والحيوان وغذاء النبات من التراب والماء ، وغذاء الحيوان من النبات ، ثم يصير هذا الغذاء ، وما يتحول بعضه الى نطفة يكون منها خلقك بشراً سوياً ، على أتم حال وأحكمه ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، فهذا الذى خلقك على هذه الحال قادر على أن يخلقك مرة أخرى .

---

(١) الآية ٥٠ من سورة فصلت .

والخلاصة : كيف تجحدون ربكم ودلالة خلقكم على وجوده ظاهرة جلية يعلمها كل أحد من نفسه ، فما من أحد إلا يعلم أنه كان معدوماً ، ثم وجد وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شىء من المخلوقات ، لأنها مثله . وقد أشار إلى ذلك بقوله :

﴿ لكنا هو الله ربى ﴾ :

أى لكن أنا لاأقول بمقالتك بل أعترف بالوحدانية والربوبية ، وأقول هو الله ربى .

﴿ ولا أشرك بربى أحداً ﴾ :

فهو المعبود وحده لاشريك له .

وفى هذا تعريض بأن صاحبه لما عجز الله عن البعث فقد جعله مساوياً لخلقه فى هذا العجز ، وإذا أثبتت المساواة فقد أثبت الشريك .

ثم زاد فى عظة صاحبه فقال له :

﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله ﴾ :

أى وهلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ، ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد مالم يعط غيرك ، وقلت : الأمر ماشاء الله ، والكائن ماقدره الله ليكون ذلك منك اعترافاً بالعجز ، وبأن كل خير بمشيئة الله وفضله ، وهلا قلت : لاقوة إلا بالله إقراراً بأن ماقويت به على عمارتها وتدبير أمرها فإنما هو بمعونة الله وتأييده .

وبعد أن نصح الكافر بالايمان وأبان له عظم قدرة الله وكبير سلطانه ، أجابه عن افتخاره بالمال والنفس ، ورد على قوله : أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً فقال :

﴿ إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً ﴾ :

أى إن ترنى أيها الرجل أفقر منك فإنى أرجو الله أن يقلب الآية ، ويجعل مابى بك ويرزقنى الغنى ويرزقنى لإيمانى جنة خيراً من جنتك ، ويسلبك بكفرك نعمته ، ويخرب جنتك بأن يرسل عليها مطراً من السماء يقلع زروعها وأشجارها ، أو يجعل ماءها يغور فى الأرض فلن تطيق أن تدركه بعد غوره بطلبك إياه .

وخلاصة ذلك : إن المؤمن رجا هلاك جنة صاحبه الكافر ، إما بآفة سماوية ، أو بآفة أرضية ، وهو غور مائها ، وكلتاهما تتلف الشجر والزرع والكرم .

ثم أخبر سبحانه بأنه قد حقق ما قدره هذا المؤمن فقال :

﴿ وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً ﴾ :

أى وأحاطت الجوائح بثمار جنته التى كان يقول فيها : وما أظن أن تبيد هذه أبداً ، فأصبح يقلب كفيه ندماً وأسفاً على ضياع نفقته التى أنفقها فى عمارتها حين رآها ساقطة على عروشها ، ويتمنى أن لم يكن قد أشرك بربه أحداً .

والخلاصة :

أنه لما أنفق عمره فى تحصيل الدنيا ، وأعرض عن الدين ، ثم ضاعت منه الدنيا حرم الدين والدنيا معاً ، ومن ثم عظمت حسرته وقال : ﴿ **ليتنى لم أشرك بربى أحداً** ﴾ :

﴿ **ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً** ﴾ :

أى ولم تكن له عشيرة ممن افتخر بهم واستعز ينصرونه ويقدرون على دفع الجوائح عنه ، أو رد المهلك له من دون الله ، فإن الله هو الذى يقدر وحده على نصره ، وماكان منتصراً بقوته عن انتقام الله منه باهلاك جنته .

وخلاصته : إنه لايقدر على نصره إلا الله ، ولا ينصره غيره من عشيرة وولد وخدم وحشم وأعوان ، كما لا يقدر أن ينتصر لنفسه .

ثم أكد الجملة السالفة وقرر المراد منها بقوله : ﴿ **هنالك الولاية لله الحق** ﴾ : أى فى مثل هذه الشدائد والمحن النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها غيره .

﴿ **هو خير ثواباً وخير عقباً** ﴾ :

أى هو خير جزاء وخير عاقبة لأوليائه ، فينتقم لهم منهم ، ويفوض أمرهم إليهم .

وبعد أن ضرب المثل لدنيا هؤلاء الكافرين التى أبطرتهم ، وكانت سبب شقائهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً ، ضرب مثلا لدار الدنيا عامة فى سرعة فنائها وعدم دوام نعيمها فقال سبحانه :

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

المفردات : ﴿ **المثل** ﴾ : الصفة . ﴿ **وهشيماً** ﴾ : أى يابساً متفتتا . ﴿ **تذروه** ﴾ : أى تنثره وتفرقه ﴿ **مقتدراً** ﴾ : أى كامل القدرة ﴿ **الباقيات الصالحات** ﴾ : هى الأعمال الصالحة كلها . ﴿ **ثواباً** ﴾ : أى جزاء .

المناسبة وإجمالى المعنى

أخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن جرير عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : (استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل : وما هى يارسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

وأخرج الطبرانى والنسائى والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعاً : (خذوا جُنتكم . قيل : يارسول الله من أى عدو قد حضر ؟ قال : بل جنتكم من النار ، قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات وهن الباقيات الصالحات) .

قوله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح** ﴾ :

فشُبهت الدنيا فى نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال بحال نبات أخضرّ والتف وأزهر ، ثم صار هشيماً متفتتاً تنثره الرياح ذات اليمين وذات الشمال ، ومن ثم لا يغتـر أهلها بها ، ولا يفخـر ذو الأموال الكثيرة بأمواله ، ولا يستكبـر بها على غيره فإنما هى ظل زائل وفى الحديث : (الدنيا كسوق قام ثم انفض) .

﴿ **وكان الله على كل شيء مقتدراً** ﴾ :

أى وكان الله ذو الكمال والجلال قادراً على كل شيء إنشاء وإفناء وإعادة . فهو يوحد الأشياء ثم ينميها ثم يفنيها ، وما حال الدنيا إلا هذه الحال فهى تظهر أولا ناضرة زاهرة ، ثم تتزايد قليلا قليلا ، ثم تأخذ فى الانحطاط إلى أن تصير إلى الهلاك والفناء ، فلا ينبغى للعاقل أن يبتهج بما يحوزه منها أو يفخر به ، أو يصعر خده استكباراً .

ثم بين سبحانه ما كانوا يفتخرون به من محسنات الدنيا إثر بيان حالها بما مر من المثل فقال : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) :

أى إن الأموال والبنين التى يفخر بها عيينة والأقرع وأضرابهم هى من زينة هذه الحياة ، وليسا من زاد الآخرة ، وقد علمت أن الدنيا سريعة الفناء فلا ينبغى التفاخر بها .

وقدم المال على البنين مع كونهم أعز منه لدى جميع الناس ، من قبل أن الزينة به أتم ، ولأنه يمد الآباء والأبناء فى كل حيـن ، ولأنه مناط بقاء النفس والأولاد ، وبذا يبقى النوع الانسانى ، ولأن الحاجة إليه أمس من الحاجة إليهم ، ولأنه زينة بدونهم دون العكس ، فإن من له بنون ولامال له فهو فى بؤس وشقاء .

روى عن على كرم الله وجهه : المال والبنون حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام .

ثم بين ما ينبغي التفاخر به فقال :

﴿ **والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا** ﴾ :

أى وأعمال الخير التى تبقى ثمرتها للإنسان وهى أفعال الطاعات كالصلاة والصدقات والجهاد فى سبيل الله ، ومساعدة البائسين ، وذوى الحاجات ، خير عند ربك من المال والبنين جزاءً وخير أملا ، إذ ينال بها صاحبها فى الآخرة ما كان يؤمله فى الدنيا .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

المفردات : ﴿ **بارزة** ﴾ : أى ظاهرة إذ لم يبق على وجهها شىء من العمائر ولا من الجبال والأشجار . ﴿ **وحشرناهم** ﴾ : أى سقناهم الى الموقف من كل أوب . ﴿ **فلم نغادر** ﴾ : أى لم نترك يقال غادره وأغدره إذا تركه ومنه الغدر وهو ترك الوفاء . ﴿ **وعرضوا** ﴾ : أى أحضروا لفصل القضاء . ﴿ **صفاً** ﴾ : أى مصطفين . ﴿ **موعداً** ﴾ : أى وقتا ننجز فيه ما وعدنا من البعث وما يتبعه . ﴿ **ووضع الكتاب** ﴾ : أى جعل كتاب كل عامل فى يد صاحبه حين الحساب . ﴿ **مشفقين** ﴾ : أى خائفين . ﴿ **والويل** ﴾ : الهلاك . ﴿ **وياويلتنا** ﴾ : أى ياهلاك أقبل . فهذا أوانك . ﴿ **أحصاها** ﴾ : أى عدها . ﴿ **حاضراً** ﴾ : أى مسطوراً فى كتاب كل منهم . ﴿ **ولا يظلم ربك** ﴾ : أى لا يتجاوز ما حدّه من الثواب والعقاب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان سبحانه أن الدنيا ظل زائل ، وأنه لا ينبغى أن يغتر أحد بزخرفها ونعيمها ، بل يجب أن يكون موضع التفاخر العمل الصالح الذى فيه رضا الله وانتظار مثوبته ، فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، أردف ذلك ذكر أحوال يوم القيامة وما يكون فيها من أخطار وأهوال ، وأنه لا ينجى منها إلا اتباع ما أمر به الدين ، وترك مانهى عنه ، مما جاء على لسان الأنبياء والمرسلين ، لا الأموال التى يفتخر بها المشركون على المؤمنين .

ذكر سبحانه من أحوال يوم القيامة أموراً :

١ - ﴿ **ويوم نسير الجبال** ﴾ :

أى واذكر أيها الرسول يوم نقلع الجبال من أماكنها ، ونسيرها فى الجو كالسحاب ، ونجعلها هباء

منثوراً كما قال : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً * لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾[١] .

أى تذهب الجبال وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا وادى ولا جبل ، وقال : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾[٢] ، وقال : ﴿ وبست الجبال بساً * فكانت هباء منبثاً ﴾ [٣] .

٢ - ﴿ **وترى الأرض بارزة** ﴾ :

أى وترى أيها الرائى جميع جوانب الأرض بادية ظاهرة ، إذ لم يبق على وجهها شىء من العمائر ، ولا شىء من الجبال ، ولا شىء من الأشجار ، فليس عليها ما يسترها ، فيكون جميع الخلق ضاحين لربهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ لاترى فيها عوجاً ولا أمتا ﴾ [٤] .

٣ - ﴿ **وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً** ﴾ :

أى وجمعنا الأولين والآخرين للحساب بعد أن أقمناهم من قبورهم ، فلم نترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً ، كما قال : ﴿ قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾[٥] .

وقال : ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود** ﴾ :

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يحشر الناس حفاة عراة غرلا فقلت : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك ﴾[٦]

وكما ذكر سبحانه حشر الخلق بين كيفية عرضهم على ربهم فقال :

٤ - ﴿ **وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة** ﴾ :

أى يعرض الخلق كلهم على الله صفاً واحداً كما قال : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ :[٧]

ويقال لهم على طريق التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا أيها الناس أحياء كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة فرادى حفاة عراة لا شىء معكم من المال والولد .

---

(١) الآيات ١٠٥ - ١٠٧ من سورة طه .

(٢) الآية ٨٨ من سورة النمل .

(٣) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الواقعة .

(٤) الآية ١٠٧ من سورة طه

(٥) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الواقعة .

(٦) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٨ ، ٤٨ ، وفى تفسير سوزة ٥ : ١٤ ، وفى الرقاق : ٤٥ . ومسلم فى الجنة : ٥٦ ، ٥٩ . والترمذى فى القيامة : ٣ ، وفى تفسير سورة ٨٠ : ٢. والنسائى فى الجنائز : ١١٨ ، ١١٩ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٣ . والدرامى ف الرقاق : ٨٠ ، ٨٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٣٩٨ ، وفى ٦ : ٥٣ ، ٩٠ .

(٧) الآية ٢٢ من سورة والفجر .

ونحو الآية قوله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ﴾[١] .

وفى هذا زجر لأولئك المشركين المنكرين للبعث ، الذين يفخرون فى الدنيا على الفقراء من المؤمنين بالأموال والأنصار .

أخرج ابن المنذر عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال : (إن الله تعالى ينادى يوم القيامة : ياعبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين ، أحضروا حجتكم ، ويسروا جوابكم ، فإنكم مسئولون محاسبون ، ياملائكتى أقيموا عبادى صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب) .

وفى الحديث الصحيح : (يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفاً يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ..)[٢] والحديث له بقية .

﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ :

أى ماكان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا هو كائن . وكنتم مع الافتخار على المؤمنين بالأموال تنكرونه فالآن قد استبان لكم أنه حق ، وأنه لا مال ولا ولد بين أيديكم .

٥ - ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ :

أى ووضع كتاب الأعمال الذى فيه الجليل والحقير فى يد صاحب اليمين والشمال ، فترى المجرمين جميعاً نادمين على مافيه من قبائح أعمالهم وسىء أفعالهم وأقوالهم ، وظهور ذلك لأهل الموقف خائفين من عقاب الحق ، والفضيحة عند الخلق .

﴿ ويقولون يا ويلتنا ماهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ :

أى ويقولون حين وقوفهم على مافى تضاعيفه : ياحسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله ، ماهذا الكتاب لا يترك هنة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعدها ، فهو محيط بجميع ماكسبته يد الإنسان .

---

(١) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٣ ، ٩ ، وفى تفسير سورة ١٧ : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢٧ . والترمذى فى القيامة : ٢٠ ، ٤٨ . والدرامى فى الرقاق : ٨٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٤ ، وفى ٢ : ٣٦٨ ، ٤٣٥ ، وفى ٣ : ١٦ ، وفى ٤ : ٤٠٧ .

ونحو الآية قوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ماتفعلون ﴾ [١]: وقوله : ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملوون ﴾[٢] .

مثل النفس إلا مثل الزجاجة التى يضعها المصور فى صندوق آلة التصوير ، فكل صورة تقع عليها تحطها وتحفظها من ضار ونافع ، فإذا كشف الغطاء أبصرنا كل ما عملنا ، ورأينا صورة كما هى من حسن وسيء وفضيلة ورذيلة ، فتقفل فى عقولنا فعلها دون كلام ولا كتابة ، وكل أمرىء يراها يقرؤها ، والناس فيها سواء .

ثم أكمل ما سلف بقوله : ﴿ **ووجدوا ماعملوا حاضراً** ﴾ :

مثبتاً فى كتابهم خيراً كان أو شراً ، كما قال : ﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً ﴾[٣] ، وقال : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾[٤] .

﴿ **ولا يظلم ربك أحدا** ﴾ :

من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ، ويعذب من يشاء بحكمته وعدله ، فإنه سبحانه وعد بإثابة المطيع ، وتعذيب العاصى بمقدار جرمه من غير زيادة ، وأنه قد يغفر له ماسوى الكفر ، ومن ثم لا يعذب أحداً بما لم يعمله ، ولا ينقص ثواب ما عمله مما أمر به وارتضاه ، ولا يزيد فى عقابه الملائم لعمله الذى نهى عنه ولم يرتضه .

ونحو الآية قوله : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[٥] . وقوله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٦] .

إن الجزاء نتيجة العمل ، والعمل مرسوم فى قوالب حافظة له ، فليس يمكن رفعه ولا دفعه ، ولا يكون الجزاء عليه ظلماً كما لا تعد التخمة بعد الأكل الكثير ظلماً ، وإنما تلك مسببات لأسباب كل عاقل يعلم أنها نتيجة حتمية لها .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ * مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ

(١) الآيات ١٠ – ١٢ من سورة الانفطار .
(٢) الآية ٢٩ من سورة الجاثية .
(٣) الآية ٣٠ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ١٣ من سورة القيامة .
(٥) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٦) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿ **فسق** ﴾ : خرج يقال فسق الرطب إذا خرج عن قشره . ﴿ **أفتتخذونه** ﴾ : الهمزة فى مثل هذا تفيد الإنكار والتعجب ممن يضل مثل ذلك . ﴿ **والذرية** ﴾ : الأولاد وبذلك قال جمع من العلماء منهم الضحاك والأعمشى والشعبى ومثل المراد بهم الأتباع من الشياطين والعدو يطلق على الواحد والكثير كما قال : ﴿ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾[1] . ﴿ **والعضد** ﴾ : أصله مابين المرفق إلى الكتف ويستعمل بمعنى المعين كاليد ونحوها وهو المراد هنا . ﴿ **فدعوهم** ﴾ : أى فاستغاثوا بهم . ﴿ **فلم يستجيبوا لهم** ﴾ : أى لم يغيثوهم . ﴿ **والموبق** ﴾ : مكان الوبوق أى الهلاك وهو النار يقال وبق وبوقاً كوثب وثوباً : إذا هلك ﴿ **مواقعوها** ﴾ : أى داخلوها وواقعون فيها . ﴿ **ومصرفا** ﴾ : أى مكانا ينصرفون إليه .

المناسبـــة

بعد أن ذكر سبحانه رده على أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بأموالهم وأعوانهم ، وقالوا : كيف نجلس مع هؤلاء ، ونحن من أنساب شريفة ، وهم من أنساب وضيعة ، ونحن أغنياء وهم فقراء .

قفى على ذلك بذكر عصيان ابليس لأمره تعالى بالسجود لآدم ، لأن الذى حداه الى ذلك هو كبره وافتخاره عليه بأصله ونسبه ، إذ قال :﴿خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾[2] .

فأنا أشرف منه أصلا نسباً فكيف أسجد له ؟ .

وقد تكرر ذكر هذه القصة فى مواضع من الكتاب الكريم ، وهى فى كل موضع سيقت لفائدة غير ما جاءت له فى المواضيع الأخرى ، على اختلاف أساليبها وعباراتها ، ولا غرو فهى من نسج العليم الخبير .

﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس** ﴾ :

واذكر أيها الرسول لقومك وقت قولنا للملائكة : اسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام ، إعترافاً بفضله ، واعتذاراً عما قالوه فى شأنه ، من نحو قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾[3] .

فسجدوا كلهم أجمعون امتثالا إلا إبليس أبى وأستكبر ..

(١) الآية ٧٧ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٧٦ من سورة ص .
(٣) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

ثم بين السبب فى عصيانه ومخالفته للأمر فقال : ﴿ **كان من الجن** ﴾ :

أى إن الذى منعه من السجود أنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بينهم ، متصفاً بصفاتهم ، بدليل أنه قال : ﴿ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾[1] .

ولأنه تعالى أثبت له فى هذه الآية ذرية ونسلا ، والملائكة لا ينسلون ، ولأن الملائكة لا يستكبرون ، وهو قد استكبر .

ويرى قوم أنه كان من الملائكة بدليل أن خطاب السجود كان معهم ، ولأن وصف الملائكة بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم دليل على أنه يتصور منهم العصيان ، ولولا ذلك مامدحوا به لكن طاعتهم طبع وعصيانهم تكلف ، وطاعة البشر تكلف ، ومتابعة الهوى منهم طبع ، ولأنه تعالى ذكر من هاروت وماروت ماذكر ، وهما ملكان على أنه لا دليل على أن هناك فروق جوهرية بين الملائكة والجن ، بها يمتاز أحدهما عن الآخر ، بل هى فروق فى الصفات فحسب ، والجميع من عالم الغيب لا نعلم حقيقتهم ، ولانضيف اليها شيئاً إلا إذا ورد به نص عن المعصوم .

﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾ :

أى فصار فاسقاً كافراً بسبب أمر الله للملائكة المعدود هو فى عدادهم ، إذ لولا الأمر ما تحقق إباء ، وفى الآية إيماء إلى أن فسقه قد نتج عن كونه من الجن إذ أن من شأنهم التمرد والعصيان لكدورة مادتهم ، وخباثة ذاتهم .

ثم حذر سبحانه من اتباعه بعد أن استبان من حاله ما استبان ، فقال : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ﴾ .

أى وبعد العلم بما صار منه من القبائح لا ينبغى لكم أن تتخذوه وأولاده وأعوانه أولياء لكم من دونى ، تطيعونهم بدل طاعتى ، وهم لكم أعداء .

﴿ **بئس للظالمين بدلا** ﴾ :

أى بئس البدل للكافرين بالله أتخاذ إبليس وذريته أولياء من دونه ، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم ، المتفضل عليهم بمالايحصى من الفواضل ، ثم بين السبب فى عدم إستحقاق إبليس وذريته هذه الولاية فى أنفسهم ، فقد فبعد بيان خباثة أصلهم فقال :

﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم** ﴾ :

أى ما حضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فكيف تطيعونهم وتعبدون الأصنام من دونى وهم عبيد أمثالكم ، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟

(١) الآية ٧٦ من سورة ص .

﴿ وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ :

أى وماكنت متخذاً من لا يهدون إلى الحق أعواناً وأنصاراً ، لأنهم يضلون فمتبعهم يجور عن قصد السبيل ، ولا يصل إلى هدى ، فكيف اتبعوهم وعبدوا الأصنام على مقتضى وسوستهم .

ثم أخبر سبحانه عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً فقال :

﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ :

أى واذكر أيها الرسول يوم الجمع حين يقول الله تعالى للكافرين على سبيل التأنيب والزجر : نادوا للشفاعة لكم من زعمتم فى الدنيا أنهم شركائى . لينقذوكم مما أنتم فيه ، والمراد بهم كل ماعبد من دون الله فدعوهم ليستغيثوا بهم ، ويشفعوا لهم فلم يغيثوهم .

﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ :

أى وجعلنا بين المشركين وماكان يدعون من دون الله شركاء فى الدنيا موضعاً للهلاك وهو النار ، حسما لأطماعهم أن يصل إليهم من دعوة للشفاعة .

﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ :

أى وعاين المشركون النار يومئذ فعلموا أنهم داخلوها ، ولم يجدوا بداً من الوقوع فيها ، لأن الله قد حتم عليهم ذلك فلا معدل لهم عنها ، ولا مكان لهم ينصرفون إليه ويزايلونها ، وقد أحاطت بهم من كل جانب .

مواقف ودروس

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَـٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَـٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ

ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

المفردات : ﴿ **صرّفنا** ﴾ : أى ردّدنا وكررنا ، ﴿ **والمثل** ﴾ : الصفة الغريبة ، ﴿ **والجدل** ﴾ : المنازعة بالقول ويراد به هنا المماراة والخصومة بالباطل ، ﴿ **وسنة الأولين** ﴾ : الإهلاك بعذاب الاستئصال ، ﴿ **والقبل** ﴾ :(بضمتين) الأنواع والألوان واحدها قبيل ، ﴿ **ليدحضوا به الحق** ﴾ : أى ليبطلوه ويزيلوه من قولهم دحَضتْ رِجْله أى زلقت ودحضت حجته بطلت ، ﴿ **وما أنذروا** ﴾ : أى ما خوفوه من أنواع العقاب ، ﴿ **ونسى ماقدمت يداه** ﴾ أى لم يتدبر عواقبه ، ﴿ **أكنة** ﴾ : أى أغطية واحدها كنان ، ﴿ **أن يفقهوه** ﴾ : أى أن يفهموه . ﴿ **وقرا** ﴾ : أى ثقلا فى السمع . ﴿ **الموعد** ﴾ : يوم القيامة ، ﴿ **موئلا** ﴾ : أى ملجأ ؛ يقال وأل فلان الى كذا وألاووءولا : إذا لجأ إليه . ﴿ **القرى** ﴾ : أى قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباههم .

ومناسبة هذه الآيات لما قبلها أنه تعالى بعد أن ذكر سبحانه شبهات المبطلين ، ورد عليه بأدلة لا تدحض ، وبرهانات لا تُرد . قفى على ذلك ببيان أن فى القرآن من الأمثال ما فيه مَقْنع لمن تذكر وتدبر ، وألقى السمع وهو شهيد ، لكنها القلوب قد تحجرت ، والأفئدة قد قست ، فلا تنفع فيها الذكرى ، ولا تستجيب لوعظ الواعظ ، ونصيحة المذكر ، ولو آخذهم ربهم بما كسبوا لأرسل عليهم العذاب معجلا ، ولم يُبْق منهم على ظهر الأرض أحداً ، ولكنه الغفور ذو الرحمة ، فجعل لهلاكهم موعداً ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويرعوون من غيهم .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد صرَّفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا** ﴾ :

أخرج الشيخان وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على كرم الله وجهه : « إن النبى ﷺ طرقه وفاطمة ليلا فقال : (ألا تصليان ؟) فقلت : يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلىّ شيئاً ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول : (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) »[1] .

وفى الآية إخبار عما فى القرآن الكريم من الأمثلة التى وضحها الله تعالى وبينها : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾[2] ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [3] .

---

(١) أخرجه البخارى فى التهجد : ٥ ، وفى الاعتصام : ١٨ ، وفى التوحيد : ٣١ . ومسلم فى المسافرين : ٢٠٦ .

(٢) الآية ٣٥ من سورة النور .

(٣) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت .

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[١] . ﴿ إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾[٢] .

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾[٣] .

وكان على الإنسان وهو الذى شرَّفه الله بالعقل أن يستعمل تلك الجوهرة الربَّانية فى التدبروالتفكر والتذكر ، لكنه وظف العقل فى غير سبيل الرشد ، فكان أكثر المخلوقات جدلا ، يجادل فى الحق من بعد ما تبين ، كما يجادل فى الأدلة الساطعة والحجج القاطعة . فتراه يقول : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب ﴾[٤] .

وكما يجادل فى الوحدانية تراه يمارى فى النبوة : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾[٥] .

﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴾[٦] .

﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ﴾[٧] ..

إلى غير ذلك مما جادلوا فيه .

قوله تعالى : ﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا** ﴾ :

إن تعجب فاعجب معى لقوم جاءهم الهدى فلم يؤمنوا ولم يستغفروا ربهم فيغفر لهم .

قال نوح لربه : ﴿ رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعائى إلا فرارا * وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا * ثم إنى دعوتهم جهاراً * ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾[٨] .

أتدرى ما منعهم عن اتباع الهدى والرشد ، إنك لتأخذنك الدهشة ويستولى عليك العجب عندما

(١) الآية ٢١ من سورة الحشر .
(٢) الآية ٢٦ من سورة البقرة .
(٣) الآيتان ٢٤ ، ٢٦ من سورة إبراهيم .
(٤) الآية ٥ من سورة ص .
(٥) الآية ٢ من سورة يونس .
(٦) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة المؤمنون .
(٧) الآية ٧ من سورة الفرقان .
(٨) الآيات ٥ – ١٢ من سورة نوح .

تقف على حقائق الأسباب ، لقد منعهم الكبر والعناد والجحود ، وكأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلمة ، اسمع إلى ما طلبوه بعد بيان الحق والهدى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾(١) .

لقد طلبوا عذاب الاستئصال الذى استعمله الله مع الأمم السابقة . كما طلبوا أن يأتيهم العذاب قبلا كما جاء فى قولهم : ﴿ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾(٢) .

ولو كانوا عقلاء ، وأزالوا الغشاوة عن عيونهم ، لقالوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ولذا جاء قوله تعالى رداً عليهم : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وماأنذروا هزواً ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى رسالة الأنبياء إلى أقوامهم ، كما يبين موقف الكافرين منهم ، فالأنبياء بعثوا بالخير والسعادة وجنات النعيم لأهل الحق والتوحيد والطاعة والأعمال الصالحة . كما بُعثوا منذرين بين يدى عذاب شديد لأهل الباطل والجحود والعناد والإنكار ... قال الله تعالى : ﴿ ومانرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٣) .

وقال فى حق خاتمهم : ﴿ وماأرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾(٤) .

وقال : ﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾(٥) .

أما أهل الباطل فإنهم يجادلون فى الحق وهو واضح . قال تعالى : ﴿ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ﴾(٦) . وقال جلَّ شأنه : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾(٧) .

إنهم واهمون عندما يظنون أنهم بباطلهم يستطيعون أن يزيلوا الحق ويدحضوه ويمحوه . إن الشمس هى الشمس لا يستطيع أحد أن يطفئ نورها بفمه . ﴿ يريدون ليطفئوا نورالله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾(٨) .

لقد جهل هؤلاء أو أغفلوا حقيقة الرسالات ، فأخذوا يقترحون على الأنبياء الآيات : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٢٩ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ٤٨ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .

(٥) الايتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .

(٦) الآية ٤ من سورة غافر .

(٧) الآية ٣ من سورة الحج .

(٨) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الصف .

تفجيرًا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفًا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابًا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولاً ﴾[١] .

ومع ذلك لقد اتخذوا آيات الله وحججه وبراهينه والدلائل القاطعة على وحدانيته ؛ اتخذوها هزواً ولعباً : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾[٢] ، ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا . إن هذا إلا أساطير الأولين * وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[٣] . فليتهم قالوا : فاهدنا إليه .

قوله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عنها ، ونسى ما قدمت يداه ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً** ﴾ :

الاستفهام هنا إنكارى يفيد النفى ، أى لا أحد أشد ظلما من هذا الذى جاءته البينات والهدى وذُكر بآيات ربه فلم يتذكر إنما أعرض عنها ونأى بجانبه واستكبر . ونسى ما قدمت يداه من الخطأ والكفر والجحود .

ثم بين الله العلة الكامنة فى حال هؤلاء فقال : ﴿ **إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه** ﴾ : أى أغطية وحجباً مانعة من الفقه والفهم ، كما جعلنا فى آذانهم وقرا وثقلا . قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾[٤] .

وقال جل شأنه : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لاجرمَ أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾[٥] .

وهذا هو الجزاء العادل ، قال تعالى : ﴿ جزاء وفاقا * إنهم كانوا لا يرجون حسابا * وكذبوا بآياتنا كذابا ﴾[٦] .

ولابد أن تكون نتيجة ذلك بعد أن سدت منافذ المعرفة لديهم .

﴿ **وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً** ﴾ :

قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[٧] ، وقال جلَّ شأنه ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[٨] .

---

(١) الآيات ٩٠ – ٩٣ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٥ من سورة الفرقان .

(٣) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الأنفال .

(٤) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة البقرة .

(٥) الآيتان ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة النحل .

(٦) الآيات ٢٦ – ٢٨من سورة النبأ .

(٧) الآية١٧ من سورة فصلت .

(٨) الآية ٥ من سورة الصف .

ومع هذه الجرائم التى ارتكبوها ، فإن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء فلوعاملهمبعدله ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

قال تعالى : ﴿ **وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا** ﴾ :

أى وربك أيها المخاطب الغفّار لذنوب عباده إذا هم تابوا وأنابوا . قال تعالى : ﴿ وإنى لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾[1] وهو ذو الرحمة الواسعة : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾[2] .

ومن مظاهر رحمته أنه يعاملهم بفضله فلو عاملهم بعدله لعجَّل لهم العذاب ، أى عذاب الاستئصال . قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[3] .

وقال جلَّ شأنه : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا** ﴾ :

أى ملجأ يلجأون إليه فرارا منه : ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لاوزر * إلى ربك يومئذ المستقر ﴾[5] .

ولقد أقام الله تعالى الأدلة القاطعة على ماسبق فقال : ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً** ﴾ :

المقصود بالقرى هنا القرى الظالمة ، كعاد وثمود وأصحاب مدين وقوم لوط .

قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[6] .

فالظلم مرتعه وخيم وهو ظلمات يوم القيامة ، وهو لا يدوم وإذا دام دمَّر . قال تعالى : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[7]

---

(١) الآية ٨٢ من سورة طه .
(٢) الآية ٧ من سورة غافر .
(٣) الآية ٦١ من سورة النحل .
(٤) الآية ٤٥ من سورة فاطر .
(٥) الآيات من ١٠ — ١٢ من سورة القيامة .
(٦) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٧) الآية ٥٩ من سورة القصص .

قصة موسى والعبد الصالح

وإذ قال موسى لفتىه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا (٦٠) فلما بلغا
مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا (٦١) فلما جاوزا قال لفتىه
ءاتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا (٦٢) قال أرءيت إذ أوينا إلى الصخرة
فإني نسيت الحوت وما أنسىنيه إلا الشيطن أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا (٦٣)
قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على ءاثارهما قصصا (٦٤) فوجدا عبدا من عبادنا ءاتينه
رحمة من عندنا وعلمنه من لدنا علما (٦٥) قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن
مما علمت رشدا (٦٦) قال إنك لن تستطيع معى صبرا (٦٧) وكيف تصبر على ما لم تحط به
خبرا (٦٨) قال ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا (٦٩) قال فإن اتبعتني فلا
تسئلني عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا (٧٠) فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها
قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا (٧١) قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا
(٧٢) قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا (٧٣) فانطلقا حتى إذا لقيا غلما
فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا (٧٤) * قال ألم أقل لك
إنك لن تستطيع معى صبرا (٧٥) قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصحبني قد بلغت من
لدني عذرا (٧٦) فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما
فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لتخذت عليه أجرا (٧٧) قال
هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا (٧٨) أما السفينة فكانت
لمسكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا
(٧٩) وأما الغلم فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغينا وكفرا (٨٠)
فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكوة وأقرب رحما (٨١) وأما الجدار فكان لغلمين
يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صلحا فأراد ربك أن يبلغا

أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

المفـردات : ﴿ **لاأبرح** ﴾ : أى لاأزال سائرا ، ﴿ **والحقب** ﴾ : (بضمتين وبضم فسكون) الدهر ، وقيل ثمانون سنة ، وعن الحسن سبعون ، مجمع بينهما ، أى مكان اجتماعهما ﴿ **سرباً** ﴾ : أى مسلكا كالسرب : وهو النفق فصار الماء عليه كالقنطرة ، ﴿ **والغداء** ﴾ : الطعام الذى يؤكل أول النهار والمراد به هنا الحوت ، ﴿ **نصبا** ﴾ : أى تعبا وإعياء ، ﴿ **أوينا** ﴾ : أى التجأنا نبغى : نطلب ، ﴿ **ارتدا** ﴾ : رجع ، ﴿ **على آثارهما** ﴾ : أى على طريقهما الذى جاءا منه . ﴿ **قصصا** ﴾ : أى اتباعاً من قولهم قص أثره إذا اتبعه ، ﴿ **الرشد** ﴾ : (بضم فسكون وبفتحتين) إصابة الخير ، ﴿ **والإحاطة بالشىء** ﴾ : معرفته تامة ، ﴿ **والخبر** ﴾ : المعرفة ، ﴿ **وذكراً** ﴾ : أى بيانا ﴿ **إمرا** ﴾ : أمراً عجباً ، ﴿ **ولا ترهقنى** ﴾ : أى لا تحملنى ، ﴿ **والعسر** ﴾ : ضد اليسر وهو المشقة . ﴿ **زكية** ﴾ : طاهرة من الذنوب ، بغير نفس أى بغير حق قصاص لك عليها ، ﴿ **والنكر** ﴾ : المنكر الذى تنكره العقول وتنفر منه النفوس . ﴿ **فلا تصاحبنى** ﴾ : أى فلا تجعلنى صاحباً لك ﴿ **بلغت من لدنى عذراً** ﴾ : أى وجدت عذراً من قبلى ، ﴿ **استطعما أهلها** ﴾ : أى طلبا منهم أن يطعموهما ، ﴿ **أن يضيفوهما** ﴾ : أى ينزلوهما أضيافاً : يقال ضافه إذا كان له ضيفاً ، وأضافه وضيفه : أنزله لديه ضيفا ، وأصل ضاف : مال ، من قولهم ضاف السهم عن الهدف : أى مال . ﴿ **جدارا :** ﴾ أى حائطاً ، أن ينقض : أى يسقط بسرعة ، وقد كثر فى كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم . ﴿ **أقامه** ﴾ : أى مسحه بيده فقام كما روى عن ابن عباس ، ﴿ **والتأويل** ﴾ : من آل الأمر إلى كذا : أى صار إليه : فإذا قيل ماتأويله : أى ما مصيره . ﴿ **المساكين** ﴾ : واحدهم مسكين ، وهو الضعيف العاجز عن الكسب لأمر فى نفسه أو فى بدنه ، ﴿ **يعملون فى البحر** ﴾ : أى يؤاجرون ويكتسبون ، ﴿ **أعيبها** ﴾ : أن أجعلها ذات عيب بنزع مانزعته منها ، ﴿ **وراءهم** ﴾ : أى أمامهم وهو لفظ يستعمل فى الشىء وضده . ﴿ **خشينا** ﴾ : أى خفنا ، ﴿ **أن يرهقهما** ﴾ : أى يحملهما ، ﴿ **طغيانا** ﴾ : أى مجاوزة للحدود الإلهية ، ﴿ **زكاة** ﴾ : أى طهارة من الذنوب ، ﴿ **رحما** ﴾ : أى رحمة كالكثْر والكثرة ، ﴿ **عن أمرى** ﴾ : أى عن رأيى وإجتهادى ، ﴿ **مالم تسطع** ﴾ : أى تستطع ماضيه اسطاع ، الذى أصله استطاع .

مقـدمـة

١ – مـن موسى ؟

موسى الذى ذكر فى هذه الآية هو موسى بن عمران ، نبى بنى إسرائيل ، صاحب المعجزات الظاهرة ، والشريعة الباهرة ، والدليل على ذلك :

أنه ماذكر الله موسى فى كتابه إلا أراد صاحب التوراة ، فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ، ولو كان شخصاً آخر سمى بهذا الاسم لوجب تعريفه بما يوجب الامتياز ويزيل الشبهة .

٢ - من فتاه ؟

فتى موسى - هو يوشع بن نون بن أفراثيم بن يوسف عليه السلام ، وقد كان يخدمه ويتعلم منه ، والعرب تسمى الخادم فتى ، وفى الحديث الصحيح : (ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ، ولا يقل عبدى وأمتى)[1] ، وهذا من محاسن الآداب الشرعية .

٣ - من الخضر ؟

(بفتح الخاء وكسرها وكسر الضاد وسكونها) لقب لصاحب موسى ، واسمه بَلْيا (بفتح الباء وسكون اللام) ابن ملكان والأكثرون على أنه كان نبيا ولهم على ذلك أدلة :

(أ) قوله تعالى : ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا** ﴾ : والرحمة : النبوة بدليل قوله : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ :[2]

(ب) قوله تعالى : ﴿ **وعلمناه من لدنا علما** ﴾ : وهذا يقتضى انه علمه بلا واسطة معلم ولا إرشاد مرشد ، وكل من كان كذلك كان نبيا .

(جـ) أنه قال له موسى : ﴿ **هل أتبعك على أن تعلّمن** ﴾ : والنبى لا يتعلم من غير النبى .

(د) أنه قال : ﴿ **ومافعلته عن أمرى** ﴾ : أى بل قد فعلته بوحى من الله وهذا دليل النبوة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأنصار ، وامتنعوا عن حضور مجلس النبى ﷺ ، لئلا يشتركوا مع أولئك الصعاليك فى مجلس واحد ، قضى على ذلك بذكر قصص موسى عليه السلام مع الخضر ، ليبين بها أن موسى مع كونه نبياً صادقاً ، أرسله الله إلى بنى إسرائيل بشيراً ونذيراً ، وهو كليم الله - أقر أن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه مالم يعلمه ، وفى ذلك دليل على أن التواضع خير من التكبر .

روى البخارى ما خلاصته : (أن موسى عليه السلام قام فى بنى إسرائيل خطيباً فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب عليه ربه ، إذ لم يرد العلم إليه تعالى ، فأوحى إليه : إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، وأمره أن يأخذ حوتاً فى مكتل ، فحيثما فقد الحوت فهو ثمَّة ، ففعل ذلك ، وسافر مع فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا صخرة فناما فاضطرب الحوت وسقط فى البحر - فاتخذ سبيله فى البحر

---

(١) أخرجه البخارى فى العتق : ١٧ . ومسلم فى الألفاظ :١٣ ، ١٥ . وأبو داود فى الآداب : ٧٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٦٣ ، ٤٨٤ ؟ ٤٩١ ، ٥٠٨ .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

سرباً – وصار الماء كالطاق عليه وهو يجرى ، فلما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، وانطلقا بقية يومهما وليلتهما . فلما كان الغد طلب موسى الغذاء ووجد النَّصَب ولم يكن ذلك إلا بعد أن جاوزا المكان الذى أمر الله به ، فقال فتاه : إنى نسيت الحوت ، وذكر ما كان من أمره عند الصخرة ، فارتدا على آثارهما قصصا ، حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلا مسجى بثوب أبيض ، وكان من أمرهما ما سترى من مسألة السفينة والغلام والجدار[1]) .

وبعد أن ذكر الأمور الثلاثة التى رآها موسى حين صاحب الخضر ، وذكر ما كان من إعتراض موسى عليه مرة بعد أخرى ، وقد كان أعلمه من قبل أنه لا يستطيع معه صبراً ، وكان من جراء ذلك أنه فارقه ولم يستطع صحبته – أردف ذلك بتفسير ما أُشكل عليه أمره ، مما ينكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر على حكمة باطنة فإن الأنبياء صلوات الله عليهم يحكمون بناء على الظواهر كما قال النبى ﷺ :(نحن نحكم بالظواهر ، والله يتولى السرائر)[2] .

وأحكام هذا العالم مبينة على الأسباب الحقيقية الواقعة فى نفس الأمر وهذا ما آتاه الله الخضر من قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ويطلع على حقائق الأشياء ، فكانت مرتبة موسى فى معرفة الشرائع والأحكام بناء على الظواهر ، ومرتبة هذا العالم الوقوف على بواطن الأمور وحقائق الأشياء والاطلاع على أسرارها الكامنة .

وخلاصة المسائل الثلاث : أنه حين يتعارض ضرران يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى ، فلو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها الملك وفاتت منافعها بتاتا ، ولو لم يقتل ذلك الغلام لكان بقاؤه مفسدة لوالديه فى دينهم ودنياهم . ولأن المشقة الحاصلة بإقامة الجدار أقل ضرراً من سقوطه – إذ بالسقوط كان بضيع مال أولئك الأيتام .

ومجمل الأمر فى ذلك ـــ إن الله أطلع الخضر على بواطن الأمور وحقائقها فى أنفسها ، وهذا لايمكن تعلمه إلا بتصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الحسيةومن ثم قال فى صفة علمه . ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ .

وموسى عليه السلام لما كملت مرتبته فى علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم ، ليعلمه أن كمال المعرفة فى أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على معرفة حقائق الأشياء على ماهى عليها فى الواقع .

قوله تعالى : **﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا * فلما بلغا**

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم : ٤٤ ، وفى الأنبياء : ٢٧ ، وفى تفسير سورة ١٨ : ٢ ، ٣ ، ومسلم فى الفضائل : ١٧٠ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٨ : ١ . والامام أحمد فى ٥ : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى : ٧٩ . ومسلم فى التوبة : ٥٣ . والنسائى فى المساجد : ٣٨ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٥٧ ، وفى ٦ : ٣٨٨ .

مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سرباً * فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً * قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً * قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً * فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ .

يذكر الله تعالى نبيه ومصطفاه بما حدث لموسى عليه السلام عندما قال لفتاه ﴿ **لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين** ﴾ : وسبب ذلك قول موسى لفتاه وهو يوشع بن نون أنه ذكر له عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم مالم يحط به موسى فأحبَّ الرحيل إليه ، وقال لفتاه ﴿ **لا أبرح** ﴾ أى لا أزال سائراً ﴿ **حتى أبلغ مجمع البحرين** ﴾ أى مكان اجتماعهما .

﴿ أو أمضى حقباً ﴾ : أى ولو أنى أسير حقبا من الزمان .

قال ابن جرير رحمه الله ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب ثمانون سنة كما روى عن عبد الله بن عمرو .

وقال مجاهد : سبعون خريفاً .

وعن ابن عباس قال : دهراً .

﴿ **فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما** ﴾ : وذلك أنه قد أمر بحمل حوت وقيل له متى فقدت الحوت فإن العبد الصالح هناك فسارا حتى بلغا مجمع البحرين فناما هنالك ، وكان الحوت فى مكتل مع يوشع عليه السلام وقفز الحوت من المكتل إلى البحر فاستيقظ يوشع بن نون وسقط الحوت فى البحر وجعل يسير فى الماء ، ولهذا قال تعالى ﴿ **فاتخذ سبيله فى البحر سرباً** ﴾ : أى مثل السرب فى الأرض .

﴿ **فلما جاوزا** ﴾ : أى المكان الذى نسيا الحوت فيه قال موسى ﴿ **قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً** ﴾ : أى تعباً .

﴿ **قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت ومآأنسانيه إلا الشيطان أن أذكره** ﴾ : ولهذا قال : ﴿ **واتخذ سبيله** ﴾ أى طريقه ، ﴿ **فى البحر عجبا * قال ذلك ماكنا نبغ** ﴾ أى هذا الذى نطلب .

﴿ **فارتدا** ﴾ :أى رجعا ، ﴿ **على آثارهما** ﴾ : أى طريقهما ﴿ **قصصا** ﴾ : أى يقصان آثار مشيهما ، ويقفوان أثرهما .

﴿ **فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً** ﴾ :

وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

قال البخارى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرنى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : « إن نوفا البكائى يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل ، قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟ قال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب وكيف لى به ؟ قال تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما .

حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه ﴿ **آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً** ﴾ : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه : ﴿ **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً** ﴾ .

٦ قال : فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا ، فقال : ﴿ **ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ . قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام . فقال : أنا موسى . فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً .

﴿ **قال إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ : يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، فقال موسى : ﴿ **ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً** ﴾ قال له الخضر : ﴿ **فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً** ﴾ .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً ﴿ **قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾

﴿ **قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من امرى عسراً** ﴾ . قال : وقال رسول الله ﷺ : فكانت الأولى من موسى نسياناً .

٨ قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين ، فقال له الخضر ماعلمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ رأسه فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له

موسى : ﴿ **أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى .

﴿ **قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض** ﴾ : أى مائلا ، فقال الخضر بيده ﴿ **فأقامه** ﴾ فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجراً * قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً** ﴾ . فقال رسول الله ﷺ (وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما)[1] .

قوله تعالى ﴿ **قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً * قال إنك لن تستطيع معى صبراً * وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا * قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً * قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً** ﴾ :

يخبر تعالى عن قول موسى عليه السلام للعبد الصالح الخضر الذى خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى ، كما أنه أعطى موسى من العلم مالم يعطه الخضر :

﴿ **قال له موسى هل أتبعك** ﴾ : سؤال تلطف لا على وجه الالتزام والإجبار ، وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العالم .

وقوله ﴿ **أتبعك** ﴾ : أى أصحبك وأرافقك : ﴿ **على أن تعلمن مما علمت رشداً** ﴾ : أى مما علمك الله شيئاً أسترشد به فى أمرى ، من علم نافع وعمل صالح ، فعندما ﴿ **قال** ﴾ : : الخضر لموسى ﴿ **إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ : أى إنك لا تقدر على مصاحبتى لما ترى منى من الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله ما علمكه الله وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله ، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، وأنت لاتقدر على صحبتى ﴿ **وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا** ﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر علّى ماأنت معذور فيه ، ولكن مااطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التى اطلعت أنا عليها دونك .

﴿ **قال** ﴾ :أى موسى : ﴿ **ستجدنى إن شاء الله صابراً** ﴾ . أى على مأرى من أمورك . ﴿ **ولا أعصى لك أمراً** ﴾ : أى ولا أخالفك فى شىء .

فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام : ﴿ **قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء** ﴾ : أى إبتداء ﴿ **حتى أحدث لك منه ذكراً** ﴾ : أى حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألنى .

قال ابن جرير عن ابن عباس قال : سأل موسى عليه السلام وبه عز وجل فقال : أى رب أى عبادك أحب إليك ؟ قال : (الذى يذكرنى ولا ينسانى) . قال : فأى عبادك أقضى ؟ قال : (الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى) قال : أى رب فأى عبادك أعلم ؟ قال : (الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه بها إلى هدى أو ترده عن ردى) قال : أى رب هل فى أرضك أحد أعلم

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة : ١٨ : ٢ ، ٤ . والترمذى فى تفسير سورة ١٨ : ١ .

منى ؟ قال : (نعم) قال : فمن هو ؟ قال : (الخضر) قال : وأين أطلبه ؟ قال : (على الساحل عند الصخرة التى ينفلت عندها الحوت) قال : فخرج موسى يطلبه حتى كان ماذكر الله ، وانتهى موسى إليه عند الصخرة ، فسلم كل واحد منهما على صاحبه ، فقال له موسى : إنى أحب أصحبك . قال : إنك لن تطيق صحبتى . قال : بلى قال : فإن صحبتنى ﴿ **فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً** ﴾

قال فسار به فى البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين ، وليس فى الأرض ماهو أكثر ماء منه ، قال : ويعث الله الخطاف فجعل يستقى منه بمنقاره ، فقال لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا المال ؟ قال : مأأقل مارزأ . قال : ياموسى فإن علمى وعلمك فى علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا المال .

وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه ، أو تكلم به ، فمن ثم أمر أن يأتى الخضر ، وذكر تمام الحديث فى خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإصلاح الجدار ، وتفسيره له ذلك .

قوله تعالى :

﴿ **فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً * قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً** ﴾ :

هذا إخبار من الله تعالى عن انطلاقهما أى موسى وصاحبه وهو الخضر ، وأنهما توافقا وأصطحبا واشترط عليه أن لا يسأله عن شىء أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه .

فركبا فى السفينة . وقد تقدم فى الحديث كيف ركبا فى السفينة ، وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول يعنى بغير أجرة تكرمة للخضر ، فلما استقلت بهم السفينة فى البحر ، ولججت أى دخلت اللجة ، قام الخضر فخرقها واستخرج لوحا من ألواحها ثم رقعها ، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكرا عليه : ﴿ **أخرقتها لتغرق أهلها** ﴾ وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل . ﴿ **لقد جئت شيئاً إمراً** ﴾ قال قتادة : عجبا ، فعندهما قال له الخضر مذكرا بما تقدم من الشرط ﴿ **ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ يعنى هذا الصنيع فعلته قصداً ، وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر على فيها ، لأنك لم تحط بها خبرا ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت .

﴿ **قال** ﴾ أى موسى ﴿ **لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً** ﴾ : أى لا تضيق علىَّ ولا تشدد علىَّ ، ولهذا تقدم فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال (كانت الأولى من موسى نسيانا) .

قوله تعالى :

﴿ **فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً * قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً** ﴾ :

روى ابن جرير باسناده عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه ، فقال ذات يوم : (رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب[1] ، ولكنه قال : ﴿ **إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً** ﴾ .

وهكذا قتل الخضر الغلام ، وقال له موسى ﴿ **أقتلت نفساً زكية بغير نفس** ﴾ والمراد بكونها زكية أن صاحبها لم يبلغ الحلم ، ولم يجر عليه القلم ﴿ **لقد جئت شيئاً نكراً** ﴾ :ينكره ذوو الألباب .

فكان رد الخضر عليه هذه المرة مشتملا على توكيد أشد : ﴿ **قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ .

وقد خلا الرد الأول بعد خرقه السفينة من قوله لك ، لأنها كانت المرة الأولى لذا قال له موسى ﴿ **إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً** ﴾ .

وهكذا كان أدب التلميذ مع الأستاذ ، فللأستاذ حقه فى أن يوجه التلميذ ، وعلى المتعلم أن يقيم للأستاذ وزنه ، جاء فى الأثر : ((تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة وتواضعوا لمن تعلمون منه))[2] .

قوله تعالى : ﴿ **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرًا * قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا** ﴾ :

وأتيا أهل قرية لا يعنينا ماسمها ، لأن القرآن كما علمنا يهتم بالجواهر والحقائق ، ويهدف إلى الحكمة البالغة ، والقيم الأخلاقية ، والمثل العليا ، ولو كان فى تعيينها خير لذكره الله ، ولكن أهل هذه القرية كانوا لئاما فأبوا أن يضيفوا هذين النبيين الجليلين ، فاعجب معى لقرية أبت أن تحسن ضيافة اثنين ، إن البخل داء وبيل ومرض اجتماعى خطير ، لكن العبد الصالح نظر إلى جدار يريد أن ينقض على الأرض ، فأسرع إليه فأقامه وعدّله ، مما جعل كليم الله موسى يقول له ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجراً** ﴾ إذ مثل هؤلاء الناس الذين بخلوا بما آتاهم الله من فضله ، ليسوا أهلا لمعروف يسدى إليهم ، لقد رفضوا الضيافة فلا أقل من أن نأخذ الأجر على العمل .

فقال الخضر لموسى ﴿ **هذا فراق بينى وبينك** ﴾ : وهذا وفاء بالشرط الذى اشترطه موسى عندما قال له ﴿ **إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى** ﴾ : ثم قال له الخضر ﴿ **سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً** ﴾ :

---

(١) أخرجه مسلم فى الفضائل : ١٧٢ . وأبو داود فى الحروف : ١ .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٣٤ .

ثم أخذ يفصل ما أجمل . فقال : ﴿ **أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً** ﴾ :

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنه ، فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها ، لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ **يأخذ كل سفينة** ﴾ صالحة أى جيدة ﴿ **غصباً** ﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها فينتفع بها أصحابها المساكين ، الذين لم يكن لهم شىء ينتفعون به غيرها ، وقد قيل إنهم أيتام .

قوله تعالى : ﴿ **وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما** ﴾ :

قال قتادة فى شأن هذا الغلام : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقى لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب .

إن حال المؤمن دائماً خير؛لأنه ينظر دائماً بعين البصيرة نظرة ثاقبة صائبة ، فيرى أمامه ، قوله جل شأنه : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ [1] وقوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[2] .

وقوله تبارك اسمه ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[3]

إن المؤمن تدور حاله بين الصبر والشكر ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن .

قال جل شأنه ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ [4] .

يا إلهى ما مسنى قدر بكره أو رضا
إلا اهتديت به إليك طريقاً

أمضى القضاء على الرضا منى به
إنى عرفتك فى البلاء رفيقاً

شعاع من رضاك يطفىء غضبة ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج
أبشر بخير فإن الفارج الله

(١) الآية ٤٩ من سورة القمر .
(٢) الآية ٥١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .
(٤) الآية ١٩ من سورة النساء .

اليأس يقطع أحياناً بصاحبه
لا تيأسن فإن الكافى الله
إذا بليت فثق بالله وارض به
إن الذى يكشف البلوى هو الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة
لا تجزعن فإن الصانع الله
والله مالك غير الله من أحد
فحسبك الله فى كل لك الله

صح فى الحديث : (لايقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له)[1] .

قوله تعالى : ﴿ **فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما** ﴾ : قال ابن جريج ، وقال قتادة : أبر بوالديه .

قوله تعالى : ﴿ **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ومافعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً** ﴾ :

ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما . قال عكرمة وقتادة : كان تحته مال مدفون لهما ، وهو ظاهر السياق من الآية .

عن أبى ذر رفعة قال : « إن الكنز الذى ذكره الله فى كتابه لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل ، لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وهذا الذى ذكره هؤلاء الأئمة ، وورد به الحديث المتقدم ، وإن صح لا ينافى قول عكرمة : إنه كان مالا ، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب ، وفيه مال جزيل أكثر مازادوا أنه كان مودعاً فيه علم ، وهو حكم ومواعظ ، والله أعلم .

وفى قوله تعالى : ﴿ **وكان أبوهما صالحاً** ﴾ : دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم فى الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة ، لتقر عينه بهم .

وعن ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما .

وقوله : ﴿ **فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما** ﴾ :

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١١٧ ، ١٨٤ .

ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى ، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله ، وقال فى الغلام : ﴿ **فأردنا أن يبد لهما ربهما خيراً منه زكاة** ﴾ : وقال فى السفينة ﴿ **فأردت أن أعيبها** ﴾ ، فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى** ﴾ :

أى هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ، ووالدى الغلام ، وولدى الرجل الصالح ، ومافعلته عن أمرى ، أى لكنى أمرت به ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر .

قوله تعالى : ﴿ **ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً** ﴾ :

ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هى تهتز من خضراء) .

والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس ، وهو الهشيم من النبات .

فائـــدة

كما أنه فسره له وبينه ووضحه ، وأزال المشكل ، قال : ﴿ **تسطع** ﴾ : وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلا فقال : ﴿ **سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً** ﴾ : فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف ، كما قال : ﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه** ﴾ : وهو الصعود إلى أعلاه ، ﴿ **وما استطاعوا له نقبا** ﴾ : وهو أشق من ذلك ، فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم .